القول الحق في تفسير سورة العلق

إعداد

د/ جابر منصور علي أبو الحمد

مدرس التفسير وعلوم القرآن في الكلية

مقدمة

الحمد لله الذي تقدت أسماؤه وعلت صفاته، خلق الإنسان ، وعلمه بالقلم ، وعلمه ما لم يعلم ، ويسر له القرآن فأتم بذلك النعمة وتفضل وتكرم ، وخلق لـه العقـل والقلب ليتفكر ويتدبر ، وأصلي وأسلم على خير من قرأ وبَّين وتدبر،خير من علـم فعمل، اللهم صلي عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فسبحان من بالعلم رفع ، وخفض بالجهل ووضع ، وجعل أهل العلم ورثة أنبيائه، وأقرب الناس إلى معرفة آلائه، إليهم عباده محتاجون ، وبموعظتهم يرجع المقصرون ، حياتهم زينة، وموتهم ثلمة ومصيبة ، وبعد ،

فمن المحزن ما وجدته من خلال كل من حولنا من ضحولة الفكر والمعرفـة، وعلى وجه الخصوص في التعامل مع كتاب الله ﷻ، فقد قصر المسلمون كتابهم على مجرد تمتمات ورقيات، وآيات تقرأ في محافل لا يعرف منها السامع إلا جمال الصوت، فيبدي إعجابه حتى ولو كان المعجَب به آية تنذر بعذاب ، وكأن كتاب الله لم يـنزل إلا لهذا ، ففصلوا أنفسهم عنه وهجروه ، حتى إني لا أبالغ حين أقول، إننا وصلنا إلى ما وصل إليه أهل الكتاب من قبل:﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾[1] أي إلا تلاوة وترتيلا ، فلَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ فَيَسْمَعُونَهُ وَبِقَدْرِ مَا يُذْكَرُ لَهُمْ فَيَقْبَلُونَهُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنَ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ،[2]وهذا بالفعـل مـا وصلنا إليه، فلم نربِّ أطفالنا على منهج القرآن فأصبح شابا لا يعرف من كتاب ربه إلا آيات يصلي بها، أو يقرأ هذا الكتاب في رمضان لأجل البركة، لا أنه منهج حياة، عطاؤه متجدد لكل زمان ومكان . إننا لم نصل إلى أمية الخط والكتابة فقـط علـى الرغم من أن طبيعة الإسلام تفرض على الأمة التي تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المتعلمين وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين، ذلك لأن حقـائق هـذا الـدين وأصوله ليست طقوسا أو تعاويذ تنقل بالوراثة ، بل وصلنا إلى أميـة فكريـة ، ولا

---

(١) البقرة من الآية : [٧٨] .

(٢) مفاتيح الغيب ج٣ ص ٥٦٤ .

أكون مبالغا في أن أقول نحن بحاجة إلى محو أمية العقيدة من جديد ونبذ التقليد الأعمى . إن المولى تبارك وتعالى حين قال:"أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا "[1]، ما هي الأقفال التي جعلتنا نبتعد عن كتاب الله ﷻ ؟ ، أهي ثقافة منحرفة، أم فهم خاطئ ، أم عادات موروثة،أم تهميش وتضييع للمنهج، فضِعنا وأضعناه من بين أيدينا، أم كسب حرام ران على القلوب فأغلقها فأعمى البصر والبصائر، وجعلنا نتنكر لكل ما هو من تراثنا ، فاستبدلناه بغيره في حين أنه المصدر الأسمى لمعارف الحياة والفقه الأكبر للمعرفة والحضارة ، إن من ينظر لهذا الخلل يجده يقترب بصورة كبيرة إلى ما كان عليه العرب ذي قبل ، ومن هنا بدأت الرسالة في أول بشاراتها بالحديث عن العلم والحث عليه، وذلك لو نعقل له مغزى كبير ودلالة واضحة على أهميته وأثره، وأنه الأساس الذي يُبنى عليه كل إصلاح، فالعلم أولاً ثم يأتي العمل بعد ذلك. ولهذا فقد وضع الإمام البخاري عنواناً لباب العلم فقال: "باب العلم قبل القول والعمل"، ونعلم أن فقه البخاري في تراجمه، وعليه فإن كل عمل لا يقوم على العلم ناقص مليء بالخلل والقصور، ويفسِدُ أكثر مما يُصلِح ، وله عواقبه الوخيمة وآثاره الموجعة. ولذا كانت "اقرأ" دعوة إلى الثقافة، إلى العلم، إلى الفكر، وإلى البحث المستفيض في كل ما خلق الله تعالى، كانت أول نداء يسمو بقدر القلم، ويفيض بقيمة العلم، ويعلن الحرب على الأمية ، ويجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يعلم، ولذا كان لابد من نفس جادة طموحة، تتحمل مشاق التعلم ، ومعاناة طلبه ، وتعب تحصيله، سواء في العلم الشرعي الذي لا غنى عنه ، أو الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والفلك والذرّة وغيرها، فإننا بحاجة أيضاً إلى العالِم في تلك العلوم وأمثالها وهي ضرورية لا غنى عنها لنهضة الأمة وتقدمها، والكل على ثغر من ثغور الإسلام بحسب مكانه وأثره ، فليحذر أن يؤتى الإسلام من قِبَله، فلم تكن ضراوة الحرب على الإسلام في هذا العصر أشد منها في أي عصر مضى، وقد نكص كثير من المسلمين عن هذا الدين، كما أن واقع المسلمين المتخلف عن الركب

---

(١) محمد الآية: [٢٤] .

الحضاري المتطور الذي يبدع كل يوم جديدا ، قد جعل أعداء الإسلام يستغلون هَذَا التَّخَلُّف مدعين أنه لو كان الْإِسلام قادرًا بالنهوض بالأمم والشعوبْ لما صَار المسلمون إلى هذا الحد من التخلُّف المخزي ، والحق إن واقع المسلمين يُعطي هذا الانطباع السَّيئ فِي نفوس النَّاس، ولكن لا عجب ؛ فإن بُعد المسلمين عن منهجهم الصحيح هو الذي أودى بهم إلى ذلك فأصبحت الأمة الآن دون المستوى ، فلم يحرز المسلمون أي تقدم إلا وقت أن كانوا متمسكين بدينهم ، ساعين في طلب العلم ، مدركين أن هذه الأمة تكمن نهضتها في تحصيلها له، ومن هنا أدرك الأعداء ذلك فعملوا بكل جهد على صرفهم عنه ، فمن هنا كان بحثي هو دعوة للعود من جديد إلى منهج كتاب الله ﷻ من خلال " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " ،ولذا سميته "القول الحق في تفسير سورة العلق" قاصدا السعي في طريق العلم الصحيح الذي لا انحراف فيه ، فإننا نلمس حتى مع تقدم الدول التي تزعم الآن أنها أصحاب حضارة ، وارتفعت بحضارتها الدنيوية هذه التي تنظر من عين واحدة، هي عين المادة، وبعلمها المادي المحض المجرد الذي لا يعترف بقيمة أو دين، ما الذي حققته البشرية من علمهم إلا الدمار، وصارت تتخبط في الظلمات ففقدت السعادة، وفقدت الخُلق، وفقدت الدين، ولذلك وصلت في هذا العصر من الانهيار والفساد والتخبط إلى مستوى أصبحوا هم يتضجرون منه ، ولكن من العجيب أن هذا الغزو الفكري بعد انتشاره في العالم الإسلامي أصبح أبناؤه ينبهرون بما عند الغرب من تقدم مادي وعلمي، بينما المسلمون متخلفون في جميع الميادين، وقد عملت مناهج التعليم ووسائل الإعلام على تعميق هذه الفكرة وترسيخها ، ومن هنا بدأت تخرج أجيال تنسلخ تدريجياً من الإسلام، فاستشرى الفساد الذي لم يكن فسادا للسلوك وحده، إنما تعدى ذلك إلى فساد المفاهيم، وهو أخطر بكثير ، فحين يفسد السلوك مع وجود مفاهيم صحيحة ، فالإصلاح مهما بلغت مشقته أيسر منالا وأقرب رجاءً مما لو كانت المفاهيم ذاتها قد فسدت، لأنك عندئذ تحتاج إلى جهد في تصحيح المفاهيم وهو الأشق، وجهد في

تصحيح السلوك بعد ذلك. ومن هنا فلم يعد يراعي من دينه إلا بعض قشور التقاليد التي ورثها وهي مخدوع بها، فتخيل له أنه تحتها ما يزال سليماً، مراعيا دينه ، فلم ينظر بعمق في تشريعه وكتابه وأنه هو الذي يأمر دائما بالعلم والتفكر وذم التقليد ، فأصبح هؤلاء مكمن للخطر وخاصة أنهم يدعون لذلك تحت شعارات خداعة براقة، كحرية الفكر والرأي ، وكفتح آفاق المعرفة، وكالخروج من الانغلاق والانهزامية والرجعية، إلى آخر هذه الدعاوى الهدامة ، وقد أحيطوا في الوقت ذاته بهالة من الدعاية الكاذبة تغطي انحرافهم وتستر جهلهم ، وهم في الحقيقة غثاء كغثاء السيل لا فائدة فيه ، كل ذلك جعل المشارب تختلف علينا، فلزمت عودتنا إلى هذا المنبع الروي . أبَعْد كل ذلك لا يستحق أن نفيق من غفلتنا وثباتنا ونرجع إلى منهج اقرأ ، باسم ربك ، تعلم ، لا تطغى ، اسجد واقترب ، دنيا ودين ، لا ضير ولا جور من أحدهما على الآخر دنيا تحمل إلى الآخرة ودين يُعيشك حياة نقية طيبة ، في أمة تسمو بالعلم والحضارة "اقرأ وربك الأكرم" .

وكان مما دعاني إلى الشروع في هذا البحث :

– ما رأيته من بعض التفاسير حتى في عصرنا الحديث ، وقد صب كل جهده في الاهتمام باللغويات والقوالب البلاغية، والاختلافات وتتبعها، والراجح منها، لكن أجد في البعض منها البعد عن واقعنا ولا يكاد يوجد رابط بين ما يتحدث عنه وبين العصر الحديث وما فيه من مشكلات، وكأنه يتحدث عن أمر بعيد كل البعد عن الواقع لا يتصل به، وليس معنى ذلك لومي عليهم في الاشتغال بذلك ولكن لومي عليهم في الاكتفاء به، ولم يحاول إلا بمجرد التلميح أحيانا أو التصريح لكن ليست بالصورة التي تجعل المرء يجزم بأن هذا الكتاب هو دستوره في كل زمان وكل مكان، ولا يستطيع الانسلاخ عما أمر أو ترك ما نهى، مهما بلغ من رقي أو ترف أو رفاهية عيش، بل إنك إن كنت عالما فلله وعلى منهج الله، وإن صرت عاملا فعلى منهجه لا تستطيع أن تتخلف بأي حال من الأحوال وإلا تفرقت بك السبل ، فلذا لما كان التفسير هو معرفة مراد الله بقدر الطاقة البشرية، فلكل جيل منها له أسئلته

ومتطلباته، وما يستلزم بيانه لكي يعيش سويا، وله أصل وجذر ينتمي إليه ، وله منهج يسير عليه، فخاتمية الرسالة وشموليتها تستلزم أن تستوعب كل جوانب المجتمع وحاجاته في كل زمان ومكان، فكان لزاما على من خاض غمار هذا العلم أن يراعي ما يتحدث عنه من كتاب الله تعالى، وبين ما يعيشه هو من عصر، متجردا عن كل زائف .

– قد سبق القول بأن خاتمية الرسالة وشموليتها تستلزم أن تستوعب كل جوانب المجتمع وحاجاته في كل زمان ومكان ، لكن واقع أمتنا المرير، وخطبها الجسيم في التخلف، لَمِمَّا يثير مسؤوليتنا الضخمة إزاء ذلك، في إخراج هذه الأمة من وهدتها التي اركتست فيها ، إنها الحرب الفكرية القائمة على الأمة وفصلها عن كتابها ، وفصل العلم عن العقيدة ، فإن الفتن والمصائب التي ألمت بالمسلمين ما هي إلا بسبب بُعد الأمة الإسلامية عن كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، عن دينها الذي يقوم على العلم ويرفض الضلالات جملة وتفصيلا، فسقطت في الجهل والخرافة والوهم والتخلف العلمي والعقلي والفكري، وابتعدت عن نور العلم والمعرفة والعقل والفكر الصحيح فلماذا لم نربِّ علماء لخدمة دينهم مهما بعدت تخصصاتهم ؟ لماذا قد تخلفت الأمة عن الركب، وقد بدأ منهجها بقوله "اقرأ بسم ربك" واختتم آخره بقوله "واتقوا يما ترجعون فيه إلى الله "؟ أي إنك من البداية للنهاية ، ومن الحياة إلى الممات ،أو من الخلق إلى الفناء أنت في قبضة الله فاعمل له وأخلص في العمل لوجهه. ومن ثم فنحن في حاجة إلى تأصيل الفهم لكتاب الله ﷻ، حتى نستفيد من ذلك في بناء ثقافتنا وتكون حضارة إسلامية مُعاصرة، مرتبطة بالقرآن كأساس قادر على الانطلاق والتقدم مستندا إلى شرع حنيف ونية خالصة .

– أهمية هذه السورة وأنها اشتملت على أهم مبادئ التربية للفرد والمجتمع ، وتقويم سلوكه ، في إعداده وتكوينه في الحث على العلم والقراءة باسم ربنا ، فيكون الفرد عبدا صالحا غير طاغ بعيد عن المفاسد ، صالحا مفيدا للفرد والمجتمع .

فلذا كان هدفي من هذا البحث هو :

– النهوض بالأمة الإسلامية من كبوتها وغفوتها التي طالت، وذلك بإعانة المسلمين على النهوض بأمتهم، وذلك عن طريق تربية الفرد المسلم تربية سليمة حتى يصبح نافعا لنفسه ولأسرته ومجتمعه ، وإعداد مؤسسات تقوم على خدمة الإسلام وأخلاقه ومبادئه، وتقف وقفة جادة في وجه هذا الانهيار.

– تغيير الواقع السيئ الذي يعيشه المسلمون مما باعد بينهم وبين دينهم وعقيدتهم ، وخاصة بعد هذه التحولات التي نراها ، فنحن نريد معالجة الأزمات في العالم الإسلامي، بالرجوع إلى منهجها، والعمل على نشر روح الإسلام الحقيقية، وإزاحة الغبار عن الأفكار الضالة التي علقت به من فصلها عن مناحي الحياة، وعمل المغرضون على إلصاق هذه الفكرة بها حتى يبتعد الناس عنه كعقيدة وعمل ومنهج، فلابد من العود إليه والتمسك بها وأدائها أداء حيا واعيا، فمحاولتي هذه ما هي إلا محاولة استدعاء لكتاب الله ﷻ للساحة، وجعله المصدر الأول للمسلم المعاصر ، فينتهي هذا الهجر بين كتاب الله ﷻ وبين هذا العقل المسلم، فيستعيد عافيته ويستقي منه العلم والمعرفة السليمة له وللوجود كله في كل قضية .

– أقول من خلال هذه السورة وحضها على طريق العلم ، وحتى لمن تعلم ، كيف يكون بعد ذلك مبرئا من كل طغيان ، نافعا لأمته ، أن يكون علمه بين اقرأ واسجد واقترب ، أقول لكل من يسعى لفصل المسلم عن شريعته، إن ما يفعلون ما هو إلا محاولة بائسة ، من أصحاب أبصار كليلة وبصائر عمية ، وأفكار صدئة ، قد ظهر خبث طويتها ، وسوء نيتها .

وقد قسمت بحثي هذا بالإضافة إلى المقدمة سالفة الذكر إلى مبحثين ، أما الأول منهما فقد تحدثت فيه عن أسماء السورة ومكان نزولها ، ومتى نزلت ، ولما كانت أول ما نزل ألقيت الضوء على الاختلاف الوارد حول ذلك، ثم تناولت عدد آياتها وكلماتها ، فضلها ، مقاصدها ، صلة السورة بما قبلها في ترتيب المصحف

وألقيت الضوء على ترتيب الآيات في سورها، وترتيب السور في المصحف الشريف، ثم ذكرت صلة السورة بما بعدها .

وأما المبحث الثاني فتناولت فيه تفسير السورة الكريمة قدر الطاقة . والله من وراء القصد.

ولا أدعي في عملي الكمال، فلا يفوتني أن أذكر أنه لابد وأن يوجد في هذا العمل بعض النقص والهفوات التي قد يسبق إليها القلم ، أو يذهل عنها الفكر، أو يخطئ الشخص في الحكم عليها، ولا كمال إلا لله وحده ، فأسأل الله أن يشملني برداء رحمته ، وأن يبلغني ثواب ما استعنت به عليه ، وأن يكون عملي سبيلا لنيل شفاعة النبي ﷺ، وأن ينفع سبحانه بعملي المسلمين وأن يجعلني من عباد الله الصالحين العاملين المخلصين المحبين لسنة خير المرسلين ﷺ السائرين على هديه المستقيم . آمين .

المبحث الأول

- أسماء السورة.
- مكان نزولها.
- متى نزلت.
- عدد آياتها وكلماتها.
- فضلها.
- مقاصدها.
- صلة السورة بما قبلها.
- صلة السورة بما بعدها .

أسماء السورة :

عند الحديث عن أسماء السور ينبغي أن نعلم هل هذه الأسماء للسور هو أمر توقيفي، أم أمر وُضع من اجتهاد الواضعين؟

يقول الزركشي :" وَيَنْبَغِي الْبَحْثُ عَنْ تَعْدَادِ الْأَسَامِي: هَلْ هُوَ تَوْقِيفِيٌّ أَوْ بِمَا يَظْهَرُ مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ؟ فَإِنْ كَانَ الثَّانِي فَلَنْ يَعْدِمَ الْفَطِنُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً تَقْتَضِي اشْتِقَاقَ أسمائها وهو بعيد.[١]

فهنا الزركشي قد استبعد أن يكون الأمر على سبيل الاجتهاد .

ويرجح العلامة السيوطي أيضا أن الأمر توقيفي فيقول في مؤلفيه الإتقان ومعترك الأقران :" وَقَدْ ثَبَتَ جَمِيعُ أَسْمَاءِ السُّوَرِ بِالتَّوْقِيفِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَلَوْلَا خَشْيَةُ الْإِطَالَةِ لَبَيَّنْتُ ذَلِكَ، وَمِمَّا يَدُلُّ لِذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَسُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا فَنَزَلَ "إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ".[٢] ومهما يكن الأمر سواء على سبيل الاجتهاد أم هو توقيفي فالأفضل الالتزام بالاسم الذي اشتهرت به ووردت به في المصحف، وإن كان معرفة الأسماء الأخرى للسورة هي من باب بيان فضلها وعلو منزلتها .

يقول د/ محمد بكر إسماعيل:" وقد يكون للسورة الواحدة أسماء متعددة كالفاتحة، وقد يكون للسورة اسم واحد، وهو الكثير. والذي ينبغي التزامه المحافظة على الاسم الوارد وعدم تغييره، فإن في فتح باب جواز التسمية إهدارًا لكيان السورة، وما اشتهرت به؛ وتعمية للجلي الواضح، ووضعه في ثوبٍ من الجهل والخفاء مما لا يليق وعظمة سور القرآن.[٣] يقول ابن الجوزي والسخاوي: سورة

---

(١) البرهان في علوم القرآن ج١ ص ٢٧٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ج١ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ج٢ ص ٢٧٦.

(٣) دراسات في علوم القرآن ، د/ محمد بكر إسماعيل ص ٥٩ .

اقرأ، وتسمى سورة العلق، وسورة القلم.[١] ويقول ابن عاشور:"اشْتُهِرَتْ تَسْمِيَةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بِاسْمِ "سُورَةِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ". رُوِيَ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَائِشَةَ :"أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ" فَأَخْبَرَتْ عَنِ السُّورَةِ بِاقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ. وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَأَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ وَمُجَاهِدٍ وَالزُّهْرِيِّ ، وَبِذَلِكَ عَنْوَنَهَا التِّرْمِذِيُّ. وَسُمِّيَتْ فِي الْمَصَاحِفِ وَمُعْظَمِ التَّفَاسِيرِ "سُورَةَ الْعَلَقِ" لِوُقُوعِ لَفْظِ "الْعَلَقِ" فِي أَوَائِلِهَا ، وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ فِي بَعْضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ. وَعَنْوَنَهَا الْبُخَارِيُّ: "سُورَة اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" . وَسَمَّاهَا الْكَوَاشِيُّ فِي التَّخْلِيصِ "سُورَةَ اقْرَأْ وَالْعَلَقِ". وَعَنْوَنَهَا ابْنُ عَطِيَّةَ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ: "سُورَةَ الْقَلَمِ" وَهَذَا اسْمٌ سُمِّيَتْ بِهِ "سُورَةُ ن"، وَلَمْ يَذْكُرْهَا فِي الْإِتْقَانِ فِي عِدَادِ السُّوَرِ ذَاتِ أَكْثَرَ مِنِ اسْمٍ .[٢].

ومن هنا نعلم أن السورة وإن سميت باسم سورة العلق في المصحف، إلى أنها انتشرت بين الناس قديما وحديثا باسم سورة اقرأ ، ولعل ما أعطاها الشهرة بهذا الاسم ، كونها أول ما نزل ، وكانت هذه اللفظة أول ما نطق به الوحي .

مكان نزولها : لا اختلاف في مكيتها، فهي مكية بالإجماع .

وقت نزولها :

قد أجمع المحققون من العلماء على أن هذه الخمس آيات الأُول من السورة الكريمة أول ما نزل على الرسول ﷺ من قرآن على الإطلاق وهو أصح الأقوال وأرجحها، يقول الخازن رحمه الله :" اتَّفَق جمهور المحققين على أن أوَّلَ ما نزل من القرآن الكريم بإطلاقٍ أوائل سورة العلق والمقصود بذلك أول خمس آيات منها، إلى

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ج٤ ص ٤٦٦، جمال القراء وكمال الإقراء ص ٩٣، لعلي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، علم الدين السخاوي (ت. ٦٤٣هـ)، ت. د. مروان العطيَّة ، د. محسن خرابة ، ط. دار المأمون للتراث دمشق ،بيروت ، ط. الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

(٢) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٣٣ .

قوله ﷺ:"عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" قَالَتْهُ عَائِشَةُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وهذا القول أصح الأقوال وأرجحها "[1]. أما بقيتها فكان نزوله متأخرا، وما فيه من ذكر أحوال المكذبين يدل على أنه إنما نزل بعد شيوع خبر البعثة، وظهور أمر النبوة، وتحرش قريش لإيذائه ﷺ .[2]

لكن هناك من اعترض على أن الخمس آيات الأُول هي أول ما نزل، وسنعرض لهذا الاختلاف وأدلة كل فريق ومن ثم يتبين لنا كيف كان القول بأنها أول ما نزل هو الرأي الأرجح [3].

أولا : الرأي الأول القائل إنها أول ما نزل:

١– قد أخرج الإمام البخاري في صحيحه جملة من الأحاديث التي ذكرت أمر الوحي تفيد صراحةً أن هذه الآيات من سورة "العلق" هي أوَّل ما نزل من القرآن الكريم، لم أذكرها كلها مخافة التطويل، وخاصة أنه جميعا تدلل على أمر واحد ، منها ما أخرجه في حديث طويل بسنده عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:"فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي

---

(١) تفسير الخازن " لباب التأويل في معاني التنزيل " ج٤ ص ٤٤٦ .

(٢) تفسير الخازن ج٤ ص ٤٤٦ ، تفسير جزء "عم" للشيخ محمد عبده ص١٢٢، تفسير المراغي ج ٣٠ص١٩٧، التفسير الوسيط د / طنطاوي ج ١٥ص ٤٥٢

(٣) ينظر في ذلك : أحكام القرآن لابن العربي ج ٤ ص ٤١٨ ، البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ١ ص ٢٠٦ : ٢٠٨ ، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٩١ وما بعدها ، مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ج١ ص ٩٣ وما بعدها ، دراسات في علوم القرآن د/ محمد بكر إسماعيل ص ٣٥ : ٣٧ ، دراسات في علوم القرآن د/ فهد الرومي ج ١ ص ٢٢٨ : ٢٣٣ .

فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ :"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" حَتَّى بَلَغَ "عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ".... إلى آخر الحديث " [1] .

– ما رواه الحاكم بسنده عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ:" أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" قال الذهبي: على شرط مسلم[2]، وكذلك ما أخرجه عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْبَصْرَةِ – وَكُنَّا نَجْلِسُ حِلَقًا حِلَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ بَيْنَ ثَوْبَيْنِ أَبْيَضَيْنِ، وَعَنْهُ أَخَذْتُ هَذِهِ السُّورَةَ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكِ الَّذِي خَلَقَ" قَالَ: وَكَانَتْ أَوَّلَ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ" قال الحاكم : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَلَهُ شَاهِدٌ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ" وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم. [3]

لكن هناك من قال بغير ذلك وسأعرض لهذه الأقوال ونقدها حتى يستقر الأمر أن اقرأ هي أول ما نزل فأقول، ومن الله العون وعليه التكلان :

القول الثاني: أن أول ما نزل سورة المدثر، قَالَهُ جَابِرٌ ﷺ . ودليل هذا القول ما رواه مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر، فقلت: أو اقرأ. قال: جابر أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال: "جاورت بحراء شهرًا ، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحدًا ثم نوديت. فنظرت فلم أر أحدًا ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء "يعني: جبريل عليه السلام" فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، فدثروني،

---

(١) وقد اقتصرت على الشاهد من الحديث مخافة التطويل والحديث أخرجه البخاري كتاب التعبير بَابُ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ ح رقم ٦٩٨٢ .

(٢) المستدرك على الصحيحين كِتَابُ التَّفْسِيرِ ح رقم ٢٨٧٣ .

(٣) المستدرك كِتَابُ التَّفْسِيرِ ح رقم ٢٨٧٢ .

فصبوا عليّ الماء، فأنزل الله ﷻ: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" .(١)

وأجيب عن هذا الحديث:

١- أن المراد بالأولية في هذا الحديث محمول على أولية مخصوصة وليست أولية مطلقة فيحتمل:

أ- أن المراد أول سورة نزلت بعد فترة الوحي، ويشهد لهذا قول جابر في رواية أخرى "سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: " فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ:"يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ" إِلَى "وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ"... الحديث"(٢). قَالَ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ: وَلَيْسَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْخَبَرَيْنِ تَضَادٌّ إِذِ اللَّهُ ﷻ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ" وَهُوَ فِي الْغَارِ بِحِرَاءَ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ دَثَّرَتْهُ خَدِيجَةُ وَصَبَّتْ عَلَيْهِ الْمَاءَ الْبَارِدَ وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ فِي بَيْتِ خَدِيجَةَ "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ" مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ تَهَاتُرٌ أو تضاد.(٣)

ب- أن أول ما نزل للنبوة سورة اقرأ وللرسالة سورة المدثر.

ج- أن المدثر أول سورة كمل نزولها أي أن باقيها نزل قبل نزول بقية سورة اقرأ وغيرها.

د- أن سورة المدثر أول سورة تنزل لسبب خاص؛ حيث إن الرسول ﷺ قال: "دثروني دثروني " فنزلت، أما سورة اقرأ فلغير سبب خاص بل نزلت ابتداء. قال ابن حجر :" قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: اسْتَخْرَجَ جَابِرٌ أول مَا نزل يَا أَيهَا المدثر بِاجْتِهَادٍ وَلَيْسَ هُوَ

---

(١) صحيح مسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ ، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ح رقم ٢٥٧ .

(٢) صحيح البخاري كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ ، بَابُ "وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" ح رقم ٤٩٢٥ .

(٣) صحيح ابن حبان كتاب الوحي، ذِكْرُ خَبَرٍ أَوْهَمَ مَنْ لَمْ يُحْكِمْ صِنَاعَةَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ يُضَادُّ خَبَرَ عَائِشَةَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ ج١ ص ٢٢١

مِنْ رِوَايَتِهِ ، وَالصَّحِيحُ مَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ فِي هَـذِهِ الرِّوَايَةِ فَرَأَيْتُ شَيْئًا أَيْ جِبْرِيلَ بِحِرَاءَ فَقَالَ لِيَ اقْرَأْ فَخِفْتُ فَأَتَيْتُ خَدِيجَـةَ فَقُلْـتُ دَثِّرُونِي فَنَزَلَتْ "يَا أَيُّهَا المدثر"، قُلْتُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْأَوَّلِيَّةُ فِي نزُول يَا أَيهَا المدثر بِقَيْدِ السَّبَبِ أَيْ هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بِسَبَبٍ مُتَقَدِّمٍ وَهُوَ مَا وَقَعَ مِنَ التَّـدَثُّرِ النَّاشِئِ عَنِ الرُّعْبِ وَأَمَّا اقْرَأْ فَنَزَلَتِ ابْتِدَاءً بِغَيْرِ سَبَبٍ مُتَقَدِّمٍ وَلَا يَخْفَى بُعْـدُ هَـذَا الِاحْتِمَالِ ". (١)

٢- أن جابرﷺ استنبط هذا الرأي باجتهاده وفهمه وليس بـنص مـا رواه عـن الرسول ﷺ فتقدم عليه رواية عائشة رضي الله عنها، فمعلوم أن النص مقدم علـى الاجتهاد، ويشهد لهذا أن جابرﷺ أخبر عما سمع، ولم يسمع كل ما حدث به رسول الله ﷺ قبل فترة الوحي الذي روته عائشة، فاقتصر على ما سمع ظانًّا أنه ليس هنـاك غيره، وقد سبق كلام الكرماني حول ذلك.

٣- أن في حديث جابرﷺ ما يدل على أن الرسولﷺ رأى جبريل قبل ذلك، حيث جاء في حديث جابرﷺ: "فإذا هو على العرش" وإشارته إليه بالضمير تدل على أنـه سبق ذكره وفي رواية أصرح "فإذا الملك الذي جاءني بحراء". ولهذا فإن هذا الـدليل غير كاف لإثبات أولية النزول لسورة المدثر؛ فإذا تطرق إلى الدليل الاحتمال سـقط به الاستدلال، بل وصف النووي رحمه الله ﷺ القول بأن أول ما نزل سورة المـدثر بأنه ضعيف بل باطل، والصواب أن أول ما نزل على الإطلاق:"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" كما صرح به في حديث عائشة" (٢).

كذلك من أدلة هذا الرأي ما قاله الـسيوطي: وَوَرَدَ فِـي أَوَّلِ مَـا نَـزَلَ حَدِيثٌ آخَرُ، رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "إِنَّ أَوَّلَ مَـا نَـزَلَ سُـورَةٌ مِـنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَـى الْإِسْـلَامِ نَـزَلَ الْحَلَـالُ

---

(١) فتح الباري لابن حجر ج٨ ص ٦٧٨.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (ت: ٦٧٦هـ) ج ٢ ص ٢٠٧ ، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط: الثانية، ١٣٩٢ ه .

وَالْحَرَامُ ". وَقَدِ اسْتَشْكَلَ هَذَا بِأَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ "اقْرَأْ" وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَأُجِيبَ بِأَنَّ مِنْ مقدره أي من أَوَّلُ مَا نَزَلَ وَالْمُرَادُ سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ وَفِي آخِرِهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَلَعَلَّ آخِرَهَا نزل قَبْلَ نُزُولِ بَقِيَّةَ "اقْرَأْ ".(١)

القول الثالث: إن أول ما نزل سورة الفاتحة قَالَه أَبُو مَيْسَرَةَ الْهَمْدَانِيُّ(٢)، (٣).

واستدل أصحاب هذا القول بما رواه البيهقي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: "إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرًا" فقالت: "معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.. الحديث"، وفيه أن خديجة قالت لأبي بكر: اذهب مع محمد إلى ورقةِ فانطلقا إليه فقصا عليه، فقال: "إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فأنطلق هاربًا في الأرض"، فقال: لا تفعل، فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني ، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين... الحديث." (٤)

وقد زعم الزمخشري أن "أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم" (٥).

---

(١) الإتقان ج ١ ص٩٥ .

(٢) عَمْرُو بْنُ شُرَحْبِيلَ (وَقد قِيلَ بْن شرَاحِيل وهَذَا لَيْسَ بِصَحِيح وَالصَّحِيح شُرَحْبِيل) وهو أبو ميسرة الهمداني ثم الوادعي. روى عن عمر وعلي وعبد الله بْن مَسْعُود روى عَنهُ أَبُو إِسْحَاق السبيعي ، وقال ابن حبان أنه من أهل الْكُوفَة من الْعباد كَانَ ركبته كركبة الْبَعِير من كَثْرَة الصَّلَاة مَاتَ فِي الطَّاعُون سنة ثَلَاث وَسِتِّينَ. الثقات لابن حبان ج٥ ص ١٦٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ط العلمية ج٦ ص ١٦٥.

(٣) تفسير ابن عطية ج ٥ ص ٥٠١ .

(٤) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي ، جماع أبواب المبعث ، بَابٌ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ ج ٢ ص ١٥٨ .

(٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص ٧٧٥ .

ويُرَد على أصحاب هذا القول بردود منها:

أ- أن هذا الحديث لا يدل على أن الفاتحة كانت أول ما نزل بل فيه دلالة على أن جبريل خاطب الرسول ﷺ غير مرة وليس فيه نفي بنزول شيء من القرآن في بعضها، فلا يصح الاستدلال بهذا على الأولية.

ب- أن الحديث مرسل فلا يقوى على مناهضة حديث عائشة المرفوع ، وقد عقب البيهقي على هذا الحديث بقوله: "فهذا منقطع، فإن كان محفوظًا فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعد ما نزلت عليه "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ" و"يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ" والله أعلم".(١) وعقب ابن كثير أيضا على هذا الحديث بقوله:"هذا لفظ البيهقي وهو مرسل، وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل".(٢) وقال الإمام النووي رحمه الله ﷺ: " وأما قول من قال من المفسرين أول.ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر والله أعلم"(٣).

كذلك رد ابن حجر على كلام الزمخشري فقال :"والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول، وأما الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول" ويعني بالأول صدر سورة اقرأ.(٤) وقد نقل الزركشي جمْع القاضي أبو بكر في الانتصار بين هذه الأقوال الثلاثة السابقة فقال:" وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ " وأول ما نزل من أوامر التبليغ " يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ " وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة.(٥)

---

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي ، جماع أبواب المبعث ، بَابٌ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥ ط : دار إحياء التراث العربي ، ت: علي شيري ، ط: الأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ م .

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (ت: ٦٧٦هـ) ج ٢ ص ٢٠٨.

(٤) فتح الباري ج٨ ص ٧١٤ .

(٥) البرهان في علوم القرآن ج١ ص ٢٠٧ .

القول الرابع: إن أول ما نزل "بسم الله الرحمن الرحيم". حَكَاهُ ابْنُ التِّقِيبِ فِي مُقَدِّمَةِ تَفْسِيرِهِ قَوْلًا زَائِدًا ولأصحاب هذا القول أدلة منها:

١- حديث أبي ميسرة السابق وقد سبق القول بأنه حديث مرسل لا يقوى على مناهضة المرفوع .

٢- ما أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أول ما نزل من القرآن بمكة وأول سورة اقرأ باسم ربك [١] وهو أيضًا حديث مرسل لا يقوى على مناهضة حديث عائشة المرفوع .

٣- ما أخرجه ابن جرير الطبري رحمه الله ﷺعن الضحاك عن عبد الله بن عباسﷺ قال: أول ما نزل جبريل على محمد. قال: "يا محمد استعذ، قل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم" ثم قال:" قل " بسم الله الرحمن الرحيم" ثم قال:"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد بلسان جبريل"، يقول العلامة أحمد شاكر في تحقيقه لهذا الحديث عند ابن جرير:" الحديث نقله ابن كثير في التفسير عن هذا الموضع من الطبري، وقال: "وهذا الأثر غريب! وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفًا وانقطاعًا". وأما الانقطاع الذي أشار إليه ابن كثير، فمن أجل اختلافهم في سماع الضحاك بن مزاحم الهلالي من ابن عباس. وقد رجحنا في شرح المسند سماعه منه. وكفى ببشر بن عمارة ضعفًا في الإسناد، إلى نكارة السياق الذي رواه وغرابته!! [٢].

وهذا مع ضعفه وانقطاعه فهو حجة عليهم لا لهم؛ إذ إن ابن عباس رضي الله عنهما صرح فيه بأولية نزول اقرأ ولم يعتد بأولية ذكر البسملة. ثم إن البسملة فاتحة لكل سورة تنزل فلا يعتد بأوليتها أولية مطلقة. وبهذا كله يظهر بطلان هذا القول. قال السيوطي :" وَعِنْدِي أَنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ قَوْلًا بِرَأْسِهِ

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي (ت: ٤٦٨هـ) ص ١٣، ت: كمال بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط: الأولى، ١٤١١ هـ .

(٢) تفسير الطبري ت شاكر ج١ ص ١١٣ بتصرف .

فَإِنَّهُ مِنْ ضَرُورَةِ نُزُولِ السُّورَةِ نُزُولُ الْبَسْمَلَةِ مَعَهَا فَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى الْإِطْلَاقِ"[١] .

وهناك من الأقوال ما لم يشتهر ذكره مثل :

القول الخامس : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[٢] . وقد نص على ذلك ابن العربي في كتابه أحكام القرآن ، وكذلك ممن ذكره من المفسرين ابن عادل الحنبلي ، والقرطبي .[٣]

القول السادس : إن أول ما نزل هي سورة المزمل، ، يقول الحافظ ابن حجر: " وَفِي أَوَّلِ سُورَةٍ نزلت قَول آخر نقل عَن عَطاء الخرساني قَالَ الْمُزَّمِّلُ نَزَلَتْ قَبْلَ الْمُدَّثِّرِ وَعَطَاءٌ ضَعِيفٌ وَرِوَايَتُهُ مُعْضِلَةٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ لِقَاؤُهُ لِصَحَابِيٍّ مُعَيَّنٍ وَظَاهِرُ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ تَأَخُّرُ الْمُزَّمِّلِ لِأَنَّ فِيهَا ذِكْرُ قِيَامِ اللَّيْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَرَاخَى عَنِ ابْتِدَاءِ نُزُولِ الْوَحْيِ بِخِلَافِ الْمُدَّثِّرِ فَإِنَّ فِيهَا قُمْ فَأَنْذِرْ" [٤] .

القول السابع : وقيل أن أول ما نزل هو سورة "ن"، يقول الحافظ ابن حجر:" وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ "ن وَالْقَلَمِ"[٥] . ويرد على هذا القول ما سبق من أدلة القول الأول ومدى ثبوتها ، وكذا ما أخرجه أبو عمرو الداني في البيان بسنده عن جَابر بن زيد قَالَ أنزل على النَّبِي من الْقُرْآن أول مَا أنزل بِمَكَّة "اقْرَأ باسم رَبك الَّذِي خلق" ثمَّ "ن والقلم" ثمَّ "يَا أَيهَا المزمل" ثمَّ "يَا أَيهَا المدثر" ثمَّ ... " [٦].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ج١ ص ٩٥.

(٢) الأنعام الآية : [١٥١].

(٣) أحكام القرآن ج ٤ ص ٤١٨ ، لابن العربي المالكي (ت. ٥٤٣هـ) ، ت. محمد عبد القادر عطا ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط. الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م ، تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١١٨ ،اللباب في علوم الكتاب ج ٢٠ ص ٤١٣ لا بن عادل الحنبلي (ت. ٧٧٥هـ) ، ت. الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، ظ. دار الكتب العلمية – بيروت ص لبنان ، ط. الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م .

(٤) فتح الباري لابن حجر ج٨ ص ٦٧٨ .

(٥) المرجع السابق ج٨ ص ٦٧٨ .

(٦) البيان في عد آي القرآن ص ١٣٥ لأبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ) ، ت: غانم قدوري الحمد ، ط: مركز المخطوطات والتراث بالكويت، ط: الأولى، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م.

عدد آياتها وكلماتها :

عدد كلمها اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ كلمة، وحروفها مئتان وَثَمَانُونَ حرفا، وَهِي ثَمَانِي عشرَة آيَة فِي الشَّامي ، وتسع عشرَة فِي الْكُوفِي والبصري ، وَعِشْرُونَ فِي الْمَدَنِيين والمكي، واختلافها آيتان "لَئِن لم ينْتَه" عدهَا المدنيان والمكي وَلم يعدها الْبَاقُونَ، و"أَرَأَيْت الَّذِي ينْهَى" لم يعدها الشَّامي وعدها الْبَاقُونَ.(١)

فضلها :

يكفي في فضلها أنها أول ما نزل ، فهي أول نور من السماء إلى الأرض ، لكن من المعلوم أن باب فضائل السور اشتهر كثيرا بالجرأة على الوضع فيه وكان مجالا خصبا لكل صاحب نفس ضعيفة ، وليس المجال هنا مجال الحديث عن ذلك ، لكني أحببت أن أومئ لذلك ولو من بعيد ، فقد ذُكر حديث في فضلها لكنه من الأحاديث الواهية وهو حديث أُبيّ الطويل وفيه: مَنْ قرأ سورة (اقرأ) فكأنما قرأ المُفَصَّلَ كلَّه (٢)، وحديث أبي هذا قد تناوله العلماء بالرد والتفنيد وجزم البعض منهم بوضعه (٣) . وحديث عليّ: يا عليّ مَنْ قرأها أعطاه الله ثواب المجاهدين وله بكلّ آية

---

(١) البيان في عدّ آي القرآن ص٢٨٠ ، جمال القراء وكمال الإقراء ص٣١٥ ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج١ ص ٥٢٩ : لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ) ،ت: محمد علي النجار ، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ط: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .، مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ ويُسَمَّى: "المَقْصِدُ الأَسْمَى فِي مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّى" ج٣ ص ٢١٢، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) ، دار النشر: مكتبة المعارف - الرياض ، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ، وأورده الزمخشري في الكشاف ج٤ ص ٧٧٩ ، تخريج أحاديث الكشاف ج٤ ص ٢٤٩، ٢٥٠ ، تفسير البيضاوي ج٥ ص ٣٢٦ .

(٣) ينظر في هذا : الموضوعات لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ج ١ ص ٢٣٩ وما بعدها، ت : عبد الرحمن محمد عثمان ، ط: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، ط: الأولى ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ٣٠٧ وما بعدها ، لمحمد أبو شُهبة (ت: ١٤٠٣هـ) ، ط: مكتبة السنة ، ط: الرابعة .

قرأها مدينةٌ، وله بكلّ حرف نورٌ على الصّراطِ. [١] ويتحدث السيوطي عن فضلها فيقول :" وقد شرَّف الله نبيه في هذه السورة بثلاثة أنواع:"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ"، وقهر خصمه بقوله: "فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ"، وتخصيصه بالقرب في قوله: "وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ". [٢]

مقاصد السورة :

اشتملت السورة المباركة على مقاصد عديدة منها :

– فضل الله على الأمة ، ومَنِّه عليها بالقراءة والكتابة والعلم بعد أن كانت أمية لا تقرأ ولا تحسب، وفيه إشارة وبشرى إلى أن الأمة نهضتها في العلم ، خلُقيا وماديا ما دامت النية لله وباسم الله ، وأنه ستصير أمة العلم والقراءة والكتابة وهي الأساس لكل بناء عظيم شامخ، وكذلك هي الأساس للفرد والمجتمع ، بل هي مبدأ من مبادئ القرآن ، وأيضا أن تخلف الأمة وضياعها في ترك العلم وسبيله، وهو ما حدث معنا إذ صرنا في مذيلة الأمم، نتسول بقاياهم في كل شيء، حتى في العلوم أصبحنا عالة على أدناها .

وكذلك في العود بالأمر بالقراءة وربطها بكرم الباري ﷻ دليل على أن العلم منه فهو الأكرم الحنان المنان الواهب الذي وهب هذا الإنسان هذا الفضل الذي لا يساويه فضل، ولا يكون إلا منه.

– السورة تبدأ بدعوة حية إلى العلم والتعلم، وفي المقابل البعد عن الجشع والطغيان بالمال. فَأَوَّلُ السُّورَةِ يَدُلُّ عَلَى مَدْحِ الْعِلْمِ وَآخِرُهَا عَلَى مَذَمَّةِ الْمَالِ، وَكَفَى بِذَلِكَ مُرَغِّبًا فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَمُنَفِّرًا عَنِ الدُّنْيَا والمال . [٣]

– هذه السورة التي شرف الله بها البشرية قد اشتملت على مقاصد القرآن ، ولاسيما أول ما نزل فيها قد اشتمل على أهم مقاصد الدين وأصوله من التوحيد فقوله "باسم

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج١ ص ٥٣٠ ، وحاولت تخريجه مرارا فلم أقف عليه .

(٢) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص ١٧٤.

(٣) تفسير الرازي"ج٣٢ ص ٢٢١ ، روح المعاني ج ١٥ص٤٠٤ .

ربك" فيه دليل على ابتداء كل شيء باسمه ﷻ ، وأن ما نحن فيه من فصل للعلوم عن مبدأ التدين هو ما أفضى بنا إلى العلمانية، والمادية ونحوهما، لكن لو أخلص المتعلم في كل العلوم دون تفريق بين العلوم، سواء علم شرعي أو علم تجريبي لأُجر على ذلك وكان عمله سبيلا إلى النهوض بالأمة لا تقويضها أو فتنة للبعض منها ، ومن هنا بينت السورة أن سبب غفلة الإنسان وتجبره واستكباره إذا ابتعد عن طريق الله ﷻ.

ويصف ابن حجر رحمه الله تناول هذه السورة لهذا المقصد الأسمى وهو الدعوة إلى التوحيد ، وغيره من أحكام وأخبار بقوله بأنها "عنوان القرآن" فقال: وَالْحِكْمَةُ فِي هَذِهِ الْأَوَّلِيَّةِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْخَمْسَ اشْتَمَلَتْ عَلَى مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ فَفِيهَا بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ وَهِيَ جَدِيرَةٌ أَنْ تُسَمَّى عِنْوَانُ الْقُرْآنِ لِأَنَّ عِنْوَانَ الْكِتَابِ يَجْمَعُ مَقَاصِدَهُ بِعِبَارَةٍ وَجِيزَةٍ فِي أَوَّلِهِ وَهَذَا بِخِلَافِ الْفَنِّ الْبَدِيعِيِّ الْمُسَمَّى الْعُنْوَانُ فَإِنَّهُمْ عَرَّفُوهُ بِأَنْ يَأْخُذَ الْمُتَكَلِّمُ فِي فَنٍّ فَيُؤَكِّدُهُ بِذِكْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ وَبَيَانُ كَوْنِهَا اشْتَمَلَتْ عَلَى مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ أَنَّهَا تَنْحَصِرُ فِي عُلُومِ التَّوْحِيدِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ وَقَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ وَالْبُدَاءَةِ فِيهَا بِبِسْمِ اللَّهِ وَفِي هَذِهِ الْإِشَارَةُ إِلَى الْأَحْكَامِ وَفِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِتَوْحِيدِ الرَّبِّ وَإِثْبَاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ مِنْ صِفَةِ ذَاتٍ وَصِفَةِ فِعْلٍ وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أُصُولِ الدِّينِ وَفِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْبَارِ مِنْ قَوْلِهِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يعلم " (١).

– توجيه النظر إلى مِنن الخالق علينا، وعلى عظمته، فالسورة توجه نظرنا إلى كيف خلق الله الإنسان ورباه من جرثومة صغيرة حتى أصبح خلقا عجيبا بسط سلطانه على الأرض، ومن ثم فهو الخالق وهو المربي فيجب شكره ويحرم كفره، فهي تلفت نظرنا إلى مبدأه ومن ثم تدلل على أن مَن خلقه من هذا الشيء المهين قادر على أن يعيده مرة أخرى فلا داعي لتكبره وتمرده وطغيانه، فهذا العرض دعوة إلى التأمل والتفكير في الخلق، خلق الكون عموما، والإنسان خصوصا، مما ينعكس على الفرد إيمانا بالله وقدرته، وكذلك حبا وتعظيما له وتقبلا لأوامره ونواهيه .

---

(١) فتح الباري لابن حجر ج٨ ص ٧١٨، ٧١٩ .

– الإخبار عن مدى طغيان الإنسان وتمرده على أوامر اللّه، وجحوده نعم اللّه عليه وغفلته عنها رغم كثرتها في حال توافر الثورة والمال والغنى لديه ، فبمجرد أن بسط الله له طغى وتكبر، وتنصل عن أمر خالقه ونواهيه، فقابل النعمة بالنقمة، وكان الواجب عليه أن يشكر ربّه على فضله، فجحد النعمة وتجبّر واستكبر .

– من مقاصد السورة التحذير والتشديد والتنبيه على أن الجميع كلهم غنيهم وفقيرهم طائعهم وعاصيهم ، سيرجع إلى الله ﷻ، فيحاسب كل نفس بما كسبت، هذه الحقيقة التي نسيها أو تعامى عنها أو أنكرها، وحول حياته نتيجة لهذا الإنكار أو التغافل إلى حياة ظالمة طاغية عاشت على الظلم واستمرأته.

– التهديد والوعيد لكل من صد عن سبيل الله وعن عبادته والدعوة إليه، وفيه من التحذير ما فيه ، كما أن فيه من البشرى لكل من سجد وتذلل وأطاع بالقرب منه سبحانه وتعالى .

– تثبيت النبي ﷺ، وهو في مبدأ الدعوة وتسليته وتبشيره أن الله ناصره على أعدائه وأمره ﷺ بأن يمضي في طريقه ، دون أن يلتفت إلى مكرهم أو سفاهاتهم، وأن القوة القاهرة هي قوة الله ﷻ.

صلة السورة بما قبلها في ترتيب المصحف :

الحديث عن المناسبة سواء بين السورة وما قبلها وما بعدها ، أو ما بين الآيات وبعضها البعض يذهب بنا إلى أمرين ، الأول: الترتيب بين الآيات في سورها .

الثاني : الترتيب بين السور :

أولاً : ترتيب الآيات في سورها :

قد انعقد الإجماع على أن ترتيب الآيات في سورها بتوقيف من النبي ﷺ، يقول ابن الزبير الغرناطي:" اعلم أولا أن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين" [1] ، ويقول الإمام السيوطي : " الْإِجْمَاعُ

(١) البرهان فى تناسب سور القرآن ج١ ص ١٨٢.

وَالنُّصُوصُ الْمُتَرَادِفَةُ عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَ الْآيَاتِ توقيفي لا شبهة في ذلك" [١] ، ويقول الشيخ الزرقاني في مناهله :"انعقد الإجماع على ذلك تاما لا ريب فيه"[٢].

وقد استدل العلماء على ذلك بأدلة كثيرة منها ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: "أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى" إلى آخرها[٣]. وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عُمَرَ قَالَ: مَا سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ عَنِ الْكَلَالَةِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ:"تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ"[٤] وَمَا رَوَاهُ أيضا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا :"مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ[٥]" وَمِنْهَا الْأَحَادِيثُ فِي خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَمِنها النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ إِجْمَالًا مثل مَا ثَبَتَ من قراءته لِسُوَرٍ عَدِيدَةٍ كَسُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ وغيرها. [٦]

أما عن الحديث عن ترتيب السور فقد ذهب العلماء فيه إلى ثلاثة أَقْوَالٍ:

القول الأول: إن ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن توقيفي، وأنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر من الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل كترتيب الآيات سواء بسواء، ويؤيده اجتماع الصحابة على ترتيب مصحف عثمان.[٧] قَالَ أبو بكر الأنباري: أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ إِلَى سماء الدُّنْيَا ثُمَّ فَرَّقَهُ فِي بِضْعٍ وَعِشْرِينَ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ج١ ص ٢١١ .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ج١ ص ٣٤٧.

(٣) مسند أحمد ط الرسالة ج٢٩ ص ٤٤١ ح ١٧٩١٨ والحديث إسناده ضعيف لضعف ليث وهو ابن أبي سليم، وشهر بن حوشب.

(٤) كتاب الطلاق باب ميراث الكلالة ح رقم ١٦١٧

(٥) كتاب صلاة المسافرين وقصرها بَابُ فَضْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ ح رقم ٨٠٩

(٦) الإتقان في علوم القرآن ج١ ص ٢١٣ بتصرف .

(٧) دراسات في علوم القرآن الكريم ص ١٠٨ أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ، ط: الثانية عشرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

فَكَانَتِ السُّورَةُ تَنْزِلُ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ وَالْآيَةُ جَوَابًا لِمُسْتَخْبِرٍ وَيُوقِفُ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَوْضِعِ الْآيَةِ وَالسُّورَةِ، فَاتِّسَاقُ السُّوَرِ كَاتِّسَاقِ الْآيَاتِ وَالْحُرُوفِ كله عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَمَنْ قَدَّمَ سُورَةً أَوْ أَخَّرَهَا فَقَدْ أَفْسَدَ نَظْمَ الْقُرْآنِ، وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ: تَرْتِيبُ السُّوَرِ هَكَذَا هُوَ عِنْدَ اللَّهِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ وَعَلَيْهِ كَانَ ﷺ يَعْرِضُ عَلَى جِبْرِيلَ كُلَّ سَنَةٍ مَا كَانَ يَجْتَمِعُ عِنْدَهُ مِنْهُ وَعَرَضَهُ عَلَيْهِ فِي السَّنَةِ الَّتِي تُوَفِّيَ فِيهَا مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ الطِّيبِيُّ مثل ذلك. (١) وقد رجح الزركشي أيضا هذا الرأي فقال: لِتَرْتِيبِ وَضْعِ السُّوَرِ فِي الْمُصْحَفِ أَسْبَابٌ تُطْلِعُ عَلَى أَنَّهُ تَوْقِيفِيٌّ صَادِرٌ عَنْ حَكِيمٍ، أَحَدُهَا بِحَسَبِ الْحُرُوفِ كَمَا فِي الْحَوَامِيمِ ، وَثَانِيهَا لِمُوَافَقَةِ أَوَّلِ السُّورَةِ لِآخِرِ مَا قَبْلَهَا كَآخِرِ الْحَمْدِ فِي الْمَعْنَى وَأَوَّلِ الْبَقَرَةِ وَثَالِثُهَا لِلْوَزْنِ فِي اللَّفْظِ كَآخِرِ تَبَّتْ وَأَوَّلِ الْإِخْلَاصِ وَرَابِعُهَا لِمُشَابَهَةِ جُمْلَةِ السُّورَةِ لِجُمَلِهِ الْأُخْرَى مِثْلَ: "وَالضُّحَى" وَ: "أَلَمْ نَشْرَحْ". (٢) وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: تَرْتِيبُ بَعْضِ السُّوَرِ عَلَى بَعْضِهَا أَوْ مُعْظَمِهَا لَا يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ تَوْقِيفِيًّا، قَالَ: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أن ترتيبها توقيفي مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَبِي أَوْسٍ حُذَيْفَةَ الثَّقَفِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي الْوَفْدِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ ثَقِيفٍ... الْحَدِيثَ ، وَفِيهِ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ الْقُرْآنِ فأردت ألا أَخْرُجَ حَتَّى أَقْضِيَهُ، فَسَأَلْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْنَا: كَيْفَ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا نُحَزِّبُهُ ثَلَاثَ سُوَرٍ وَخَمْسَ سُوَرٍ وَسَبْعَ سُوَرٍ وَتِسْعَ سُوَرٍ وَإِحْدَى عَشْرَةَ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ مِنْ "ق" حَتَّى نَخْتِمَ. قَالَ: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ عَلَى مَا هُوَ فِي الْمُصْحَفِ الْآنَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الَّذِي كَانَ مُرَتَّبًا حِينَئِذٍ حِزْبُ الْمُفَصَّلِ خَاصَّةً بِخِلَافِ مَا عَدَاهُ. يقول السيوطي : وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ توقيفي كَوْنُ الْحَوَامِيمِ رُتِّبَتْ وَلَاءً وَكَذَا الطَّوَاسِينِ وَلَمْ تُرَتَّبِ الْمُسَبِّحَاتُ وَلَاءً بَلْ فُصِلَ بَيْنَ سُوَرِهَا وَفُصِلَ بَيْنَ طسم الشُّعَرَاءِ وَطسم الْقَصَصِ بطس مَعَ أَنَّهَا أَقْصَرُ مِنْهُمَا وَلَوْ كَانَ التَّرْتِيبُ اجْتِهَادِيًّا لَذُكِرَتِ الْمُسَبِّحَاتُ وَلَاءً

---

(١) البرهان ج ١ص٢٦٠ بتصرف ، الإتقان ج١ص٢١٧.

(٢) البرهان ج ١ص٢٦٠ .

وَأُخِّرَتْ طس عَنِ الْقَصَصِ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَشْتَةَ فِي كِتَابِ الْمَصَاحِفِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ وَهْبٍ عَنْ سُلَيْمَانَ ابن بِلَالٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَبِيعَةَ يَسْأَلُ: لِمَ قُدِّمَتِ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ وَقَدْ نَزَلَ قَبْلَهُمَا بِضْعٌ وَثَمَانُونَ سُورَةً بِمَكَّةَ وَإِنَّمَا أُنْزِلَتَا بِالْمَدِينَةِ؟ فَقَالَ: قُدِّمَتَا وَأُلِّفَ الْقُرْآنُ عَلَى عِلْمٍ مِمَّنْ أَلَّفَهُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِيهِ وَاجْتِمَاعُهُمْ عَلَى عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ فَهَذَا مِمَّا يُنْتَهَى إِلَيْهِ وَلَا يُسْأَلُ عَنْهُ [١].

القول الثاني : إن الترتيب اجتهادي . يقول الزركشي هو مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ مَالِكٌ وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الطَّيِّبِ فِيمَا اعْتَمَدَهُ وَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ رَأْيُهُ مِنْ أَحَدِ قَوْلَيْهِ إِلَى الثَّانِي وَأَنَّهُ ﷺ فَوَّضَ ذَلِكَ إِلَى أُمَّتِهِ بَعْدَهُ[٢]. فترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم في الترتيب، فمصحف عَليّ كان مرتبًا على النزول، أوله اقرأ، ثم المدثر، ثم ن والقلم، ثم المزمل وهكذا إلى آخر المكي والمدني. وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران. وأول مصحف أُبَيّ: الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران. وقد رَوَى ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما. ولم تكتبوا بينهما سطر: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" ووضعتموها في السبع الطوال، فقال: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولًا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقُبِض رسول الله ﷺ ولم يبيِّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" ووضعتها في السبع الطوال".[٣]واستدلوا أيضا بما رواه مسلم في صحيحه عن

---

(١) الإتقان ج١ص٢١٨ : ٢٢٠ ، فتح الباري ج ٩ ص ٤٢ ، ٤٣ بتصرف .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٥٧ .

(٣) مباحث في علوم القرآن ص١٤٢، ١٤٣، لمناع بن خليل القطان (ت: ١٤٢٠هـ) ، ط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ط: الثالثة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

حذيفة ﷺ أن النبي ﷺ صلى بالبقرة، ثم النساء ثم بآل عمران في ركعة.[١] قال عياض: هو دليل لكون ترتيب السور وقع باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف[٢]

القول الثالث: إن بعض السور ترتيبه توقيفي وبعضها باجتهاد الصحابة: يقول الزركشي :" مَالَ إِلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَطِيَّةَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ السُّوَرِ كَانَ قَدْ عَلِمَ تَرْتِيبَهَا فِي حَيَاتِهِ ﷺ كَالسَّبْعِ الطِّوَالِ وَالْحَوَامِيمِ وَالْمُفَصَّلِ وَأَشَارُوا إِلَى أَنَّ مَا سِوَى ذَلِكَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فَوَّضَ الْأَمْرَ فِيهِ إِلَى الْأُمَّةِ بَعْدَهُ[٣] ، حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة، فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصَّل في حياته ﷺ. ورُوِيَ أن رسول الله ﷺ قال:"اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران"[٤]. ورُوِيَ:"أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ:"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" و"المعوذتين" [٥] . وكذلك استدلوا بحديث حذيفة الذي سبق ذكره .[٦]وأيضا ذكر السيوطي رحمه الله تعالى بعد سرده لأدلة من قال بالتوقيف:" وَالَّذِي يَنْشَرِحُ لَهُ الصَّدْرُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْبَيْهَقِيُّ وَهُوَ أَنَّ جَمِيعَ السُّوَرِ تَرْتِيبُهَا تَوْقِيفِيٌّ إِلَّا بَرَاءَةَ وَالْأَنْفَالَ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يستدل بقراءته سُوَرًا وَلَاءً عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَهَا كَذَلِكَ وَحِينَئِذٍ فَلَا يَرِدَ حَدِيثُ قِرَاءَتِهِ النِّسَاءَ قَبْلَ آلِ عِمْرَانَ لِأَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ فِي الْقِرَاءَةِ لَيْسَ بِوَاجِبٍ فَلَعَلَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِبَيَانِ الْجَوَازِ. [٧]

---

(١) الحديث بمعناه كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا بَابُ اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ ح رقم ٧٧٢ .

(٢) دراسات في علوم القرآن د/ فهد الرومي ص ١١١ .

(٣) البرهان للزركشي ج ١ ص ٢٥٧ .

(٤) صحيح مسلم ، كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ ح رقم ٨٠٤ .

(٥) الحديث بمعناه في صحيح البخاري كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ ، بَابُ فَضْلِ المُعَوِّذَاتِ ح رقم ٥٠١٧ .

(٦) مباحث في علوم القرآن لمناع بن خليل القطان ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٧) الإتقان ج١ص ٢٢٠ .

وقد ناقش العلماءُ الأقوالَ الثلاثة مرجحين في النهاية ما يدل على ثبوت التوقيف في ترتيب السور، ونخلص من مناقشتهم إلى الآتي :

استدل القائلون بالتوقيف في ترتيب السور بإجماع الصحابة على ترتيب عثمان ﷺ وهذا لا يدل على ما ذهبوا إليه، لأن إجماعهم على ترتيب عثمان لا يشترط له أن يستند إلى التوقيف عن الرسول ﷺ فقد وافقوا عثمان على هذا الترتيب توحيدًا لكلمة الأمة وقطعا لأسباب الاختلاف كما وافقوا على الاقتصار على حرف واحد. أما استدلالهم بحديث حذيفة فإن ذكر العدد لا يلزم منه ترتيب السور، بل قال ابن حجر نفسه الذي استدل بهذا الحديث "ويحتمل أن الذي كان مرتبا حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه". وأما استدلال السيوطي فإن ما أورده لا يلزم منه أن ترتيب السور توقيفي فعدم ترتيب المسبحات ولاء قد يكون لمراعاة مناسبات أخرى أهم من مناسبة فواتح السور، ولهذا مال السيوطي نفسه إلى رأي آخر.

أما الرأي الثاني وهو الذي يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة فلم يستند إلى دليل يُعتمد عليه، فإن من أدلتهم اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة، ولا يصلح هذا دليلًا على ما ذهبوا إليه فقد يكون ترتيب الصحابة قبل أن يعلموا بالتوقيف فلما بلغهم ذلك رجعوا عن ترتيب مصاحفهم ، أو أنه كان اختيارًا منهم قبل أن يُجمع القرآن جمعًا مرتبًا، فلما جُمِع في عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم، ولو كان الترتيب اجتهاديًّا لتمسكوا بها. وأما استدلالهم بأن الرسول ﷺ قد صلى بالبقرة والنساء وآل عمران في ركعة فلا يدل على ما ذهبوا إليه كما قال السيوطي، وعلل ذلك بقوله: لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب ولعله فعل ذلك لبيان الجواز. وحديث سوريّ: الأنفال والتوبة الذي رُوِيَ عن ابن عباس يدور إسناده في كل رواياته على "يزيد الفارسي" الذي يذكره البخاري في الضعفاء، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور. كأن عثمان كان يثبتها برأيه

وينفيها برأيه. ولذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد : "إنه حديث لا أصل له". وغاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط .

وأما الرأي الثالث فإنه يستند إلى أدلة الرأي الأول وهو أن ترتيب السور توقيفي أما القسم الاجتهادي فإن أدلته ضعيفة لا تستند إلى دليل قوي مع أنه قليل جدًا، وكل ذلك يوقفنا على ثبوت التوقيف في ترتيب أكثر سور القرآن الكريم وما لم يرد دليل على ترتيبه لا يعني أنه رتب بطريق الاجتهاد، فقد يكون ترتيبه بدليل لم يصل إلينا . وعلى هذا فإن الرأي الراجح أن ترتيب سور القرآن الكريم كترتيب آياته بالتوقيف عن الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه ﷻ مع ما في أدلة هذا الرأي من الاحتمال كما ذكر إلا أنه أقوى الآراء، وعلى كل حال ومهما يكن من أمر سواء أكان هذا الترتيب الذي نجده في المصاحف بطريق التوقيف أم بطريق الاجتهاد، ثم أجمع الصحابة عليه، ومضت الأمة على قبوله، فيجب التمسك به والإعراض عن الدعوات الزائفة لإعادة ترتيب المصاحف حسب النزول أو الموضوع أو غير ذلك؛ لأن في ترتيب سوره معاني لا تقل عن معاني الترتيب في آياته، جد كثير من العلماء في استنباطها وتحصيلها. فضلا عن مخالفة الإجماع وما في ذلك من مفاسد عظيمة. والله أعلم.[1] وأيضا ممن نص على ذلك وأيد القول بأنه توقيفي د /محمد بكر إسماعيل فقال :" لو كان ترتيب السور عن اجتهاد لظهرت العلة التي بُنِيَ عليها، فمن الواضح أنه لم يرتَّبْ على حسب النزول الزمني، ولا على الطول والقصر، فسور طوال بين قصار وبالعكس، ولا على المكي والمدني، فسور مكية بين سور مدنية وبالعكس، ولا على تجانس الموضوعات وقربها؛ فبين سور القصة الواحدة سور أخرى، ولا على حسب الفواتح، فلم تذكر المسبحات ولاء، مع أن الحواميم رتبت ولاء... وحيث لم تظهر علة لهذا الترتيب مع الإجماع عليه، كان بتوقيف وتسليم وإذعان لصاحب القرآن.[2]

---

(١) مباحث في علوم القرآن ، لمناع بن خليل القطان ص ١٤٥ ، دراسات في علوم القرآن ، د / فهد الرومي من ١١١ : ١١٣ .

(٢) دراسات في علوم القرآن د/ محمد بكر إسماعيل ص ٦٢ بتصرف .

مناسبة السورة لما قبلها :

هناك عدة صور للربط بين هذه السورة الكريمة وما قبلها ومن هذه الصور :

– لما قال سبحانه لنبيهﷺ "فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" وقد نزهه ﷻ عن التكذيب بالحساب وأعلى قدره عن ذلك، ولكن سبيل هذا إذا ورد كسبيل قوله ﷻ:"لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ" وبابه ، وحكم هذا القبيل واضح في حق من تعدى إليه الخطاب وقصد بالحقيقة به من أمتهﷺ من حيث عدم عصمتهم وإمكان تطرق الشكوك والشبهة إليهم فتقدير الكلام أي شيء يمكن فيه أن يحملكم على التوقف والتكذيب بأمر الحساب، وقد وضح لكم ما يرفع الريب ويزيل الإشكال؟ أفلم تعلموا أن ربكم أحكم الحاكمين؟ أفيليق به وهو العليم الخبير أن يجعل اختلاف أحوالكم في الشكوك بعد خلقكم في أحسن تقويم ؟ أيحسن أن يفعل ذلك عبثا وقد قال ﷻ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾؟.[1] فلما قرر ﷻ للعبيد على أنه أحكم الحاكمين مع ما تقدم من موجب نفي الاستراباة في وقوع الجزاء إذا اعتبر ونظر، وقعت في الترتيب سورة العلق مشيرة إلى ما به يقع الشقاء، ومنه يعلم الابتداء والانتهاء أو هو كتابه المبين الذي جعله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمحسنين، فأمر بقراءته ليتدبروا آياته فقال: "اقرأ باسم ربك" أي مستعينا به فسوف يتضح سبيلك وينتهج دليك "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا" [2] فهنا كما يقول السيوطي رحمه الله :أنه ﷻ لما قال في آخر التين:"أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" بيَّن في أول العلق أنه ﷻ مصدر علم العباد بحكمته، فبين أنه "عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" وصدر ذلك بالأمر بالقراءة ،

---

(١) سورة ص من الآية :[٢٧].

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ج١ ص٣٧٠ : ٣٧٢ لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (ت: ٧٠٨هـ) ، ت: محمد شعباني ، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب ، ط: ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .

واستفتاحها باسمه دائمًا؛ لتكون للإنسان عونًا على كمال العلم بحكمة أحكم الحاكمين. (١)

– لما ذكر في التين خلق الإنسان في أحسن تقويم، ورده إلى أسفل سافلين، وحصل منه على ما قدم بيانه افتراق الطرفين وتباين المتقابلين، كل ذلك بسابق حكمته وإرادته "وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا"، وقد بين ﷻ أقصر غاية ينالها أكرم خلقه وأجل عباده لديه من الصنف الإنساني وذلك فيما أوضحت السورتان قبل من حال نبينا المصطفىﷺ وجليل وعده الكريم له في قوله "وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى" وفصل حال ابتداء "ألم نشرح" على ما تقدم سؤال "رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي" إلى ما أشارت إليه آي السورتين من خصائصه الجليلة، وذلك أعلى مقام يناله أحد ممن ذكر، فوقع تعقيب ذلك بسورة تضمنت الإشارة إلى حال من جعل في الطرف الآخر من الجنس الإنساني، وذلك حال من، فبيَّن في العلق تفصيل الحالين وأسبابهما من لدن قوله ﷻ:"أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى" إلى قوله " كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ " ليظهر تفاوت المترلتين وتباين ما بين الحالتين .(٢)

فمعنى ذلك أن الله ﷻ لما بين أحوال الجنس البشري وأن هناك من بلغ الذروة في الكمال وذلك شأن المصطفى ﷺ، وقد سبق ذكره في الضحى والشرح، وذكر في التين أن هناك من وصل إلى قمة الارتكاس في الضلال وضح في هذه السورة التي بين أيدينا صورة من هذه الصور المنتكسة المنقلبة على عقبيها في الطغيان والنهي عن العبادة والضلال وغير ذلك مما قصته الآيات الكريمات .

ولذا نجد صاحب التفسير القرآني للقرآن يقترب من هذا المعنى فيقول: " كانت سورة "التين" مواجهة للإنسان في خلقه القويم الذي خلقه الله عليه، وأن هذا

---

(١) أسرار ترتيب القرآن ص ١٦٣، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)،ط: دار الفضيلة للنشر والتوزيع بدون .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ج١ص٣٧٠ : ٣٧٢، أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص ١٦٣.

الإنسان إذا استطاع أن يحتفظ بهذا الخلق الكريم ، كان في أعلى علـــيين، أمـــا إذا لم يحسن سياسة هذا الخلق، ولم يحسن تدبيره فإنه يهوى إلى أسفل سافلين. وتبدأ سورة "العلق" بهذه المواجهة مع الإنسان في أعلى منازله، وأكرم وأشرف صورة له، وهـــو رسول الله محمدﷺ ، مدعوّا من ربه إلى أكمل كمالات الإنسان، وأكرم ما يتناسب مع كماله وشرفه، وهو القراءة، التي هي مجلى العقل، ومنارة هديه ورشده. وبهـــذا تكون المناسبة جامعة بين السورتين ختاما وبدءا. (١)

– وَلَمَّا ذَكَرَ فِيمَا قَبْلَهَا خَلْقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا عَرَضَ لَـــهُ بَعْـــدَ ذَلِكَ، ذَكَرَهُ هُنَا مُنَبِّهًا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَطْوَارِهِ، وَذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ طُغْيَانَهُ بَعْدَ ذلك وما يؤول إِلَيْهِ حَالُهُ فِي الْآخِرَةِ .قاله أبو حيان . " (٢)

– لما تقدم في سورة التين بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم، بيَّن هنا أنه ﷻ: "خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ" وذلك ظاهر الاتصال، فالأول بيان العلة الصورية، وهذا بيان العلة المادية. قاله السيوطي ." (٣)

– ومن أوجه الربط ما ذكره الإمام البقاعي بقولـــه:" لمـــا أمـــره ﷻ في الـــضحى بالتحديث بنعمته، وذكره بمجامعها في "ألم نشرح" فأنتج ذلك إفراده بما أمره بـــه في ختمها من تخصيصه بالرغبة إليه، فدل في الزيتون على أنه أهل لذلك لتمـــام قدرتـــه الذي يلزم منه أنه لا قدرة لغيره إلا به، فأنتج ذلك تمام الحكمة فأثمر قطعـــاً البعـــث للجزاء فتشوف السامع إلى ما يوجب حسن الجزاء في ذلك اليوم وبأيّ وسيلة يقف بين يدي الملك الأعلى في يوم الجمع الأكبر من خـــصال الـــذين آمنـــوا وعملـــوا الصالحات، فأرشد إلى ذلك في هذه السورة، فقال بادئاً بالتعريف بـــالعلم الأصـــلي ذاكراً أصل من خلقه ﷻ في أحسن تقويم وبعض أطواره الحسنة والقبيحة تعجيباً من تمام قدرته سبحانه وتعالى وتنبيهاً على تعرفها وإمعان النظر فيها. (٤)

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢١ .
(٢) البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٦ .
(٣) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص ١٦٣ .
(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج٢٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

صلة السورة بما بعدها :

يقول الحافظ السيوطي :" وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ الزُّبَيْرِ حَكَى الْخَطَّابِيُّ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا اجْتَمَعُوا عَلَى الْقُرْآنِ وَضَعُوا سُورَةَ الْقَدْرِ عَقِبَ الْعَلَقِ اسْتَدَلُّوا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ المراد بهاء الْكِنَايَةُ فِي قَوْلِهِ: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ" الْإِشَارَةُ إِلَى قوله: "اقرأ"، قال القاضي أبو بكر ابن الْعَرَبِيِّ وَهَذَا بَدِيعٌ جِدًّا. (١)

ويقول مرزوق علي إبراهيم في تحقيقه لكتاب أسرار ترتيب القرآن للسيوطي: وهناك مناسبة أخرى خفية؛ هي: أنه تعالى لما ختم العلق بالأمر بالسجود والاقتراب من الله، وكان المقصود من الاقتراب التعرض للرحمة الفائضة من الله على المصلِّي، والصلاة لا تكون إلا بقرآن، ذكر في أول هذه السورة أن القرآن رحمة في ذاته، ورحمة في الزمان الذي نزل فيه وهو ليلة القدر التي تتنزل الملائكة فيها بالروح والسلام على الكون.(٢)

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٣ ص ٣٨٣ ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م .

(٢) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص ١٦٣.

المبحث الثاني

تفسير السورة الكريمة

"اقْرَأْ " بدايةُ فجرٍ جديد :

بعد أن ارتكست البشرية في بئر سحيق لا بصيص فيه ولا نور، فما هو إلا جاهلية محضة، وبداوة مفرطة، ولا أبالغ حين أقول قد نزل الإنسان فيه إلى أدنى مراحل بشريته وأعلى درجات حيوانيته، بل أستغفر الله إن للحيوان فطرة وغريزة تحكمه، فقد بلغ الإنسان مبلغا من الدونية هي من الجهل والقذارة والانحطاط بمكان فهو كما يصفه سيدنا جعفر للنجاشي في هجرته لبلاده حيث قال:" أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ"(١)، فحينئذ بدأ النور كله بقوله "اقْرَأْ"، أتى هذا الحدث الضخم بحقيقته ودلالته وآثاره، هذا الحدث الذي منَّ الله به على الأرض لكي تضيء وتصبح ملتقى العلم الإلهي ومستودع حكمته ، هذه المنة التي لا يحسها الإنسان إلا إذا أدرك وعلم حقيقته الفانية، وحاول فهم الحقيقة الإلهية قدر طاقته، هذه النعمة التي من المفروض أن يظل الإنسان لها حامدا شاكرا طيلة حياته بكل الصور لا يتكبر ولا يطغى، هذه البداية لدستور حياة حقيقية، أرسله الله لنا على لسان ابن جنسنا ليبينه لنا ويقرب فهمه، ويبرز لنا معانيه، ألا لا يبعدن

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة ج٣ ص ٢٦٦ ، وقال شعيب الأرناؤط : إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق، فقد روى له مسلم متابعة، وهو صدوق حسن الحديث إلا أنه مدلس، لكنه هنا صرح بالتحديث فانتفت شبهة تدليسه.

أحد عن كنف الله وشرعه ، ولا يترك هذه اليد الممدودة التي تأخذه خطوة خطوة تبعده عن الخطأ وترده إلى الصواب، وهذا ما جعل الرعيل الأول أفضل جيل إذ أخذوا وصدقوا وعاشوا، بدءوا وانتهوا، رضوا وأحبوا فتقبلوا قطرات الغيث التي تروي أرواحهم ، وأصبحت زادهم . إني لأتحسر حين أقرأ حديث أم أيمن عن انقطاع الوحي وبكائها ، ونحن لا نحس بمثل هذا الإحساس أو حتى نقترب منه، والحديث يرويه الإمام مسلم بسنده عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ:" انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ. فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا "[1] كيف ذاق هذا الجيل فعرف، إن هؤلاء هم من عرف كيف غيرت هذه الرسالة الإنسان وجعلته يحيى من جديد، كيف حولت التاريخ، وغيرت الأحداث، كيف انتقلت بهم من غوائل الجاهلية إلى عمق الحضارة ، كيف سمت بهم من الغريزة الحيوانية إلى قمة الرقي البشري ، كيف صنعت منهم علماء يعرفون معنى قيمة الحياة ، فلذا كانت اقرأ حيث لا غموض ولا إبهام ، ولا غرر ولا إيهام ، اقرأ وابتعد عن الضلال ، اقرأ وابتعد عن الانحراف في المقصد ، اقرأ واصنع تاريخك ، اقرأ واصنع حاضرك ومستقبلك ، اقرأ وانهض بالأمة الجريحة، اقرأ فلا تطمسك الأحداث ، اقرأ ولن يغفلك الزمان. وتُصور الدكتورة عائشة عبد الرحمن الحالة المذرية التي كان عليها العرب ، وحتى أصحاب الشرائع حينئذ فتقول :" من عجب أن تكون كلمة "اقْرَأْ" أول ما استهل به الوحي إلى النبي الأمي المبعوث في الأميين رسولاً منهم، وأن يكون "الكتاب" معجزة هذا النبي المصطفى لختام رسالات الدين منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، والعصر عصر بداوة ، والبيئة وثنية جافية لا عهد لها بمظاهر الحضارة المادية والفكرية التي ازدهرت في بيئات

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ ﷺ بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ح رقم ٢٤٥٤ .

أخرى كوادي النيل، ووادي الرافدين وغيرهما، ونحتاج هنا في هذه السورة المبكرة من أول الوحي، إلى تمثل ما كان لها من وقع في نفوس الذين تلاها فيهم المصطفىﷺ، مستأنسين بما كانت البيئة العربية في عصر النبوة تفهمه وتدركه، بعيداً عما أضيف إلى هذا الفهم من محدث التأويلات التي أضافتها عصور متأخرة. واللافت أن الإمام الطبري لم يجد حاجة إلى تأويل آية: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" لوضوح معناها. فليست القراءة بحيث تحتمل التأويل بغير المألوف من دلالتها على التلاوة. والعربية كانت تستعملها في التلاوة من نص مكتوب أو غير مكتوب . كما عرفت الرب بدلالته على المالك والمعبود. وإذ كانت الكلمة وحياً إلهياً، فباسم ربه الذي خلق، أمر المصطفى أن يقرأ . وقد كان لقبائل العرب الوثنية أربابها من أوثان وأصنام، ومحمد كان قبل المبعث في حيرة من أمره وأمر قومه، يراهم على سفه وضلال، وينكر عبادهم لأرباب صنعوها بأيديهم من خشب وحجر وطين، ثم نسوا أنهم صانعوها وكدسوها في ساحة البيت العتيق، وعكفوا عليها عابدين، وطال به التأمل التماساً لما يهديه من حيرته، وقد صد عما يعبده قومه من أوثان صماء بلهاء ، ولم يجد ما يطمئن إليه لدى من عرفت الجزيرة من عصابات يهود التي طرأت على شمال الحجاز فأنشبت مخالبها في الأرض الطيبة ، ونسيت موسى وربه، واتخذت من الذهب وثنها المعبود. والنصارى في الشام ونجران قد مزقتهم التفرقة المذهبية، فبعضهم لبعض عدو، وكل طائفة ترمى الأخرى بالكفر والضلال ، ومن بعيد كان لهب النار يسطع من معابد المجوس، وقد أحاط بها القوم طائفين عابدين، وفي تلك الظلمة الغاشية، كانت كلمة الوحي "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" للأمي المختلى في حراء، توجيهاً وهداية إلى الحق الذي طال التماسه إياه، وإذاناً بانتهاء حيرته التي طالما أجهدته في تأملاته، وانبثاقاً لنور فجر جديد ينسخ ظلمات ليل ادلهم وطال. (١)

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ج٢ ص١٥ ، ١٦ لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت: ١٤١٩هـ)، ط: دار المعارف بالقاهرة ، ط:السابعة.

إذًا تُرى لو لم يكن الوحي هذا بين أيام الدنيا فأيُّ مصيرٍ كانت البشرية ستلاقيه ؟

يجيب عن هذا المفكر الإسلامي خالد محمد خالد حيث يقول: إن الكلمة التي استهل بها الوحي نجواه مع رسول الله لتقدم لنا أروع وأجمع وأوجز وأبجز جواب، فإذا كان العلم جوهر كل حضارة أقامها الإنسان على ظهر أرضه وكوكبه ، وإذا كان الإسلام – فيما بعد– قد قدم للدنيا حضارة متكاملة تدين لها كل الحضارات التي جاءت بعده ، حتى تلك التي استهدفته بشنآنها وعدوانها . إذا كان ذلك كذلك فإننا نستطيع أن ندرك في يسر لون المصير الذي كانت البشرية ستلقاه وتتردى فيه لو لم يكن يوم الوحي يوم " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ " يوم القرآن ومحمد والإسلام بين أيامها بل على رأس أيامها . كذلك نستطيع أن ندرك في يسر لماذا كانت أولى كلمات الله إلى رسوله " اقرأ " لم تكن صل ، ولا صم ولا تعبد بل كانت اقرأ ، هذه الكلمة التي لخصت جوهر الإسلام ومستقبله ، فهو لن يكون دين تكريسٍ ديني فحسب ، بل ولا دين سلوك فحسب ، إنما هو قبل ذلك وفوق ذلك "دين حضارة" جاء ينشئ عالما جديدا بكل ما تحمل كلمتا "عالم" و"جديد" من معنى ودلالة ، ولكي يستيقن الناس عبر الزمان كله أن هذه الحضارات المقبلة هي عطاء السماء فقد اختير أستاذها وبانيها الذي لا عهد له من قبل بقلم ولا بكتاب ، ذلك أنه لن يكون مخترعا لهذا الدين ولحضارته إنما هو مبلغ عن الله، ناقل عطاياه من السماء إلى الأرض ، ومن ثم سيكون معه من المقدرة ما يغير به كيمياء الزمن ، وكيمياء البشر وكيمياء الحياة.[1]

وبعد هذا البيان لما كانت عليه الجاهلية وما أصبح عليه الإسلام ما الذي صرنا إليه لقد رجعنا القهقري إلى ما هو أبعد من الجاهلية ، فقد كان العربي رغم جاهليته عنده من المروءة والعفاف والشهامة ما يمنعه من كثير مما سقطنا فيه ، ورغم ذلك لم ننهض حتى بعلم معزول عن الدين.

ولذا فنحن في حاجة إلى العودة إلى اقرأ من جديد .

---

(١) عشرة أيام في حياة الرسول ، خالد محمد خالد ط: دار المقطم للنشر والتوزيع – القاهرة ، ط ١٤١٥ص ١٩٩٤ م . ص ٣٥ ، ٣٦ .

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "

لما كانت اقرأ هي أول ما نزل على النبي ﷺ ، وكان هناك خلاف بين العلماء في البسملة فهنا سؤال يطرح نفسه، هل البسملة الواقعة في بداية كل سورة هي آية من سور القرآن، ومن ثم هي آية من سورة اقرأ أم لا ؟

أقول وبالله التوفيق : اختلف العلماء هل البسملة آية من أول كل سورة أم لا إلى ثلاثة أقوال:

الأول: هي آية من كل سورة، وهو مذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ .

الثاني: ليست آية ولا من شيء من سور القرآن، وهو مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثالث: هي آية تامة من القرآن أُنزلت للفصل بين السور، وهو مذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ ، وكذلك مذهب داود .

دليل الشافعية: استدل الشافعية على مذهبهم بأدلة نوجز منها ما يلي:

– أخرج البخاري من حديث أنس ﷺ أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مدّاً. ثمّ قرأ " بِسمِ الله الرحمن الرَّحِيمِ " يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ [1].

– حديث أنس ﷺ أنه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثمّ رفع رأسه متبسّماً، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأ: "بِسمِ الله الرحمن الرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر"[2] .

– واستدلوا أيضاً بدليل معقول، وهو أن المصحف الإمام كُتبت فيه البسملة في أول الفاتحة، وفي أول كل سورة من سور القرآن، ما عدا سورة "براءة" ، وكتبت كذلك في مصاحف الأمصار المنقولة عنه، وتواتر ذلك مع العلم بأنهم كانوا لا يكتبون في

---

(١) صحيح البخاري كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ ،بَابُ مَدِّ القِرَاءَةِ ح رقم ٥٠٤٦

(٢) صحيح مسلم كِتَابُ الصَّلَاةِ بَابُ حُجَّةِ مَنْ قَالَ: الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ سِوَى بَرَاءَةٌ ح رقم ٤٠٠ .

المصحف ما ليس من القرآن، وكانوا يتشدّدون في ذلك، حتى إنهم منعوا من كتابة التعشير، ومن أسماء السّور، ومن الإعجام، وما وُجد من ذلك أخيراً فقد كتب بغير خطّ المصحف، وبمداد غير المداد، حفظاً للقرآن أن يتسرّب إليه ما ليس منه، فلما وجدت البسملة في أوائل السور دلّ على أنه آية من كل سورة من سور القرآن[١]

دليل المالكية : استدل المالكية على أن البسملة ليست آية من الفاتحة، ولا من القرآن وإنما هي للتبرك بأدلة نوجزها فيما يلي:

– حديث بدء الوحي المذكور سابقا ، فيه الأمر بالقراءة دون ذكر البسملة .

ويرد على ذلك الإمام النووي بقوله :" وَاسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ مَنْ يَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" لَيْسَتْ بِقُرْآنٍ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، لِكَوْنِهَا لَمْ تُذْكَرْ هُنَا، وَجَوَابُ الْمُثْبِتِينَ لَهَا أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ أَوَّلًا، بَلْ نَزَلَتِ الْبَسْمَلَةُ فِي وَقْتٍ آخَرَ، كَمَا نَزَلَتْ بَاقِي السُّوَرِ فِي وَقْتٍ آخَرَ[٢].

وقال ابن حجر:" وَقَالَ النَّوَوِيُّ تَرْتِيبُ آيِ السُّوَرِ فِي النُّزُولِ لَمْ يَكُنْ شَرْطًا وَقَدْ كَانَتِ الْآيَةُ تَنْزِلُ فَتُوضَعُ فِي مَكَانٍ قَبْلَ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَهَا ثُمَّ تَنْزِلُ الْأُخْرَى فَتُوضَعُ قَبْلَهَا إِلَى أَنِ اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ فِي آخِرِ عَهْدِهِ ﷺ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ وَلَوْ صَحَّ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ من حَدِيث بن عَبَّاسٍ أَنَّ جِبْرِيلَ أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِالِاسْتِعَاذَةِ وَالْبَسْمَلَةِ قَبْلَ قَوْلِهِ اقْرَأْ لَكَانَ أَوْلَى فِي الِاحْتِجَاجِ لَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ ضَعْفٌ وَانْقِطَاعٌ[٣] .

---

(١) تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ١١، لمحمد علي السايس ، ت: ناجي سويدان ، ط: المكتبة العصرية ، ط :٢٠٠٢ ، روائع البيان تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ٤٨ ، لمحمد علي الصابوني ، ط: مكتبة الغزالي – دمشق، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت ، ط: الثالثة، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج٩ ص ٣٧٣٠ لعلي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ) ، ط: دار الفكر، بيروت ، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .

(٣) فتح الباري لابن حجر ج٨ ص ٧١٩ . ط: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ ، ت: محمد فؤاد عبد الباقي .

– حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله ربِّ العالمين. (١)

– حديث أنس قال:"صلّيتُ خلف النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين" (٢). وفي رواية لمسلم: لا يذكرون "بسم الله الرحمن الرحيم" لا في أول قراءة ولا في آخرها . (٣)

– كتابتها في أوائل السور إنما هو للتبرك، ولامتثال الأمر بطلبها والبدء بها في أوائل الأمور، وهي وإن تواتر كتبُها في أوائل السور، فلم يتواتر كونها قرآناً فيها. (٤)

قال القرطبي: الصحيحُ من هذه الأقوال قول مالك، لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقهُ التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه. (٥)" وقال ابن العربي: ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه، فَإِنَّ إِنْكَارَ الْقُرْآنِ كُفْرٌ. فَإِنْ قِيلَ: وَلَوْ لَمْ تَكُنْ قُرْآنًا لَكَانَ مُدْخِلُهَا فِي الْقُرْآنِ كَافِرًا؛ قُلْنَا: الِاخْتِلَافُ فِيهَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ تَكُونَ آيَةً، وَيَمْنَعُ مِنْ تَكْفِيرِ مَنْ يَعُدُّهَا مِنْ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ الْكُفْرَ لَا يَكُونُ إلَّا بِمُخَالَفَةِ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ فِي أَبْوَابِ الْعَقَائِدِ. (٦)

دليل الحنفية : وأما الحنفية فقد رأوا أنّ كتابتها في المصحف يدل على أنها قرآن ولكن لا يدل على أنها آية من سورة ، والأحاديث الواردة التي تدل على عدم قراءتها

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه كِتَاب الصَّلَاةِ ، بَابُ مَنْ لَمْ يَرَ الْجَهْرَ بِ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" ٧٨٣ ، والحديث صححه الألباني .

(٢) صحيح البخاري كِتَابُ الأَذَانِ بَابُ مَا يَقُولُ بَعْدَ التَّكْبِيرِ ح رقم ٧٤٣ .

(٣) صحيح مسلم كِتَابُ الصَّلَاةِ بَابُ حُجَّةِ مَنْ قَالَ: الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ سِوَى بَرَاءَةَ ح رقم ٣٩٩.

(٤) روائع البيان ج١ ص ٥٠ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٩٣ .

(٦) أحكام القرآن ج ١ ص ٦ ، للقاضي محمد بن عبد الله أبي بكر بن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ) ، ت: محمد عبد القادر عطا ، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

جهراً في الصلاة مع الفاتحة تدل على أنها ليست من الفاتحة، فحكموا بأنها آية من القرآن تامة أنزلت للفصل بين السور.

ومما يؤيد مذهبهم: ما قاله الإمام الزيلعي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْهِ "بسم الله الرحمن الرحيم" وَفِي رِوَايَةٍ: لَا يَعْرِفُ انْقِضَاءَ السُّورَةِ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالْحَاكِمُ، وَقَالَ: إنَّهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ[1] .

كما قال أيضا:" وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ الْمُبَارَكِ، وَدَاوُد وأتباعه، وَهُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَبِهِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ الْحَنَفِيَّةِ، وَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ أَنَّهُ مُقْتَضَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَهَذَا قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ فِي هَذَا الْقَوْلِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ، وَكِتَابَتُهَا سَطْرًا مُفَصَّلًا عَنْ.السُّورَةِ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ.[2] قال الإمام الجصاص: " ومما يدل على أنها ليست من أوائل السور، ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى غفر له "تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك"، واتفق القرّاء وغيرهم أنها ثلاثون سوى البسملة فلو كانت منها كانت إحدى وثلاثين وذلك خلاف قول النبي ﷺ. ويدل عليه أيضاً اتفاق جميع قرّاء الأمصار وفقهائهم على أن سورة الكوثر ثلاث آيات، وسورة الإخلاص أربع آيات، فلو كانت منها لكانت أكثر مما عدّوا ".[3]

---

(١) ، المراسيل لأبي داود السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) ص ٩٠ ، ت: شعيب الأرناؤوط ، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٨ ،المستدرك للحاكم كِتَابُ الطَّهَارَةِ ح رقم ٨٤٥ ، نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي ج١ ص ٣٢٧ ، لجمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (ت: ٧٦٢هـ) ، ت: محمد عوامة ،ط: مؤسسة الريان للطباعة والنشر بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلاميةبجدة ، ط: الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م

(٢) نصب الراية ج١ ص٣٢٧ .

(٣) : أحكام القرآن ج ١ ص١١ لأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ) ، ت: محمد صادق القمحاوي ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط: ١٤٠٥ هـ .

الترجيح:

وبعد استعراض الأدلة وما استدل به كل فريق من أئمة المذاهب نجد من العلماء من رجح المذهب الأخير، يقول الإمام الزيلعي:" وَالَّذِي اجتمع على الْأَدِلَّةُ هُوَ الْقَوْلُ الْوَسَطُ، وَهُوَ أَنَّهَا مِنْ الْقُرْآنِ حَيْثُ كُتِبَتْ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ السُّوَرِ، بَلْ تُكْتَبُ قَبْلَ السُّورَةِ، وَتُقْرَأُ كَمَا قَرَأَهَا النَّبِيُّ ﷺ "[1]. وكذلك من العلماء المحدثين مثل الشيخ السايس[2]، والشيخ الصابوني[3] يرجحان ما ذهب إليه الحنفية، ويقولان أنه الأرجح من الأقوال، فهو المذهب الوسط بين القولين المتعارضين، فالشافعية يقولون إنها آية من الفاتحة ومن أول كل سورة في القرآن، والمالكية يقولون: ليست بآية لا من الفاتحة ولا من القرآن، ولكنْ إذا أمعنا النظر وجدنا أن كتابتها في المصحف ، وتواتر ذلك بدون نكير من أحد – مع العلم بأنّ الصحابة كانوا يجرّدون المصحف من كلّ ما ليس قرآناً – يدلّ على أنها قرآن، لكن لا يدل على أنها آية من كل سورة، أو آية من سورة الفاتحة بالذات، وإنما هي آية من القرآن وردت للفصل بين السور، وهذا ما أشار إليه حديث ابن عباس السابق "إنّ رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السور حتى يترل عليه بسم الله الرحمن الرحيم" ، ويؤكد أنها ليست من أوائل السور أن القرآن نزل على مناهج العرب في الكلام، والعربُ كانت ترى التفنّن من البلاغة، لاسيّما في افتتاحاتها، فلو كانت آية من كل سورة لكان ابتداء كلّ السور على منهاجٍ واحد، وهذا يخالف روعة البيان في معجزة القرآن. وقول المالكية: لم يتواتر كونها قرآناً فليست بقرآن غير ظاهر – كما يقول الجصّاص – إذ ليس بلازم أن يقال في كل آية إنها قرآن وتواتر ذلك، بل يكفي أن يأمر الرسول ﷺ بكتابتها ويتواتر ذلك عنه ﷺ وقد اتفقت الأمة على أن جميع ما في المصحف من القرآن ، فتكون البسملة آية مستقلة من القرآن كرّرت في هذه المواضع على حسب ما يكتب

---

(١) نصب الراية ج١ ص٣٢٧ .

(٢) تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ١٣، ١٤ .

(٣) روائع البيان ج ١ ص ٥٢ .

في أوائل الكتب على جهة التبرك باسم الله ﷻ ، وهذا ما تطمئن إليه النفس وترتاح، وهو القول الذي يجمع بين النصوص الواردة والله أعلم.[١]

" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)"

افتتاحية الوحي عنوان القرآن أول غيث السماء إلى الأرض :

هذه الآيات أول غيث السماء إلى الأرض ، وهي كما يصف الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى حين قال عنها : وهُنَّ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحِم اللَّهُ بِهَا الْعِبَادَ ، وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ. وَفِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقَةٍ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمِه تَعَالَى أَنْ عَلَّم الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ فَشَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالْعِلْمِ، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي امْتَازَ بِهِ أَبُو الْبَرِيَّةِ آدَمُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ" [٢]. فيا لها من رحمة عظيمة تبين قدر هذه الرسالة وعِظَمِها، وتبين عظم أول ما نزل، يقول الشنقيطي رحمه الله ﷻ:" لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْآيَاتُ الْخَمْسُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهَا عَلَى الصَّحِيحِ ، فَهِيَ بِحَقٍّ افْتِتَاحِيَّةُ الْوَحْيِ، فَكَانَتْ مَوْضِعَ عِنَايَةِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ"[٣]. كما ينقل عن ابن تيمية قوله:" إِنَّهَا وَأَمْثَالَهَا مِنَ السُّوَرِ الَّتِي فِيهَا الْعَجَائِبُ، وَذَلِكَ لِمَا جَاءَ فِيهَا مِنَ التَّأْسِيسِ لِافْتِتَاحِيَّةِ تِلْكَ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ إِيفَاءَهَا حَقَّهَا عَجْزًا وَقُصُورًا." [٤] وقد سبق عند الحديث عن مقاصدها وصف الحافظ ابن حجر لها بأنها "عنوان القرآن" . وتُبين هذه الآيات فضل العلم ورفعته وثوابه، ومدى شموخه، وشموخ من عمل به، ويا بؤس من ابتعد عنه فجهل وضل وأضل، يقول الشيخ محمد عبده رحمه الله ﷻ:" ثم إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي ، بهذه الآيات الباهرات، فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض، وإلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور

---

(١) روائع البيان ج ١ ص ٥٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٤٣٧ .

(٣) أضواء البيان للشنقيطي ج ٩ ص ١٣.

(٤) المرجع السابق ج ٩ ص١٢.

العلم، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع فلا أرشدهم الله ". [١] فهذه الآيات الخمس كانت استهلالاً للرسالة الخاتمة الخالدة، وضع الله ﷻ فيها معالم الرسالة الإسلامية الخالدة في عمومها المطلق وشمولها الأعم مبيناً أنها رسالة العلم والمعرفة والعقل، وهي أعظم نعم الله ﷻ على الإنسان. وبهذه الآيات البينات، وما تضمنته من الإشادة بالقراءة والكتابة والعلم، أبان الله ﷻ لنبيه ﷺ ولأمة الإسلام أن المعرفة بوسائلها: من قراءة وكتابة وتعلّم هي الأسلوب الأمثل لتبليغ الرسالة. وبهذه الآيات أُعْطِيَت الأمة مفاتيح الإصلاح والتقدم والرقي؛ لتعلم أنه لا إصلاح ولا مدنية ولا حضارة بغير علم ومعرفة ؛ فالجهل وهو نقيض العلم لا يأتي إلا بالشر والفساد والتخلف، كما أن الهداية إلى معرفة الحق واعتناقه والحرص على إقامة معالمه والدعوة إليه لا يكون إلا مع العلم، ولا يكتب للعلم النمو والانتشار إلا إذا سجله القلم ونشره وأعلن عنه. ومن اللافت للنظر أن استفتاح الوحي بهذه الآيات البينات فيه دلالة واضحة على أن العلم في دائرة سنن الله في الحياة يعد من أهداف الأمة الإسلامية في تبليغها رسالة الإسلام؛ لأن العلم هو العنوان الأعظم على خلود هذه الرسالة، وهو العنصر الحيوي في تكوين حقيقتها الهادية الراشدة ، وهو الآية الكبرى على صدقها وصدق رسولها. ولا شك أن هذه المنزلة الرفيعة التي منحها الإسلام للعلم، حفزت المسلمين بأمر وتشجيع من رسول الله ﷺ على طلب العلم طلباً موصولاً دائماً .[٢] كل ذلك كان إيذانًا بأن دين العلم قد وجب تبليغه، وأن كتاب العلم قد ثبت تنزيله، وأن إعلاء شان الفكر قد جاء به خاتم النبيين وسيد المرسلين، وفيه إيماء إلى أن الإسلام والعلم يجتمعان، ولا يتناقضان أبدًا. [٣]

هذه الآيات تسوقنا إلى نبذ الفكر الذي نشأ لدى الشباب أن العلوم كلها هي ما أتى من الغرب، وأننا أمةَ رجعيةٍ وتخلف، أو أن العلوم تتطور من عصر إلى

---

(١) تفسير جزء عم له ص ١٢٤ط:الجمعية الخيرية الإسلامية بمصر، ط: الثالثة ١٣٤١ هـ

(٢) مجلة البيان العدد ١٢٢ ص ٦٦(بتصرف) بعنوان دراسات في السيرة النبوية ، خصائص المرحلة المكية في مجال المعرفة ، بقلم: د. محمد أمحزون.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن ج١ ص ١٧ .

عصر ونحن أمة دين فقط ، وما عمل له أصحاب الفكر الفارغ من فصل الدين عن مناحي الحياة بداية من العلم ومرورا بكل خُلُق ، فالناظر إلى هذه الآيات يدرك مكانة العلم في القرآن الذي هو دستور الإسلام، من أن أول ما نزل من وحى السماء على النبي ﷺ هو قوله ﷻ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" ثم إنه سبحانه أقسم بأداة العلم وهى القلم في قوله ﷻ: "ن والقلم وما يسطرون" فدين الإسلام وكتابه هو كتر العلوم ونهاية العلم، وقد ثبت أن مبادئه وشرائعه منذ نزلت وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هي خير المبادئ والشرائع لكل زمان ومكان. (١)

فعلى ذلك عندما تكون بداية الوحي وأول مبدأ يقرره وهو الأمر بالقراءة لإمام هذه الأمة ولمن تبعه فإنها بداية موجهة للأمة إلى الوجهة التي شرفها الله بها، وإلى المهمة التي يعدها الله لها، إنها مهمة التعليم والتزكية والتربية والتبليغ والدعوة، بهذه المهمة كانت البعثة﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢). وعلى هذه المهمة تكون أمته ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٣) والطريق إلى القيام بهذه المهمة يتضح منذ اللحظة الأولى، ومن التوجيه الأول والأمر الكريم "اقرأ" الذي هو مفتاح العلم ، بل إن من بين المقاييس بل ومن أهمها في قياس درجة تفاعل الأمة مع إسلامها، ومع وحى ربها مقياس القراءة، فالأمة المسلمة لربها أمة قارئة عالمة. (٤)

ثم هو عجيب أيضا أن يختار وسيلة من وسائل التعليم تعد الأشق والأصعب بين كل الوسائل وهي القراءة ، لكنها ولا شك أرسخ من غيرها ، فهي أرسخ من مجرد السماع أو النظر ، أو مجرد الاستنباط والاستنتاج ، فهو يعلن للناس جميعا من

---

(١) القرآن وإعجازه العلمي ص ٥٥ بتصرف .

(٢) آل عمران الآية: [١٦٤].

(٣) آل عمران من الآية: [١١٠].

(٤) تاريخ نزول القرآن ص ٧١ ، ٧٢.

أول يوم ومن أول لحظة أن الذي يريد أن يرتبط بهذا الدين لابد أن يبذل مجهودا مضنيا في العلم والتعلم والقراءة .[١]

أقول : حقا، وخاصة بعد ما رأينا أن أول ما نزل "اقرأ "ثم ن والقلم ، ثم يبدأ كتابه بعد الحمد والثناء عليه بما هو أهل له ، ب" الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ" مع التعبير بعلو المترلة والمكانة .

ولا يعجبنَّ أحد من ذلك فإن الإسلام أعلى من شأن العلم حتى جعل جهاده أفضل من جهاد النفس والمال. يقول الجصاص في جهاد العلم:"فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ الْجِهَادَيْنِ أَفْضَلُ أَجِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ أَمْ جِهَادُ الْعِلْمِ ؟ قِيلَ لَهُ: الْجِهَادُ بِالسَّيْفِ مَبْنِيٌّ عَلَى جِهَادِ الْعِلْمِ وَفُرِّعَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَعُدُّوا فِي جِهَادِ السَّيْفِ مَا يُوجِبُهُ الْعِلْمُ ، فَجِهَادُ الْعِلْمِ أَصْلٌ وَجِهَادُ النَّفْسِ فَرْعٌ، وَالْأَصْلُ أَوْلَى بِالتَّفْضِيلِ مِنْ الفرع:[٢]

وإننا والله لو نظرنا بنظرة منصفة لنجد هذا الكلام عين اليقين في عصرنا فإن الأمة المتقدمة في العلم من يستطيع أن يقف أمامها ، بل كل الأمم تسير خلفها، فإن الأمة العالمة لا حدود لها ، فإليها القوة والسلطان، وقد كنا في وقت من الأوقات هذه الأمة، ويا حسرتى ! .

وقد ذكرت ما كان من قبل ذلك لنعلم مدى الفارق بين العهدين، عهد الكفر وعهد الإيمان، عهد العلم وعهد الجهل ، وكيف كانت اقْرَأْ بداية فجر جديد .

أما عن قوله"اقْرَأْ" فالقِرَاءَةُ: ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في التّرتيل [٣]. وهي لُغَةً الْإِظْهَارُ وَالْإِبْرَازُ، كَمَا قِيلَ فِي وَصْفِ النَّاقَةِ: لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا،أَيْ لَمْ تُنْتِجْ ، وَتَوْجِيهُ الْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ إِلَى نَبِيٍّ أُمِّيٍّ لَا تَعَارُضَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ تَكُونُ مِنْ

---

(١) العلم وبناء الأمم ، دراسة تأصيلية لدور العلم في بناء الدولة ص ٨، أ .د راغب السرجاني ط: الأولى ١٤٢٨– ٢٠٠٧ ، ط مؤسسة اقرأ–القاهرة .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ط العلمية ج٣ ص ١٥٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٦٦٨.

مَكْتُوبٍ وَتَكُونُ مِنْ مَتْلُوٍّ، وَهُنَا مِنْ مَتْلُوٍّ يَتْلُوهُ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عليه السلام، وَهَذَا إِبْرَازٌ لِلْمُعْجِزَةِ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّ الْأُمِّيَّ بِالْأَمْسِ صَارَ مُعَلِّمًا الْيَوْمَ. وَقَدْ أَشَارَ السِّيَاقُ إِلَى نَوْعَيِ الْقِرَاءَةِ هَذَيْنِ، حَيْثُ جَمَعَ الْقِرَاءَةَ مَعَ التَّعْلِيمِ بِالْقَلَمِ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى "اقْرَأْ" بَدْءٌ لِلنُّبُوَّةِ وَإِشْعَارٌ بِالرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّهُ يَقْرَأُ كَلَامَ غَيْرِهِ ، وفيه أيضا تنويه بشأن القراءة. وأنها السبيل إلى المعرفة والعلم ، ثم إن الأمية، وإن كانت حائلة بين المرء وبين أن يقرأ في كتاب، فإنها لا تحول بينه وبين العلم والمعرفة، فهناك كتاب الوجود، الذي يقرأ الإنسان آياته بالنظر المتأمل فيه، والبصيرة النافذة إلى أسراره، وعجائبه، ثم هناك التلقي عن أهل العلم، ممن يقرءون ويدرسون، فليكن الإنسان قارئا أبدا، على أي حال من أحواله، قارئا بنفسه، أو قارئا متابعا لغيره. أما أمية النبي الكريم، فهي أمية مباركة، قد فتحت عليه خزائن علم الله، إذ بعث الله ﷻ إليه رسولا من عنده يقرأ عليه كتاب الله، ويملا قلبه هدى ونورا منه[1] .

لكن وجه له الأمر بالقراءة ولم يبين ما الذي يقرأه. فما هو ؟ وَلَمْ يُذْكَرْ لِفِعْلِ اقْرَأْ مَفْعُولٌ، إِمَّا لِأَنَّهُ نُزِّلَ مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ أَوْجَدِ الْقِرَاءَةَ، وَإِمَّا لِظُهُورِ الْمَقْرُوءِ مِنَ الْمَقَامِ، وَتَقْدِيرُهُ: اقْرَأْ مَا سَنُلْقِيهِ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ. "[2] فَمَجِيءُ سُورَةِ الْقَدْرِ بَعْدَهَا بِمَثَابَةِ الْبَيَانِ لِمَا يَقْرَؤُهُ وَهِيَ: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ"، وَجَاءَ بَيَانُ مَا أُنْزِلَ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ:﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾.[3]،[4].

"بِاسْمِ" والبدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه ﷺ في أول ما نزل وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى من أن الله "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ" فهو سبحانه الموجود الحق الذي يستمد منه كلٌّ موجود وجودَه ، ويبدأ منه كل مبدوء بدأه. فباسمه إذن يكون كل ابتداء. وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه.[5]

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ج ٩ ص ١٣، التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢٣، ١٦٢٤.
(٢) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٣٦
(٣) الآيات :[١: ٣]
(٤) أضواء البيان للشنقيطي ج ٩ ص ١٣، التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢٣، ١٦٢٤.
(٥) في ظلال القرآن ج١ ص ٢١ .

ولقد تعددت آراء العلماء في الباء في قوله "بِاسْمِ رَبِّكَ" وبناء على كل رأي اختلف المعنى المراد هنا ، وسنعرض لهذه الآراء مما يبين ثراء اللغة العربية، وإعجاز القرآن في البدء بقوله "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ".

الرأي الأول: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : الْبَاءُ زَائِدَةٌ، وَالْمَعْنَى: اقْرَأْ اسْمَ رَبِّكَ، وقال المفسرون: المعنى: اذكر اسمه مستفتحا به قراءتك."[1] كَمَا قَالَ الْأَخْطَلُ:هُنَّ الْحَرَائِرُ لَا رَبَّاتُ أَخْمِرَةٍ . سُودُ الْمَحَاجِرِ لَا يَقْرَأْنَ بِالسُّوَرِ[2]

وَمَعْنَى اقْرَأْ اسْمَ رَبِّكَ، أَيِ اذْكُرِ اسْمَهُ، وقيل: الاسمُ صلةٌ، أي: اذكُرْ ربَّك، أو اقْرَأْ بِعَوْنِ رَبِّكَ وتوفيقه. وذكر الرازيُ أن الْقَوْلَ بأنها زائدة ضَعِيفٌ لِوُجُوهٍ ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعْنَاهُ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ مَا حَسُنَ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، أَيْ لَا أَذْكُرُ اسْمَ رَبِّي، وَثَانِيهَا: أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَلِيقُ بِالرَّسُولِ، لِأَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ شُغْلٌ سِوَى ذِكْرِ اللَّهِ، فَكَيْفَ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَشْتَغِلَ بِمَا كَانَ مَشْغُولًا بِهِ أَبَدًا وَثَالِثُهَا: أَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ الْبَاءِ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ.[3] ولكن ردَّ د/ محمد رأفت سعيد على تضعيف الرازي لهذا الرأي بقوله:"ولكن يمكن أن نناقش رد الرازي لهذا الرأي بقولنا: إن إجابة الرسول عن قول جبريل "اقرأ" فقط كما جاء في الرواية التي ذكرناها سابقا، فكان يضمه ويقول له: "اقرأ" فيقول: "ما أنا بقارئ" وليست الإجابة إذن كما يذكر الإمام الرازي عن قوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ. بل نزلت الآية بعد الضمة الثالثة وإجابة الرسول"ما أنا بقارئ" تقرير للأمية التي هي دليل إعجاز للنبي ﷺ، حتى لا يقال ما قاله بعض المشركين أنه قرأ كتب الأولين ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[4] وهذا يناسب أيضا الآية الكريمة التي تنبهه أن

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ج٤ ص ٤٦٦.

(٢) نسبه صاحب الحماسة إلى الراعي بن حُصَيْن بن مُعَاوِيَة بن جندل . الحماسة البصرية ج٢ ص ٢٢٢، لعلي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (ت: ٦٥٩هـ) ، ت: مختار الدين أحمد ، ط: عالم الكتب – بيروت .

(٣) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٥ ، تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١١٩ .

(٤) العنكبوت الآية :[٤٨].

قراءته ستكون باسم الله وتعليمه وقوته وليست من ذاتك أو جهدك الشخصي أو تعلمك السابق. أما قول الرازي: إن هذا لا يليق بالرسول؛ لأنه ما كان له شغل سوى ذكر الله ، فإنه يجاب عن هذا بأن هذا الأمر لرسول الله ﷺ أمر لأمته، ولا يعنى الأمر بذكر اسم الله عند القراءة، وعند طلب العلم، وعند القيام بالعمل أن الرسول لا يذكر الله في كل أحيانه ، بل هذا تدعيم لما كان عليه من الذكر الدائم، وأمر لأمته بأن يكونوا على ذلك. (١)

الرأي الثاني : أَنْ تكونَ الباءُ للحال، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: اقْرَأِ الْقُرْآنَ مُفْتَتِحًا بِاسْمِ رَبِّكَ أَيْ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ ثُمَّ اقْرَأْ، قالهُ قتادة(٢)، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ قِرَاءَةُ التَّسْمِيَةِ فِي ابْتِدَاءِ كُلِّ سُورَةٍ كَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ وَأَمَرَ بِهِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى مَنْ لَا يَرَى ذَلِكَ وَاجِبًا وَلَا يَبْتَدِئُ بِهَا(٣)، يقول ابن عاشور:" أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ لِلْمُصَاحَبَةِ وَيَكُونَ الْمَجْرُورُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ اقْرَأْ الثَّانِي مُقَدَّمًا عَلَى عَامِلِهِ لِلِاخْتِصَاصِ ، أَيِ اقْرَأْ مَا سَيُوحَى إِلَيْكَ مُصَاحِبًا قِرَاءَتَكَ "اسْمَ رَبِّكَ". فَالْمُصَاحِبَةُ مُصَاحَبَةُ الْفَهْمِ وَالْمُلَاحَظَةِ لِجَلَالِهِ، وَيَكُونُ هَذَا إِثْبَاتًا لِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَإِبْطَالًا لِلنِّدَاءِ بِاسْمِ الْأَصْنَامِ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: بِاسْمِ اللَّاتِ، بِاسْمِ الْعُزَّى، فَهَذَا أَوَّلُ مَا جَاءَ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ قَدِ افْتُتِحَ بِهِ أَوَّلُ الْوَحْيِ". (٤)

الرأي الثالث : الْبَاءُ بِمَعْنَى عَلَى، أَيِ اقْرَأْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، قَالهَ الْأَخْفَشُ، وهو كقَوْلِهِ: وَقَالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ، أَيْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ. وكَقَوْلِهِ ﷻ:"مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ" أَيْ عَلَى قِنْطَارٍ. وَالْمَعْنَى: اقْرَأْ عَلَى اسْمِ رَبِّكَ، أَيْ عَلَى إِذْنِهِ، أَيْ أَنَّ الْمَلَكَ جَاءَكَ عَلَى اسْمِ رَبِّكَ، أَيْ مُرْسَلًا مِنْ رَبِّكَ، فَذِكْرُ "اسْمِ" عَلَى هَذَا مُتَعَيِّنٌ. (٥)

---

(١) تاريخ نزول القرآن ص٧٢ ، ٧٣ .

(٢) تفسير الكشاف ج٤ ص ٧٧٥ .

(٣) تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢١٥ .

(٤) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٣٦ .

(٥) البحر المحيط ج١٠ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ . التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٣٦ .

الرأي الرابع :أن تكون الباء للاستعانة وَمَفْعُولُ اقْرَأْ مَحْذُوفٌ، ويَكُونَ الْمَعْنَى اقْرَأِ الْقُرْآنَ مُسْتَعِينًا بِاسْمِ رَبِّكَ كَأَنَّهُ يَجْعَلُ الِاسْمَ آلَةً فِيمَا يُحَاوِلُهُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَنَظِيرُهُ كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ، وَتَحْقِيقُهُ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُ: اقْرَأْ فَقَالَ لَهُ: لَسْتُ بِقَارِئٍ، فَقَالَ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ أَيِ اسْتَعِنْ بِاسْمِ رَبِّكَ وَاتَّخِذْهُ آلَةً فِي تَحْصِيلِ هَذَا الَّذِي عَسُرَ عَلَيْكَ ". (١)

الرأي الخامس: أنها بمعنى اللام يقول الرازي :"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ أَيِ اجْعَلْ هَذَا الْفِعْلَ لِلَّهِ وَافْعَلْهُ لِأَجْلِهِ كَمَا تَقُولُ: بَنَيْتُ هَذِهِ الدَّارَ بِاسْمِ الْأَمِيرِ وَصَنَعْتُ هَذَا الْكِتَابَ بِاسْمِ الْوَزِيرِ وَلِأَجْلِهِ، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ إِذَا صَارَتْ لِلَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ يَجْتَرِئُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيمَا هُوَ لِلَّهِ تَعَالَى؟ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَسْتَمِرُّ هَذَا التَّأْوِيلُ فِي قَوْلِكَ قَبْلَ الْأَكْلِ بِسْمِ اللَّهِ وَكَذَا قَبْلَ كُلِّ فِعْلٍ مُبَاحٍ؟ قُلْنَا: فِيهِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا: أَنَّ ذَلِكَ إِضَافَةٌ مَجَازِيَّةٌ كَمَا تُضِيفُ ضَيْعَتَكَ إِلَى بَعْضِ الْكِبَارِ لِتَدْفَعَ بِذَلِكَ ظُلْمَ الظَّلَمَةِ، كَذَا تُضِيفُ فِعْلَكَ إِلَى اللَّهِ لِيَقْطَعَ الشَّيْطَانُ طَمَعَهُ عَنْ مُشَارَكَتِكَ.- أقول: فدائما هدف الشيطان إفساد عمل العبد لربه فاستعن به عليه - وَالثَّانِي: أَنَّهُ رُبَّمَا اسْتَعَانَ بِذَلِكَ الْمُبَاحِ عَلَى التَّقْوَى عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَيَصِيرُ الْمُبَاحُ طَاعَةً فَيَصِحُّ ذَلِكَ التَّأْوِيلُ فِيهِ. (٢)

والاسم : هو اللفظ الذي يدل على ذات أو معنى(٣)، واسم أصله سِمو بكسر السين أو سُمو بضمها، وهو عند البصريين مشتق من السمو، يقال: سما يسمو، فعلى هذا تضم السين في قولك سمو ويقال: سمي يسمى فعلى هذا تكسر، وحذفت الواو من سمو، وكسرت السين من سم، وسكنت السين من بسم اعتلالا على غير قياس ، وإنما استدل على هذا الأصل الذي ذكرناه بقولهم في التصغير سمّي، وفي الجمع أسماء، وفي جمع الجمع أسامي. وقال الكوفيون: أصل اسم وسم من السمة ، وهي العلامة. لأن

---

(١) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج١١ ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٦.

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي ج ١ ص ١٥ .

الاسم علامة لمن وضع له، وحذفت فاؤه اعتلالا على غير قياس، والتصغير والجمع المذكوران يردان هذا المذهب الكوفي. وأما المعنى فيه فجيد لولا ما يلزمهم من أن يقال في التصغير وسيم، وفي الجمع أوسام، لأن التصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها. (١)

لكن لِمَ لم يحذف الألف من باسم ربك مقارنة بالبسملة؟ يقول الرازي: " حذفوا ألف اسم من قوله بسم الله وأثبتوه في قوله اقرأ باسم ربك ، والفرق من وجهين الأول أن كلمة بسم الله مذكورة في أكثر الأوقات عند أكثر الأفعال فلأجل التخفيف حذفوا الألف بخلاف سائر المواضع فإن ذكرها قليل.

الثاني : قال الخليل إنما حذفت الألف في قوله بسم الله لأنها إنما دخلت بسبب أن الابتداء بالسين الساكنة غير ممكن فلما دخلت الباء على الاسم نابت عن الألف فسقطت في الخط ، وإنما لم تسقط في قوله اقرأ باسم ربك لأن الباء لا تنوب عن الألف في هذا الموضع كما في بسم الله لأنه يمكن حذف الباء من اقرأ باسم ربك مع بقاء المعنى صحيحا فإنك لو قلت اقرأ اسم ربك صح المعنى أما لو حذفت الباء من بسم الله لم يصح المعنى فظهر الفرق. (٢)

"رَبِّكَ": التربية: إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حدّ التمام، يقال رَبَّهُ، وربّاه ورَبَّبَهُ ، فالرّبّ مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرّبّ مطلقا إلا لله ﷻ المتكفّل بمصلحة الموجودات، نحو قوله:﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (٣)(٤) فالرب على ذلك في اللغة: هو المعبود،والسيد المالك،والقائم بالأمور المصلح لما يفسد منها ، والملك(٥)

---

(١) تفسير ابن عطية ج١ ص ٦٢ ، تفسير البغوي ط إحياء التراث ج١ ص ٧١، مفاتيح الغيب ج١ ص ١٠٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ج١ ص ١٠٣ .

(٣) سبأ من الآية : [١٥]

(٤) المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٦ .

(٥) تفسير ابن عطية ج ص ٦٧ .

فَاللَّهُ تَعَالَى مَالِكُ الْعَالَمِينَ وَمُرَبِّيهِمْ، وَلَا يُقَالُ لِلْمَخْلُوقِ: هُوَ الرَّبُّ مُعَرَّفًا، إِنَّمَا يُقَالُ: رَبُّ كَذَا مُضَافًا، لِأَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ لِلتَّعْمِيمِ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ الْكُلَّ . (١)

وإذا نظرنا هنا إلى مجيء لفظ الربوبية دون أي اسم أو صفة أخرى للجليل نجده مناسب غاية المناسبة لوروده في مرحلة معينة من بدء الوحي والدعوة فقد جاء باسم رَبِّكَ ، وَلَمْ يَأْتِ بِلَفْظِ الْجَلَالَةِ لِمَا فِي لَفْظِ الرَّبِّ مِنْ مَعْنَى الَّذِي رَبَّاكَ وَنَظَرَ فِي مَصْلَحَتِكَ(٢)، وكذلك لِتُؤَكِّدَ لِهَذَا الْإِشْعَارِ، أَيْ: لَيْسَ مِنْ عِنْدِكَ وَلَا مِنْ عِنْدِ جِبْرِيلَ الَّذِي يُقْرِئُكَ. (٣) أو لأن الرَّبَّ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ، وَاللَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ الذَّاتِ وصفات الفعل تستوجب العبادة بخلاف صفة الذات فَكَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الْحَثِّ عَلَى الطَّاعَةِ.(٤) وَلِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ كَانَتْ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ وكَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ فَزِعَ فَاسْتَمَالَهُ لِيَزُولَ الْفَزَعُ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي رَبَّاكَ فَكَيْفَ يُفْزِعُكَ؟ فَأَفَادَ هَذَا الْحَرْفُ مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا: رَبَّيْتُكَ فَلَزِمَكَ الْقَضَاءُ فَلَا تَتَكَاسَلُ، وَالثَّانِي : أَنَّ الشُّرُوعَ مُلْزِمٌ لِلْإِتْمَامِ، وَقَدْ رَبَّيْتُكَ مُنْذُ كَذَا فَكَيْفَ أُضَيِّعُكَ؟ أَيْ حِينَ كُنْتَ عَلَقًا لَمْ أَدَعْ تَرْبِيَتَكَ فَبَعْدَ أَنْ صِرْتَ خَلْقًا نَفِيسًا مُوَحِّدًا عَارِفًا بِي كَيْفَ أُضَيِّعُكَ؟(٥) فالتذكير بهذه النعم التي منحها الرب ﷻ تطمين للنبي ﷺ، وفي الوقت نفسه تحفيز لهم للقيام بواجب الشكر عليها، وقضاء هذا الدين بلا تكاسل.(٦) فمدلول الربوبية يُنَبِّهُ الْعَبْدَ إِلَى مَا أَوْلَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالرِّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ، لأن هذا الوصف ينبئ عن كمال الرأفة والرحمة والرعاية بشأن المربوب، إِذِ الرَّبُّ يَفْعَلُ لِعَبْدِهِ مَا يُصْلِحُهُ، وَمِنْ كَمَالِ إِصْلَاحِهِ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ مَنْ يَقْرَأُ عَلَيْهِ وَحْيَهُ بِخَبَرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفِي إِضَافَتِهِ إِلَى الْمُخَاطَبِ إِينَاسٌ لَهُ(٧).

---

(١) تفسير البغوي ط إحياء التراث ج١ ص ٧٣ .

(٢) البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٣) أضواء البيان للشنقيطي ج ٩ ص ١٣ .

(٤) تفسير الرازي ج٣٢ ص٢١٦ ، اللباب في علوم الكتاب ج٢٠ ص ٤١٤.

(٥) تفسير الرازي ج٣٢ ص٢١٦ ، اللباب في علوم الكتاب ج٢٠ ص ٤١٤ .

(٦) تاريخ نزول القرآن ص٧٤.

(٧) أضواء البيان للشنقيطي ج ٩ ص ١٤ ، ١٥ ، التحرير والتنوير ج٣٠ص٤٣٦ ، التفسير الوسيط د/ طنطاوي ج ١٥ ص ٤٥٣ .

أما عن الْحِكْمَةُ فِي أَنَّهُ أَضَافَ ذَاتَهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: بِاسْمِ رَبِّكَ؟ فالْجَوَابُ: تَارَةً يُضِيفُ ذَاتَهُ إِلَيْهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ كما هاهنا، وَتَارَةً يُضِيفُهُ إِلَى نَفْسِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ، أَسْرَى بِعَبْدِهِ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ ﷺ: "عَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ" كَأَنَّهُ ﷺ يَقُولُ : هُوَ لِي وَأَنَا لَهُ، يُقَرِّرُهُ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ﴾[1]أَوْ تَقُولُ: إِضَافَةُ ذَاتِهِ إِلَى عَبْدِهِ أَحْسَنُ مِنْ إِضَافَةِ الْعَبْدِ إِلَيْهِ، إِذْ قَدْ عُلِمَ فِي الشَّاهِدِ أَنَّ مَنْ لَهُ ابْنَانِ يَنْفَعُهُ أَكْبَرُهُمَا دُونَ الْأَصْغَرِ، يَقُولُ: هُوَ ابْنِي فَحَسْبُ لِمَا أَنَّهُ يَنَالُ مِنْهُ الْمَنْفَعَةَ، فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷺ: الْمَنْفَعَةُ تَصِلُ مِنِّي إِلَيْكَ، وَلَمْ تَصِلْ مِنْكَ إِلَيَّ خِدْمَةٌ وَلَا طَاعَةٌ إِلَى الْآنَ، فَأَقُولُ: أَنَا لَكَ وَلَا أَقُولُ أَنْتَ لِي، ثُمَّ إِذَا أَتَيْتَ بِمَا طَلَبْتُهُ مِنْكَ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ تَوْبَةٍ أَضَفْتُكَ إِلَى نَفْسِي فَقُلْتُ: أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾[2] وهذه اللفظة أيضا مُؤْذِنَةٌ بِأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِرُبُوبِيَّتِهِ عِنْدَهُ رَدًّا عَلَى الَّذِينَ جَعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَرْبَابًا مَنْ دُونِ اللَّهِ فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلًا لِلتَّوْحِيدِ فِي الْإِسْلَامِ".[3] يقول أبو حيان :"وَجَاءَ الْخِطَابُ لِيَدُلَّ عَلَى الِاخْتِصَاصِ وَالتَّأْنِيسِ، أَيْ لَيْسَ لَكَ رَبٌّ غَيْرُهُ." [4]

وقفةٌ مع "اقرأ باسم ربك" والعصر الحديث :

العلم كله هبة من الله، ومن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه، فلا يكون العلم مبعدا لصاحبه عن الله، ولا منسيا له إياه ، ولعل هذا الكلام يوصلنا إلى المراد منا، فإذا نظرنا إلى ما سبق، وإلى حرف الباء وما يدل عليه من أقوال العلماء، فإذا كانت للاستعانة فمعناه ابدأ واقرأ مستعينا بالله، أو للمصاحبة فاستصحب عظمة الله وكن في كنفه على كل حال، أو بمعنى اللام اقرأ لأجله وتقرب به إليه، كل المعاني لا تنفك عن أنك لا تتعلم ولا تقرأ إلا باسم الله ، ولله، وعلى اسم الله وهو بعض

---

(١) النِّسَاء من الآية: [٨٠] .

(٢) الزُّمَر من الآية : [٥٣] ، تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٦.

(٣) التحرير والتنوير ج٣٠ص٤٣٦ .

(٤) البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

منه وعطاياه ففوق كل ذي علم عليم ، وأن ما تعلم الإنسان شيئا إلا من فيض الله عليه﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[1] ، والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره وعن هدفه، لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس. إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، لأنه انقطع عن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضل طريقه إلى الله ، وانحرفت به السبل وهو ما نجده الآن من مسوخ الغرب أو المستغربين ممن حملوا تراثهم مقلدين ليس إلا ، ممن ارتكسوا في المادية المحضة وظنوا أن التدين أو التعليم بنية وإخلاص هو محض التخلف، وكأن ديننا لا يقبل الانسجام مع العلوم، وهو محض افتراء وخاصة بعد ما ثبت من إشارات علمية ، وحتى لو لم تظهر فإن العديد والعديد من الآيات والنصوص التي تحض وتدفع كل مسلم قد استطاعته إلى أن يتعلم وينهض بهذه الأمة. فالآيات تؤكد أن الدين أبدا لم ولن يكون ضد العلم وليس العلم ضد الدين، بل هو دليل يهدي إليه، بل من ينظر إلى تاريخ العلم والعلماء من دون تحيز أو أحقاد ، يجد أن العلم منذ أقدم العصور كان وما يزال في خدمة الدين، وأن العلماء الراسخين المنصفين من مختلف الأجناس والملل، هداهم علمهم إلى الدين، وإلى الإيمان بأن وراء هذا الكون قوة عليا تديره وتنظمه ، وترعى كل شيء فيه بميزان وحساب ، وما ذلك إلا لأن العالِم أقدر من غيره على استبانة ما في هذا الكون من ترابط وتناسق وأحكام، يتضح في كل جزء من أجزائه، وفي كل خلية من خلايا أحيائه، وذرة من ذرات جماداته، في نفس الإنسان وعقله في تعدد المخلوقات وتنوعها﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2]، إن التعليم يجب أن ينطلق لتحقيق ذلك الهدف العظيم وأن تصطبغ جميع مواده بالعقيدة والأخلاق الإسلامية، وأن يكون المسؤلون عن التعليم من أكبرهم إلى أصغرهم مؤمنين بذلك وإلا سنتخلف ونتخلف،إن الذي ربط أعظم مفتاح للمعرفة باسمه الأكرم،وبين أن ذلك كله ما هو إلا مَنٌّ من الله على عباده في أول آياته ما هو إلا إيذان بوجوب

---

(١) البقرة من الآية : [٢٥٥].

(٢) فاطر من الآية : [١٨].

الالتحام بين المعارف والعلوم التي يستطيع الإنسان أن يبلغها وبين عبادة الله سبحانه، وفي المقابل لا يتحرج من خالف هذا المنهج أن يكون أداة للحرب على كل قيمة وخلق وهو ما نراه في واقعنا جليا دون تورية ، فما هو إلا أسير فضل أسياده ممن شرب سمهم دون عقل أو فكر .

"الَّذِي خَلَقَ" الخَلْقُ أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال:﴿خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾[١]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢]، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء مثل﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾[٣]، ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾[٤] إلى غير ذلك من آيات، وليس الخَلْقُ الذي هو الإبداع إلّا لله ﷻ ، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[٥]، وأمّا الذي يكون بالاستحالة، فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال ، كعيسى حيث قال:﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[٦]، والخلق لا يستعمل في كافّة النّاس إلا على وجهين: أحدهما في معنى التقدير كقول الشاعر:

فلأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثمّ لا يفري [٧]

والثاني : في الكذب نحو قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾[٨]، إن قيل قوله ﷻ:﴿" فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾[٩]، يدلّ على أنّه يصحّ أن يوصف غيره بالخلق؟ قيل: إنّ ذلك

---

(١) الأنعام من الآية:[١] .
(٢) البقرة من الآية :[١١٧].
(٣) النساء من الآية:[١].
(٤) النحل من الآية:[٤].
(٥) النحل: من الآية:[١٧].
(٦) المائدة من الآية : [١١٠]
(٧) بيت لزهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان، يقول: أنت إذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته،وغيرك يقدر ما لا يقطعه، لأنه ليس بماضي العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه.
(٨) العنكبوت من الآية :[١٧].
(٩) المؤمنون من الآية :[١٤].

معناه: أحسن المقدّرين، أو يكون على تقدير ما كانوا يعتقدون ويزعمون أنّ غير الله يبدع، فكأنه قيل: فاحسب أنّ هاهنا مبدعين وموجدين، فالله أحسنهم إيجادا على ما يعتقدون. (١)

وقد اقترن وصف الربوبية بهذا الفعل هنا لما أنه أجمع الصفات للدلالة على الربوبية ، وللتعريف بالله ﷻ لخلقه ، وخاصة أن هذه الآيات هي أول ما نزل . يقول البيضاوي:" لما كان أول الواجبات معرفة الله ﷻ نزل أولاً ما يدل على وجوده وفرط قدرته وكمال حكمته". (٢) فهذه الآيات تضعنا وجوب معرفة الرب الخالق، فهي كالدليل على الربوبية، كَأَنَّ الْعَبْدَ يَقُولُ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّكَ رَبِّي؟ فَيَقُولُ: لِأَنَّكَ كُنْتَ بِذَاتِكَ وَصِفَاتِكَ مَعْدُومًا ثُمَّ صِرْتَ مَوْجُودًا فَلَا بُدَّ لَكَ فِي ذَاتِكَ وَصِفَاتِكَ مِنْ خَالِقٍ، وَهَذَا الْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ تَرْبِيَةٌ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنِّي رَبُّكَ وَأَنْتَ مربوبي.(٣)فهو لِتَذْكِيرِ النِّعْمَةِ لِأَنَّ الْخَلْقَ هُوَ أَعْظَمُ النِّعَمِ، وَعَلَيْهِ يَتَرَتَّبُ سَائِرُ النِّعَمِ.(٤) فمنْ قدرَ على خلقِ الإنسانِ على ما هو عليه من الحياةَ وما يتبعُها منَ الكمالاتِ العلميةِ والعمليةِ منْ مادةٍ لم تشمَّ رائحةَ الحياةِ فضلاً عن سائرِ الكمالاتِ قادرٌ على تعليمِ القراءةِ للحيِّ العالمِ المتكلمِ أي الذي أنشأَ الخلقَ واستأثرَ به أوْ خلَقَ كُلَّ شَيْءٍ . (٥)وكذلك لما ذكر الرب وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام أربابا جاءه بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها، وهي قوله ﷻ:"الَّذِي خَلَقَ "(٦) ، ففي ذلك إلزام بالحجة وإلجاء بالاعتراف بألوهيته ﷻ، وخاصة لأن الكفار كانوا يعلمون أنه الخالق دون أصنامهم (٧) ، وَجِيءَ فِي وَصْفِ الرَّبِّ بِطَرِيقِ الْمَوْصُولِ الَّذِي

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ مادة " خلق " بتصرف .

(٢) تفسير البيضاوي ج٥ ص ٣٢٥ .

(٣) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٦، اللباب في علوم الكتاب ج٢٠ ص ٤١٤.

(٤) فتح القدير ، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ج٥ ص ٥٧١ .

(٥) إرشاد العقل السليم ج٩ص١٧٧.

(٦) تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠١ .

(٧) زاد المسير في علم التفسير ج٤ ص ٤٦٦.

خَلَقَ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ اسْتِدْلَالًا عَلَى انْفِرَادِ اللَّهِ بِالْإِلَهِيَّةِ لِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَيُتْلَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِمَا تُفِيدُهُ الْمَوْصُولِيَّةُ من الْإِيمَاء إِلِي عِلَّةِ الْخَبَرِ، وَإِذَا كَانَتْ عِلَّةُ الْإِقْبَالِ عَلَى ذِكْرِ اسْمِ الرَّبِّ هِيَ أَنَّهُ خَالِقٌ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى بُطْلَانِ الْإِقْبَالِ عَلَى ذِكْرِ غَيْرِهِ الَّذِي لَيْسَ بِخَالِقٍ ، فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يُقْبِلُونَ عَلَى اسْمِ اللَّاتِ وَاسْمِ الْعُزَّى، وَكَوْنُ اللَّهِ هُوَ الْخَالِقَ يَعْتَرِفُونَ بِهِ قَالَ ﷻ:﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (١)، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢) وَلِأَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَالِقٍ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣)، فَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ مقَام ابْتِدَاء كتاب الْإِسْلَامِ دِينِ التَّوْحِيدِ كَانَ مُقْتَضِيًا لِذِكْرِ أَدَلِّ الْأَوْصَافِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ.(٤) يقول الفخر الرازي: " ثُمَّ إِنَّ الْحَكِيمَ ﷻ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَهُ رَسُولًا إِلَى الْمُشْرِكِينَ، لَوْ قَالَ لَهُ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، لَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوا ذَلِكَ منه، لكنه تعالى قدم ذلك مُقَدِّمَةً تُلْجِئُهُمْ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِهِ كَمَا يُحْكَى أَنَّ زُفَرَ لَمَّا بَعَثَهُ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى الْبَصْرَةِ لِتَقْرِيرِ مَذْهَبِهِ، فَلَمَّا ذَكَرَ أَبُو حَنِيفَةَ زَيَّفُوهُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، فَرَجَعَ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفْ طَرِيقَ التَّبْلِيغِ، لَكِنِ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ، وَاذْكُرْ فِي الْمَسْأَلَةِ أَقَاوِيلَ أَئِمَّتِهِمْ ثُمَّ بَيِّنْ ضَعْفَهَا، ثُمَّ قل بعد ذلك: هاهنا قَوْلٌ آخَرُ، وَاذْكُرْ قَوْلِي وَحُجَّتِي، فَإِذَا تَمَكَّنَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِمْ، فَقُلْ: هَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ يَسْتَحْيُونَ فَلَا يَرُدُّونَ، فَكَذَا هاهنا أَنَّ الْحَقَّ ﷻ يَقُولُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ عُبَّادُ الْأَوْثَانِ، فَلَوْ أَثْنَيْتَ عَلَيَّ وَأَعْرَضْتَ عَنِ الْأَوْثَانِ لَأَبَوْا ذَلِكَ، لَكِنِ اذْكُرْ لَهُمْ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ خُلِقُوا مِنَ الْعَلَقَةِ فَلَا يُمْكِنُهُمْ إِنْكَارُهُ، ثُمَّ قُلْ: وَلَا بُدَّ لِلْفِعْلِ مِنْ فَاعِلٍ فَلَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُضِيفُوا ذَلِكَ إِلَى الْوَثَنِ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ نَحَتُوهُ، فَبِهَذَا التَّدْرِيجِ يُقِرُّونَ بِأَنِّي أَنَا الْمُسْتَحِقُّ لِلثَّنَاءِ دُونَ الْأَوْثَانِ، كَمَا قَالَ ﷻ:" وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" ثُمَّ لَمَّا صَارَتِ

---

(١) لُقْمَان من الآية :[٢٥] .

(٢) الزُّخْرُفِ من الآية :[٨٧].

(٣) الطور الآية : [٣٥] .

(٤) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٣٧ ، أضواء البيان للشنقيطي ج ٩ ص ١٤ ، ١٥.

الْإِلَهِيَّةُ مَوْقُوفَةً عَلَى الْخَالِقِيَّةِ وَحَصَلَ الْقَطْعُ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يَخْلُقْ لَمْ يَكُنْ إِلَهًا، فَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾. (١)

قضية الخلق مفتاح الربوبية :

ولنقف للحظة مع قضية الخلق ، فهي لم تكن مجرد قضية قديمة نوقشت مع أهل الشرك في زمانهم، وتم قبولها أو رفضها، هل الهدف هو مجرد الإيجاد وفقط، فلينتحر المنتحرون كما شاءوا ، أم هناك هدفا أسمى لهذه الحياة؟ إن هذه القضية مطروحة لكل أهل زمان وعن أهميتها. يقول د/ فريد الأنصاري:"كانت"قضية الخلق" تمثل مفتاح فهم الربوبية، والمعنى الوجودي والوظيفي للإنسان، فهي المبدأ الكلي الذي على أساسه خاطب الله الإنسان بكل أمر ونهي، بل إنها تمثل البنية الأساسية لخطابه الذي عليه يتفرع كل شيء، مما قرره في العقيدة والشريعة على السواء، إن هذا الحق بقدر ما هو متعلق بذمة الإنسان لربه الذي خلقه، فإنه يستفيد منه معنى عظيماً لوجوده. إن إحساسه بوجوب هذا الحق عليه يخرجه من التيه الوجودي الذي ضاعت فيه أفكار الكفار من العالمين، فهو يخرجه مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور، وأي ظلام أشد من التصور العبثي للحياة! أو كما قالوا: "إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع!" فبأي نفسية يعيش الإنسان هذه الحياة، وهو يرى أنما غايتها إلى العدم المطلق والفناء الرهيب الذي ما بعده من حياة؟ فأي لذة يجدها في متعها وهو يعتقد أنها إلى زوال قريب؟ ذلك ما يقوده غالباً إلى الشره المتوحش في تناولها، أو إلى العزوف القَلِق ثم الانتحار! ألا ما أشد وحشة الكفر والضلال! فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلي بهِ آخرون. إن معرفة الله من ههنا تبدأ الشعور بالفرح به تعالى رباً خالقاً، والأنس بجماله ﷻ إلهاً رحيماً؛ فيمتلئ القلب شوقاً إليه تعالى، ثم تنشط الجوارح للسير إلى بابه الكريم، والعروج إلى رضاه، عبر مدارج السالكين ، ومنازل السائرين. فيجد الإنسان الأنس كل الأنس كلما ازداد معرفة بالله جل

(١) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٧ .

جلاله. وإنما مدارج المعرفة به تعالى أن ينطلق المسلم من توحيد الربوبية الذي ينفتح بابه على العبد أول ما ينفتح من الشعور بحق الخالقية ؛ ذلك أن الرب إنما هو رب من حيث هو مالك للمربوب، إلا أن المالكية الحقة إنما تقع في الواقع على من يملك أصل الاختراع والإبداع، إنشاء وتطويراً؛ ذلك هو المالك الحقيقي للشيء، وذلك هو الله ﷻ في ربوبيته للكون والخلق أجمعين. إنه مالك كل شيء خلقاً وإبداعاً، وزيادة ونقصاً، وإحياء وإماتة، وبدءاً وإعادة، وبعثاً ونشوراً. وما كان ذلك كله ليكون لولا أنه هو ﷻ الذي خلق. ومن هنا كان أول وصف لذاته ﷻ نزل على محمد ﷺ في بدء تعريفه بالله رباً "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" فهو الرب إذن، وأول ما وصف به نفسه تعالى أنه "الَّذِي خَلَقَ"؛ لأن الربوبية إنما ترجع في حقيقتها إلى هذا المعنى. ومن هنا اطراد هذا المبدأ في القرآن الكريم، حتى لا تكاد تخلو سورة منه، بدءاً بالفاتحة "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ" حتى سورة الناس "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ". فالقرآن كله إذن قائم على ترسيخ مفهوم الرب في قلوب المربوبين، عسى أن تستجيب فطرهم لأداء حق الربوبية، بتوحيد الألوهية عبادةً لله رب العالمين. وخلاصة الأمر أن الخالق مالك، وأن المالك رب؛ ذلك أنه تعالى خلق فملك، وملك فرَبَّ. فهذه معانٍ بعضها يحيل على بعض، حتى كان لفظ "الرب" جماعها ؛ فجمع بذلك كل أوصاف الكمال والجمال والجلال، من الأسماء الحسنى والصفات العلى .[1]

لكن سؤال يطرح نفسه ، هل المراد أنه هنا خلق كل شيء أم أنه يريد خلق الإنسان، وخاصة أن ما يرد بعده هو قوله " خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ" ؟

وَقَدْ أَطْلَقَ صِفَةَ الْخَلْقِ عَنْ ذِكْرِ مَخْلُوقٍ لِيَعُمَّ وَيَشْمَلَ الْوُجُودَ كُلَّهُ، فهو خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ،﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، ﴿اللَّهُ خَالِقُ

---

(١) مقال في مجلة البيان العدد ١٧٩ ص ٢٦ بعنوان بلاغ الرسالة القرآنية.. معالم في المنهج الدعوي منهج التعرف إلى الله والتعريف به (بتصرف)، د. فريد الأنصاري رئيس قسم الدراسات الإسلامية، جامعة المولى إسماعيل، مكناس المغرب.

(٢) الأنعام من الآية [١٠٢] .

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [١]، "هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ"[٢] وَلَمْ يَذْكُرْ مُتَعَلِّقَ الْخَلْقِ أَوَّلًا، فَالْمَعْنَى أَنَّهُ قَصَدَ إِلَى اسْتِبْدَادِهِ بِالْخَلْقِ، فَاقْتَصَرَ أَوْ حَذَفَ، إِذْ مَعْنَاهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ. ثُمَّ ذَكَرَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ، وَخَصَّهُ مِنْ بَيْنِ الْمَخْلُوقَاتِ لِكَوْنِهِ هُوَ الْمُنَزَّلُ إِلَيْهِ، وَهُوَ أَشْرَفُ. [٣] تَفْخِيمًا لِخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَدَلَالَةً عَلَى عَجِيبِ فِطْرَتِهِ.[٤]

يقول الزمخشري:" فإن قلت: كيف قال خَلَقَ فلم يذكر له مفعولا، ثم قال خَلَقَ الْإِنْسانَ؟ قلت: هو على وجهين: إما أن لا يقدر له مفعول ،وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه. وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض ." [٥]، وهناك من جوَّز أن يكونَ تأكيداً لفظياً، فيكونُ قد أكَّد الصلةَ وحدَها، كقولك: "الذي قام قامٍ زيدٌ"[٦] ،أو أن الأمر خاص بالإنسان، وخصه لبعد ما بين أول أحواله وآخرها . قاله بدر الدين بن جماعة.[٧]

" خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ"

ولَمَّا كانَ خلقُ الإنسان أول النعمُ الفائضةِ عليه ﷺ منه ﷻ وأقدم الدلائلِ الدالةِ على وجودِه ﷻ وكمالِ قُدرتِه وعلمِه وحكمتِه فكان خلقه أبدع من خلق غيره، فكان لذلك أدل على كمال الصانع وعلى وجوب إفراده بالعبادة ، فمثل لهم من المخلوقات ما لا مدافعة فيه، وما يجده كل مفطور في نفسه، وخلقة الإنسان من أعظم

---

(١) الزمر الآية : [٦٢] .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ج ٩ ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٧ .

(٤) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٦ ،تفسير البيضاوي ج٥ ص ٣٢٥ .

(٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص ٧٧٥، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل ج١ ص ٥٨١.

(٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، مفاتيح الغيب ج٣٢ ص ٢١٧، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج١١ ص ٥٥ : ٥٧ .

(٧) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

العبر حتى أنه ليس في المخلوقات التي لدينا أكثر عبرا منه في عقله وإدراكه ورباطات بدنه وعظامه ، ووصفَ ذاتَه بذلكَ أولاً ليستشهدَ ﷻ بهِ على تمكينهِ ﷺ لـه مـنَ القراءةِ . "[1]

والإنسان هاهنا: ابن آدم ، فهو اسم الجنس، وليست الإشارة إلى آدم، لأنه مخلوق من طين، ولم يكن ذلك متقررا عند الكفار المخاطبين بهذه الآية، فلذلك تـرك أصل الخلقة وسيق لهم الفرع الذي هم به مقرون تقريبا لأفهامهم".[2] قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: إِنَّ الْمَقَامَ هُنَا مَقَامُ دَلَالَةٍ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ، فَبَدَأَ بِمَا يَعْرِفُونَهُ وَيُسَلِّمُونَ بِهِ لِلَّهِ، وَلَمْ يَبْدَأْ مِنَ النُّطْفَةِ أَوِ التُّرَابِ؛ لِأَنَّ خَلْقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ لَمْ يُشَاهِدُوهُ، وَلِأَنَّ النُّطْفَةَ لَيْسَتْ بِلَازِمٍ لَهَا خَلْقُ الْإِنْسَانِ، فَقَدْ تُقْذَفُ فِي غَيْرِ رَحِمٍ كَالْمُحْتَلِمِ، وَقَدْ تَكُونُ فِيهِ، وَلَا تَكُـونُ مُخَلَّقَةً.[3]

وقد سبق الحديث عن اختصاص ذكر الإنسان بالخلق عند الحـديث عـن الخلق في الآية السابقة، وهو مما يدل على اتساق آي التنزيل، ويزيد ابن عاشور مـن بيان المعنى فيقول:"وَخُصَّ خَلْقُ الْإِنْسَانِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ بَقِيَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ لِأَنَّهُ الْمُطَّرِدُ فِي مَقَامِ الِاسْتِدْلَالِ إِذْ لَا يَغْفُلُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَخْطُرَ لَـهُ خَاطِرُ الْبَحْثِ عَنِ الَّذِي خَلَقَهُ وَأَوْجَدَهُ وَلِذَلِكَ قَـالَ ﷻ:﴿وَفِـي أَنْفُسِكُمْ أَفَـلَا تُبْصِرُونَ﴾[4]، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِتَحْمِيقِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ضَلُّوا عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ ﷻ مَـعَ أَنَّ دَلِيلَ الْوَحْدَانِيَّةِ قَائِمٌ فِي أَنْفُسِهِمْ.[5]

---

(١) تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠١ ، ٥٠٢، إرشاد العقل السليم ج٩ص١٧٧ ، ١٧٨، نظم الدرر ج ٢٢ ص ١٥٥.

(٢) تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠١ ، ٥٠٢ ، زاد المسير ج٤ ص ٤٦٦ ، تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١١٩ .نظم الدرر ج ٢٢ ص ١٥٥ . روح المعاني ج ١٥ ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

(٣) أضواء البيان ج ٩ ص ١٥ ، ١٦ .

(٤) الذاريات الآية : [٢١]

(٥) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٣٧ .

"مِنْ عَلَقٍ": استأنف التنبيه على خلق المخاطبين أنفسهم فمن عرف انقلابه من حال الدم إلى ما يشاهد لِتعرف حاله الثانية التي ليست بأبعد في نفسك من هذه الناشئة.[١] وَفِي قَوْلِهِ"مِنْ عَلَقٍ" إِشَارَةٌ إِلَى مَا يَنْطَوِي فِي أَصْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَدِيعِ الْأَطْوَارِ وَالصِّفَاتِ الَّتِي جَعَلَتْهُ سُلْطَانَ هَذَا الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ.[٢]

فإن الذي خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات كلها من العلق، وآتاه القدرة على التسلط على كل شيء مما في هذا العالم الأرضي، وجعله يسوده بعلمه، ويسخره لخدمته، قادر أن يجعل من الإنسان الكامل كالنبيﷺ قارئا وإن لم يسبق له تعلّم القراءة. وقد وصف ﷻ نفسه بأنه خلق الإنسان من علق، وأنه علمه بالقلم ليبين أحوال هذا الإنسان، وأنه خلق من أحقر الأشياء ، وبلغ في كماله الإنساني أن صار عالما بحقائق الأشياء، فكأنه قيل: تدبر أيها الإنسان تجد أنك قد انتقلت من أدنأ المراتب وأخسها إلى أعلى الدرجات وأرفعها، ولا بد لذلك من مدبر قادر حكيم أحسن كل شيء خلقه[٣].

وقيل" من علق" بصيغة الجمع ، وإنما هِيَ علقةٌ، لأنّ الْإِنْسَان فِي معنى جمع كقوله "إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ" ، فذهب بالعلق إلى الجمع لمشاكلة رءوس الآيات .[٤]

وَالْعَلَقَةُ : قِطْعَةٌ مِنْ دَمٍ رَطْبٍ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَعْلَقُ لِرُطُوبَتِهَا بِمَا تَمُرُّ عَلَيْهِ، فَإِذَا جَفَّتْ لَمْ تَكُنْ عَلَقَةً ، وَإِذَا جَرَى فَهُوَ الْمَسْفُوحُ." [٥] وَهِيَ قِطْعَةٌ قَدْرَ الْأُنْمُلَةِ ، سُمِّيت بِذَلِكَ تَشْبِيهًا لَهَا بِدُودَةٍ صَغِيرَةٍ تُسَمَّى عَلَقَةً، وَهِيَ حَمْرَاءُ دَاكِنَةٌ تَكُونُ فِي الْمِيَاهِ

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ج١ص ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٣٧ .

(٣) تفسير المراغي ج٣٠ص١٩٩بتصرف .

(٤) تفسير الطبري ت شاكر ج٢٤ ص ٥١٩ ، معاني القرآن للفراء ج٣ ص ٢٧٨ ، تفسير الزمخشري ج٤ ص ٧٧٥ ، ٧٧٦ .

(٥) تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١١٩.

الْحُلْوَةِ، تَمْتَصُّ الدَّمَ مِنَ الْحَيَوَانِ إِذَا عَلِقَ خُرْطُومُهَا بِجِلْدِهِ وَقَدْ تَدْخُلُ إِلَى فَمِ الدَّابَّةِ وَخَاصَّةً الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ فَتَعْلَقُ بِلَهَاتِهِ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهَا. (١)

أما عن العلقة التي يخلق منها الإنسان، فذلك أَنَّ نُطْفَةَ الذَّكَرِ وَنُطْفَةَ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الِاخْتِلَاطِ وَمُضِيِّ مُدَّةٍ كَافِيَةٍ تَصِيرَانِ عَلَقَةً فَإِذَا صَارَتْ عَلَقَةً فَقَدْ أَخَذَتْ فِي أَطْوَارِ التَّكَوُّنِ، فَجُعِلَتِ الْعَلَقَةُ مَبْدَأَ الْخَلْقِ وَلَمْ تُجْعَلِ النُّطْفَةُ مَبْدَأَ الْخَلْقِ لِأَنَّ النُّطْفَةَ اشْتُهِرَتْ فِي مَاءِ الرَّجُلِ فَلَوْ لَمْ تُخَالِطْهُ نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ لَمْ تَصِرِ الْعَلَقَةُ فَلَا يَتَخَلَّقُ الْجَنِينُ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مَنْ عَلَقٍ ثُمَّ مَصِيرَهُ إِلَى كَمَالٍ أَشَدِّهِ هُوَ خَلْقٌ يَنْطَوِي عَلَى قُوًى كَامِنَةٍ وَقَابِلِيَّاتٍ عَظِيمَةٍ أَقْصَاهَا قَابِلِيَّةُ الْعِلْمِ وَالْكِتَابَةِ. وَمِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيِّ ذِكْرُ الْعَلَقَةِ لِأَنَّ الثَّابِتَ فِي الْعِلْمِ الْآنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَخَلَّقُ مِنْ بُوَيْضَةٍ دَقِيقَةٍ جِدًّا لَا تُرَى إِلَّا بِالْمِرْآةِ الْمُكَبِّرَةِ أَضْعَافًا تَكُونُ فِي مَبْدَأِ ظُهُورِهَا كُرَوِيَّةَ الشَّكْلِ سَابِحَةً فِي دَمِ حَيْضِ الْمَرْأَةِ فَلَا تَقْبَلُ التَّخَلُّقَ حَتَّى تُخَالِطَهَا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَتَمْتَزِجَ مَعَهَا فَتَأْخُذَ فِي التَّخَلُّقِ إِذَا لَمْ يَعُقْهَا عَائِقٌ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ (٢)، فَإِذَا أَخَذَتْ فِي التَّخَلُّقِ وَالنُّمُوِّ امْتَدَّ تَكَوُّرُهَا قَلِيلًا فَشَابَهَتِ الْعَلَقَةَ الَّتِي فِي الْمَاءِ مُشَابَهَةً تَامَّةً فِي دِقَّةِ الْجِسْمِ وَتَلَوُّنِهَا بِلَوْنِ الدَّمِ الَّذِي هِيَ سَابِحَةٌ فِيهِ وَفِي كَوْنِهَا سَابِحَةً فِي سَائِلٍ كَمَا تَسْبَحُ الْعَلَقَةُ. (٣)

وقد وافق هذا التفسير العلمَ الحديث في المعنيين السابقين ، يقول البروفسير كيث أل مور أحد كبار العلماء في العالم في مجال التشريح وعلم الأجنة في جامعة تورنتو بكندا ، وهو مؤلف كتاب أطوار خلق الإنسان، الذي طبع بثمان لغات مختلفة، فعندما سمع الآيات التي تحث عن أطوار خلق الإنسان وطلب منه أن يبدي الرأي فيها أعلن دهشته وقال ؟ كيف يكون لمحمد قبل ١٤٠٠ عام أن يصف الجنين وأطواره هذا الوصف الدقيق الذي لم يتمكن العلماء من معرفته إلا منذ ثلاثين عاما ؟!

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٣٨ .

(٢) الْحَج من الآية: [٥]

(٣) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٣٨ .

وسرعان ما تحولت دهشته إلى إعجاب وتبنى هذه الآراء في المجامع العلمية وقدم محاضرة بعنوان " مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة "مما جعله يقول : ويتضح لي أن هذه الأدلة حتما جاءت لمحمد ﷺ من عند الله لأن هذه المعلومات لم تكتشف إلا حديثا ، وبعد قرون عدة ، وهذا يثبت لي أن محمداﷺ رسول الله ، وذلك أنه عندما شاهد العلقة التي توجد في البرك وجاء بصورة لهذه العلقة التي تعيش في البرك، وقارن بينها وبين الجنين في مرحلة العلقة وقد وجد تشابها كبيرا بين الاثنين، وقد جمع ذلك في شكل توضيحي وعرضه على الأطباء في عدد من المؤتمرات ،كما بين أيضا أن الجنين في مرحلة العلقة يكون معلقا في رحم أمه ، وكذلك فإن العلقة في لغة العرب تعني الدم المتجمد ، وأن الجنين في مرحلة العلقة تكون الدماء فيه محبوسة في العروق الدموية قبل أن تتم الدورة بين الجنين وبين المشيمة فيظهر شكل الجنين كشكل الدم المتجمد ، وهكذا تشمل كلمة العلقة جميع أوصاف الجنين ، فمن اخبر محمدا ﷺ بهذا .[1]

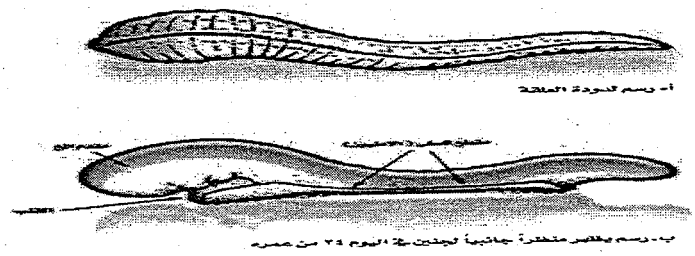

شكل يوضح أوجه التشابه بين العلقة " الدودة " وبين الجنين البشري

(١) إنه الحق [من إصدارات الهيئة العلمية للإعجاز العلمي بمكة المكرمة] ، ص ٢٤ وما بعدها بتصرف ، ط الرابعة ١٤٢٧/٢٠٠٦.

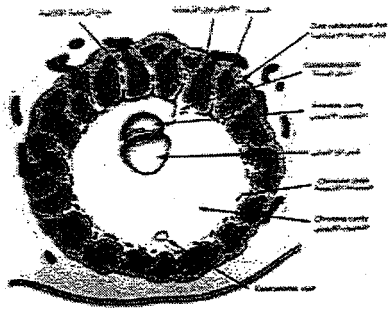

الجنين في مرحلة العلقة حيث يتعلق ببطانة الرحم بواسطة الساق الموصلة ويكون محاطا بسائل مخاطي في التجويف الأمنيوني وكيس المح النهائي وذلك يتفق مع المعاني الواردة لكلمة علقة .

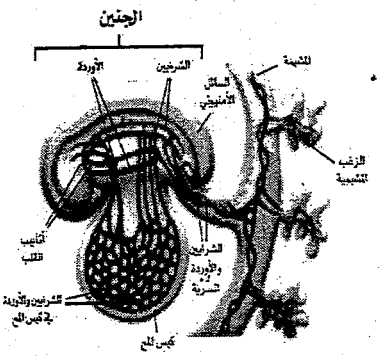

شكل يبين الدورة الجنينية في اليوم العشرين من عمر الجنين وتظهر الأوعية الدموية مليئة بالدماء المحبوسة فيها قبل نبض القلب ويأخذ الجنين بذلك شكل قطعة دم جامدة

ويقول د/ محمد حسن محمد سبتان:"ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً"[1] ما إن يتم التحام النطفة بالبيضة، حتى تباشر البيضة الملقحة بالانقسام إلى خليتين، فأربع، فثمانٍ، وهكذا دون زيادة في حجم مجموع هذه الخلايا عن حجم البيضة الملقحة، وتتم عملية الانقسام هذه والبيضة في طريقها إلى الرحم، تدفعها حركة أهداب البوق، والتقلصات العضلية المنتظمة لعضلات جدار البوق. حتى إذا وصلت إلى

(١) المؤمنون من الآية : [١٤] .

الرحم كانت كتلة من الخلايا الصغيرة الضلعة، يطلق عليها اسم التوتة حيث تشبه ثمرة التوت بتقسيمها الخارجي، ثم لا تلبث الخلايا السطحية لهذه الكتلة أن تفترق عن الخلايا الداخلية، وتصبح بشكل خلايا أسطوانية، ومهمة هذه الخلايا تأمين الغذاء وتسمى بالخلايا المغذية وبذلك يصبح محصول الحمل قابلاً للتعشيش، فتغرس الخلايا المغذية استطالاتها في مخاطبة الرحم،وتستمر عملية العلوق مدة أربع وعشرين ساعة، وبذلك تنتهي مرحلة تشكل العلقة. وقد لا يدرك روعة التصوير القرآني لهذه المرحلة بالعلقة إلا من شاهد تلك الكتلة الخلوية وهي عالقة علوقاً وليس التصاقاً بواسطة تلك الاستطالات التي غرستها في مخاطبة الرحم، وما أجدرنا هنا أن نُعرِّج على هذه الآيات التي تذكر الإنسان بتلك اللحظات التي كان فيها مجموعة خلوية عالقة بجدار رحم الأم، تستمد منها الدفء والغذاء والسكن، فيقول في أول سورة نزلت من القرآن، وأسماها الحق ﷻ بالعلق "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خلق الإنسان من علقٍ"[1].

وهناك من ذهب إلى أنه يمكن أن يراد من العلق هو الطين يقول الإمام البقاعي :"من علق" أي خلق هذا النوع من هذا الشيء وهو دم شديد الحمرة جامد غليظ، جمع علقة، وكذا الطين الذي يعلق باليد يسمى علقاً ، وهم مقرّون بخلق الآدمي من الأمرين كليهما، فالآية من أدلة إمامنا الشافعي ﷺعلى استعمال المشترك في معنييه ".[2]

وعن اختصاص هذه المرحلة بالخلق دون المراحل الأخرى يقول الشيخ الشنقيطي:" وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ أَحْيَانًا فِيمَا تُلْقِي بِهِ الرَّحِمُ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَبْدَأُ خِلْقَةِ الْإِنْسَانِ، فَالْقَادِرُ عَلَى إِيجَادِ إِنْسَانٍ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ مِنْ هَذِهِ الْعَلَقَةِ، قَادِرٌ عَلَى جَعْلِكَ قَارِئًا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ الْقِرَاءَةَ مِنْ قَبْلُ، كَمَا أَوْجَدَ الْإِنْسَانَ مِنْ تِلْكَ

---

(١) تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه في وسائل الإعلام ص٦٠ ، ٦١ ، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج٢٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

الْعَلَقَةِ وَلَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلُ، وَلِأَنَّ الَّذِي يَتَعَهَّدُ تِلْكَ الْعَلَقَةَ حَتَّى تَكْتَمِلَ إِنْسَانًا يَتَعَهَّدُهَا بِالرِّسَالَةِ . وَقَدْ يَكُونُ فِي اخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ بِالذَّاتِ وَبِخُصُوصِهِ لِتَفْصِيلِ مَرْحَلَةِ وُجُودِهِ، أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ تَعْلَمْ مَبَادِئَ خِلْقَتِهَا كَعِلْمِهِمْ بِالْإِنْسَانِ.[1]

"اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ "

العلم غاية الشرف ونهايته :

تعود بنا الآيات مرة أخرى إلى الإشعار بمَنِّ الله وكرمه على عباده ، فما العلم إلا من منته سبحانه ، ولذا ربط مفتاح المعرفة باسمه الأكرم، فتنتقل بنا هذه الآية بعد الحديث عن الخلق نقلة بعيدة جدا بين المنشأ والمصير، ولكن الله قادر، ولكن الله كريم، ومن ثم كانت هذه النقلة التي تبرز حقيقة التعليم. يقول البقاعي:" ولما أتم ﷻ ما أراد من أمر الخلق وهو الإيجاد بالأسباب بالتدريج، أخذ في التنبيه على عالم الأمر وهو الإبداع من غير أسباب، فقال مكرراً للأمر بالقراءة تنبيهاً على عظم شأنها وتأنيساً لهﷺ ومسكناً لروعه ومعلماً أن من جاءه الأمر من قِبله ليس كأربابهم "اقرأ" ولما كان قد قالﷺ عند هذا الأمر إخباراً بالواقع كما يقول لسان الحال لو لم ينطق بلسان المقال ما أنا بقارئ ، فكان التقدير: فربك الذي رباك فأحسن تربيتك وأدبك فأحسن تأديبك أمرك بالقراءة وهو قادر على جعلك قارئاً، عطف عليه قوله: "وربك" أي يكون التقدير: والحال أن الذي خصك بالإحسان الجم "الأكرم" أي الذي له الكمال الأعظم مطلقاً من جهة الذات ومن جهة الصفات ومن جهة الأفعال، فلا يلحقه نقص في شيء من الأشياء أصلاً لأن حقيقته البعيد عن اللوم الجامع لمساوئ الأخلاق، فهو الجامع لمعالي الأخلاق، وليس غيره يتصف بذلك، فهو يعطيك ما لا يدخل تحت الحصر[2]. فهذه الآيات الكريمة تبين مزيد كرم الله الأكرم ﷻ حيث تفضل على الإنسان بخلقه أولا، وتفضل عليه ثانيا بنقله من حالة مهينة إلى تشريفه بالعلم وإدراك حقائق الأشياء، وصيره إلى أشرف مراتب المخلوقات

(١) أضواء البيان ج ٩ص ١٦ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢٢ ص ١٥٩ .

ويذكر ذلك في هذا السياق القرآني الكريم وفى بداية نزول الوحي ليرتبط بقضية التوحيد الكبرى في حياة الإنسان، فهذا التحويل من أحسن المراتب إلى أشرفها يلفت نظر الإنسان إلى وجود المدبر والمقدر فيذعن لأمره ونهيه، كما أن في هذا تنبيها على أن العلم أشرف الصفات الإنسانية، وكأن الآيات الكريمة تقول لنا الإيجاد والإحياء والأقدار والرزق كرم ربوبيته ، أما الأكرم فهو الذي أعطاك العلم؛ لأن العلم هو النهاية فى الشرف. (١)

وكرر"اقْرَأْ" للتأكيد أو للمبالغة، أو الأول مطلق والثاني للتبليغ، أو في الصلاة وهو ما ذهب إليه البيضاوي ويقصد الصلاة الواردة بعد (٢)، أو لعله لما قيل له: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ" فقال: ما أنا بقارئ، فقيل له اقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الزائد في الكرم على كل كريم فإنه ﷻ ينعم بلا عوض ويحلم من غير تخوف، بل هو الكريم وحده على الحقيقة ، أو لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة وتكرار الأمر الإلهي يقوم مقام تكرار المقروء في تصييرها ملكة للنبيّ ﷺ فلهذا كرر الأمر بقوله:"اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ " (٣) .

وهذه الآية تدل على مزيد فضل الله وكرمه ولاسيما على أهل العلم طلابا وعلماء فقد أخرج الحاكم في مستدركه بسنده عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ "(٤). وقال أبو الليث بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ: منهومان لا

---

(١) تاريخ نزول القرآن ص ٧٦ .

(٢) حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، لشهاب الدين الخفاجي المصري (ت: ١٠٦٩هـ) ، ط: دار صادر – بيروت ج ٨ ص ٣٧٨ .

(٣) تفسير البغوي ط إحياء التراث ج٥ ص ٢٨١ ، تفسير البيضاوي ج٥ ص ٣٢٥ ، تفسير المراغي ج ٣٠ ص١٩٩ ، تفسير القاسمي ج٩ص٥٠٨ ، التفسير الوسيط د/ طنطاوي ج ١٥ ص ٤٥٤ .

(٤) وعلق عليه الذهبي في التلخيص: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَلَمْ أَجِدْ لَهُ عِلَّةً . المستدرك للحاكم كتاب العلم ح رقم ٣١٢ .

يشبعان، طالب العلم وطالب الدنيا، ولا يستويان أما طالب العلم ، فيزداد رضا الله وأما طالب الدنيا، فيزداد في الطغيان ثم قال: "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى".(١) وهنا جل شأنه كرر الأمر بالقراءة وعقبه بصفة الكرم ، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال:"الذى عَلَّمَ" الكتابة "بالقلم"(٢)، وقيل يحتمل أن يكون هذا حثا على القراءة، والمعنى اقرأ وربك الأكرم لأنه يجزي بكل حرف عشر حسنات" (٣).

أقول: إن التكرار هنا وقرْنه بصفة الكرم معناه أنه لابد ألا تتوقف عن القراءة فلكي يتحرر الفكر من أي قيد لا بد له من الاطلاع الواسع والقراءة المكثفة النافعة ؛ فبها يرقى فكره ويعلو، فلا ينجرف فكرياً ولا ينقاد تبعياً لأي من كان، ويصبح ملمّاً بأمور الحياة مدركاً لفقه الواقع، فالقراءة للعقل بمثابة الغذاء للجسد بل

---

(١) تفسير السمرقندي" بحر العلوم ج٣ ص ٥٩٨، ويقول الإمام العجلوني : رواه الطبراني في الكبير والقضاعي عن ابن مسعود رفعه، وهو عند البيهقي في المدخل عن ابن مسعود أنه قال: "منهومان لا يشبعان؛ طالب العلم وطالب دنيا، ولا يستويان؛ أما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، وأما صاحب العلم فيزداد من رضا الرحمن" ثم قرأ {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} وقوله "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [فاطر: ٢٨] " وقال: إنه موقوف ومنقطع، ثم ساقه عن أنس مرفوعًا بلفظ: "منهومان لا يشبعان؛ منهوم في العلم لا يشبع منه، ومنهوم في الدنيا لا يشبع منها؛ قال وروي عن كعب الأحبار من قوله، ورواه البزار من حديث ليث عن طاووس أو مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ الترجمة، قال: لا نعلمه يروى من وجه أحسن من هذا. ورواه العسكري عنه بلفظ: "منهومان لا يقضي واحد منهما همته؛ منهوم في طلب العلم، ومنهوم في طلب الدنيا". وأخرجه العسكري أيضًا عن أبي سعيد رفعه: "لن يشبع المؤمن من خير سمعه؛ حتى يكون منتهاه الجنة". ورواه أيضًا عن الحسن قال: "بلغني أن رسول الله ﷺ قال: يا أيها الناس، إنما هما منهومان، فمنهوم في العلم لا يشبع، ومنهوم في المال لا يشبع". وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة؛ وهي وإن كانت مفرداتها ضعيفة، فبمجموعها يتقوى الحديث. كشف الخفاء ت هنداوي ج٢ ص ٣٤٦، ٣٤٧ .

(٢) تفسير النسفي " مدارك التنزيل وحقائق التأويل" ج٣ ص ٦٦٣ ، ٦٦٤ .

(٣) تفسير الخازن " لباب التأويل في معاني التنزيل" ج٤ ص ٤٤٨.

وللروح ولاسيما إذا كانت بنية خالصة لله، فهو الأكرم، فهي إذاً من التعبد بمكان ، ولا يمكن لأحد أن يكون ذا فكر جيد دون القراءة، وأنك ما أكثرت من القراءة إلا وتولدت لديك الفِكَر في كل مجال.

ثم قال ﷻ: "وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ" على جهة التِأنيس، كأنه يقول: امض لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب ، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصرك ويظهرك"[1].

والْأَكْرَمُ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم ، فما لكرمه غاية ولا أمد"[2] . يقول الفخر الرازي:" ثُمَّ ذَكَرُوا فِي بَيَانِ أَكْرَمِيَّتِهِ ﷻ وُجُوهًا أَحَدُهَا: أَنَّهُ كَمْ مِنْ كَرِيمٍ يَحْلُمُ وَقْتَ الْجِنَايَةِ ، لَكِنَّهُ لَا يَبْقَى إِحْسَانُهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الْجِنَايَةِ، وَهُوَ ﷻ أَكْرَمُ لِأَنَّهُ يَزِيدُ بِإِحْسَانِهِ بَعْدَ الْجِنَايَةِ ، وَثَانِيهَا : إِنَّكَ كَرِيمٌ لَكِنَّ رَبَّكَ أَكْرَمُ وَكَيْفَ لَا وَكُلُّ كَرِيمٍ يَنَالُ بِكَرَمِهِ نَفْعًا إِمَّا مَدْحًا أَوْ ثَوَابًا أَوْ يَدْفَعُ ضَرَرًا، أَمَّا أَنَا فَالْأَكْرَمُ إِذْ لَا أَفْعَلُهُ إِلَّا لِمَحْضِ الْكَرَمِ، وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ الْأَكْرَمُ لِأَنَّ لَهُ الِابْتِدَاءَ فِي كُلِّ كَرَمٍ وَإِحْسَانٍ وَكَرَمُهُ غَيْرُ مَشُوبٍ بِالتَّقْصِيرِ وَرَابِعُهَا: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حَثًّا عَلَى الْقِرَاءَةِ أَيْ هَذَا الْأَكْرَمُ لِأَنَّهُ يُجَازِيكَ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرًا أَوْ حَثًّا عَلَى الْإِخْلَاصِ، أَيْ لَا تَقْرَأْ لِطَمَعٍ وَلَكِنْ لِأَجْلِي وَدَعْ عَلَيَّ أَمْرَكَ فَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ أَنْ لَا أُعْطِيَكَ مَا لَا يُخْطَرُ بِبَالِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى تَجَرَّدْ لِدَعْوَةِ الْخَلْقِ وَلَا تَخَفْ أَحَدًا فَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ أَنْ آمُرَكَ بِهَذَا التَّكْلِيفِ الشَّاقِّ ثُمَّ لَا أَنْصُرُكَ. [3]

---

(١) تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠٢، البحر المحيط ج١٠ ص ٥٠٧.

(٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص ٧٧٦ .

(٣) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٨ .

أما عن معنى الأكرم فهناك من فسره بمعنى الكريم مثل أبي الليث السمرقندي في تفسيره ، وكذا الخازن [١]، وفي أحد أقوال ابن الجوزي حيث قال : " وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم، كما جاء الأعَزُّ والأطول، بمعنى العزيز والطويل. [٢] وهناك من لم يرتض ذلك وقال أن هذا وصف خاص لله ﷻ وصف به نفسه ولم يأت للمفاضلة بين شيئين، إنما هو للمبالغة في الكرم يقول أبو حيان:" وَالْأَكْرَمُ صِفَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْكَرَمِ، إِذْ كَرَمُهُ يَزِيدُ عَلَى كُلِّ كَرَمٍ يُنْعِمُ بِالنِّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَى، وَيَحْلُمُ عَلَى الْجَانِي، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ السَّيِّئَةِ. وَلَيْسَ وَرَاءَ التَّكَرُّمِ بِإِفَادَةِ الْفَوَائِدِ الْعِلْمِيَّةِ تَكَرُّمٌ حَيْثُ قَالَ:"الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" فَدَلَّ عَلَى كَمَالِ كَرَمِهِ بِأَنَّهُ عَلَّمَ عِبَادَهُ مَا لَمْ يَعْلَمُوا.[٣] ويقول ابن عاشور:" وَوَصْفُ الْأَكْرَمُ مَصُوغٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ الِاتِّصَافِ بِالْكَرَمِ وَلَيْسَ مَصُوغًا لِلْمُفَاضَلَةِ فَهُوَ مَسْلُوبُ الْمُفَاضَلَةِ. وَالْكَرَمُ: التَّفَضُّلُ بِعَطَاءِ مَا يَنْفَعُ الْمُعْطَى، وَنِعَمُ اللَّهِ عَظِيمَةٌ لَا تُحْصَى ابْتِدَاءً مِنْ نِعْمَةِ الْإِيجَادِ، وَكَيْفِيَّةِ الْخَلْقِ، وَالْإِمْدَادِ. [٤] وتقول صاحبة التفسير البياني للقرآن الكريم بعد تناولها لأقوال المفسرين في معنى قوله "الأكرم": وانفردت آية العلق بصيغة "الْأَكْرَمُ" معرفة بأل، بما يفيد اختصاصه ﷻ بهذه الرتبة العليا على عموم إطلاقها دون تعلق بتأويل أكرميته ﷻ، معترضة على من قال بالمفاضلة، ثم قالت: ونلاحظ عليهم أن في كل ما تأولوه ، تقييداً لصيغة الأكرم، ينقلها إلى المفاضلة بين كريم وأكرم منه. والحق أن البيان القرآني حين قيد أفعل التفضيل في آية الحجرات بإضافتها إلى ضمير المخاطبين، جعل أكرميتهم محدودة بنطاق الناس الذين خاطبهم في الآية، واستأثر سبحانه بصيغة "الْأَكْرَم" على الإطلاق ونظيره الأعلى في آيتي: "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى"،"إِلَّا ابْتِغَاءَ

---

(١) تفسير السمرقندي ج٣ ص ٥٩٨ ، تفسير الخازن " لباب التأويل في معاني التنزيل" ج٤ ص ٤٤٨.

(٢) زاد المسير في علم التفسير ج٤ ص ٤٦٦ .

(٣) البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٧.

(٤) التحرير والتنوير ج٣٠ص٤٣٩ ، ٤٤٠ .

وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى". لافتاً إلى حس العربية الأصيل حين تأتي بأفعل التفضيل معرفاً بأل، وغير مميز، فتفيد من العموم والإطلاق ما لا تفيده الصيغة نفسها من المفاضلة مقيدة بمضاف إليه لا تتجاوزه أو مميزة بوجه تفاضل لا تعدوه. (١)

ويبين الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى مدى ملائمة ذكر هذه الصفة على وجه التحديد للسياق فيقول :" وَالْأَكْرَمُ قَالُوا: هُوَ الَّذِي يُعْطِي بِدُونِ مُقَابِلٍ، وَلَا انْتِظَارِ مُقَابِلٍ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ مَجِيءَ الْوَصْفِ هُنَا بِالْأَكْرَمِ بَدَلًا مِنْ أَيِّ صِفَةٍ أُخْرَى، لِمَا فِي هَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ تَلَاؤُمٍ لِلسِّيَاقِ، مَا لَا يُنَاسِبُ مَكَانَهَا غَيْرُهَا لِعِظَمِ الْعَطَاءِ وَجَزِيلِ الْمِنَّةِ . فَأَوَّلًا: رَحْمَةُ الْخَلِيقَةِ بِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ الَّتِي رَبَطَتِ الْعِبَادَ بِرَبِّهِمْ. وَكَفَى. وَثَانِيًا: نِعْمَةُ الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ، فَهُمَا نِعْمَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ: الْإِيجَادُ مِنَ الْعَدَمِ بِالْخَلْقِ، وَالْإِيجَادُ الثَّانِي مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَلَا يَكُونُ هَذَا كُلُّهُ إِلَّا مِنَ الرَّبِّ الْأَكْرَمِ سُبْحَانَهُ. (٢)

ومما يبين مزيد عطاء الله وحصره صفة الكرم على نفسه مجيئها محلاة ب"أل" يقول ابن تيمية رحمه الله ﷻ:" وَهُوَ ﷻ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْأَكْرَمُ بِصِيغَةِ التَّفْضِيلِ وَالتَّعْرِيفِ لَهَا. فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْأَكْرَمُ وَحْدَهُ بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ وَرَبُّك أَكْرَمُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ وَقَوْلُهُ "الْأَكْرَمُ" يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ. وَلَمْ يَقُلْ الْأَكْرَمُ مِنْ كَذَا بَلْ أَطْلَقَ الِاسْمَ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ الْأَكْرَمُ مُطْلَقًا غَيْرَ مُقَيَّدٍ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِغَايَةِ الْكَرَمِ الَّذِي لَا شَيْءَ فَوْقَهُ وَلَا نَقْصَ فِيهِ. (٣)

وجملة"وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ" جملة خبرية ، تقع موقع الحال من فاعل "اقرأ" وهو النبيﷺ، أي اقرأ مستيقنا أن ربك هو الأكرم، أي ذو الفضل العظيم، والكرم الذي لا حدود له، وفى تعريف طرفي الجملة الخبرية، ما يفيد القصر، أي قصر صفة الكرم على الله وحده. (٤)

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ج٢ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) أضواء البيان ج ٩ ص ١٦ .

(٣) مجموع الفتاوى ج١٦ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦

(٤) التفسير القرآني للقرآن ج ١٦ ص ١٦٢٥ .

يقول القاضي/حسين بن محمد المهدي: في ثمرة معرفة اسم الله الكريم الأكرم: إذا عرف المكلف أن ربه كريم ، وأنه أكرم الأكرمين، وأنه يعطي بغير حساب، ويبتدئ بالنعمة، ويعفو عن السيئات، وأنه واهب الإنسان كل خير، وأنه المتفضل عليه بجميع النعم، وجب عليه أن يؤمن أن الله ﷻ أكرم الأكرمين لا يوازيه كرم ولا يعادل فيه نظير، وان يتخلق بخلق كريم في جميع أقواله وأفعاله التي يحب الله أن يكون الإنسان فيها كريماً، وأن يتحلى بالكرم والجود والسماحة. فالواجب على المؤمن أن يبتعد عن اللؤم والدناءة، فالمؤمن الحق يطمع في إيثار جود الله وكرمه، فيجود بكل ما يقدر عليه من مال وجاه وعلم .[1]

"الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"

ها هو الإسلام جاء فحارب فيما حارب أمية العرب، وعمل على محوها، وطفق يرفع من شأن الكتابة ويعلي من مقامها، وإن كنت في شك فهذه أوائل آيات نزلن من القرآن الكريم يشيد الحق فيها بالقلم وما يعلم الله عباده بوساطة القلم وكذا هذه سورة "ن" وهي ثان ما نزل يحلف العلي الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون إذ يقول: "نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ". وهذا من أروع ألوان التنبيه إلى جلال الخط والكتابة ومزاياهما.[2] وكذلك تنبيه على نِعَم الخالق على البشرية ؛ فالعلاقة بين المعنى السابق في خلق الإنسان من علق بفضل ربه وكرمه وبين الذي علم بالقلم، انتقال بالإنسان كذلك من الوقوف على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة إلى الوقوف على الأحكام التي لا يستقيم الخلق إلا بها، والتي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالتعلم والاستماع إلى ما يأتي به رسول الله ﷺ من عند ربه، فالحالة الأولى معرفة الربوبية. والثانية: الوقوف على النبوة وتقديم الأولى على الثانية تأهيل للإنسان للإقبال على النبوة وما يتبعها من تكليف إقبالا صحيحا مستجيبا ﴿اسْتَجِيبُوا

(١) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال ج١ ص ٦١٨ .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ج١ ص ٣٦٣ .

لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾[1] [2] فَقد وصَفَ ﷻ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَثَانِيًا بِأَنَّهُ عَلمَه بِالْقَلَمِ، وَلَا مُنَاسَبَةَ فِي الظَّاهِرِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، لَكِنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ أَوَّلَ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ كَوْنُهُ عَلَقَةً وَهِيَ أَخَسُّ الْأَشْيَاءِ وَآخِرُ أَمْرِهِ هُوَ صَيْرُورَتُهُ عَالِمًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ أَشْرَفُ مَرَاتِبِ الْمَخْلُوقَاتِ فَكَأَنَّهُ ﷻ يَقُولُ: انْتَقَلْتَ مِنْ أَخَسِّ الْمَرَاتِبِ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُدَبِّرٍ مُقَدِّرٍ يَنْقُلُكَ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ الْخَسِيسَةِ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الشَّرِيفَةِ، ثُمَّ فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، كَأَنَّهُ ﷻ يَقُولُ: الْإِيجَادُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِقْدَارُ وَالرِّزْقُ كَرَمٌ وَرُبُوبِيَّةٌ، أَمَّا الْأَكْرَمُ هُوَ الَّذِي أَعْطَاكَ الْعِلْمَ لِأَنَّ الْعِلْمَ هُوَ النِّهَايَةُ فِي الشَّرَفِ." [3]

فمن صفات"الأكرم" أي الذي له الكمال الأعظم مطلقاً أنه يعطيك ما لا يدخل تحت الحصر، ومن ذلك أنه يفيض على أمتك الأمية من العلم والحظ ما لم يفضه على أمة قبلها على قصر أعمارهم، فقال مشيراً إلى العلم والتعليم، مشعراً بوصفه ﷻ بالمنح بالعلم إلى ترتيب الحكم بالأكرمية على هذا الوصف الناقل للإنسان من الحال العقلي السافل إلى هذا الحال العالي الكامل "الذي علّم" أي بعد الحلم عن معاجلتهم بالعذاب والعقاب جوداً منه من غير مانع من خوف عاقبة ولا رجاء منفعة "بالقلم" أي الكتابة به. [4]

وكأن هذه الآيات تستوعب جميع طرق التعليم والتعلُّم، يقول ابن كثير رحمه الله ﷻ:" وَالْعِلْمُ تَارَةً يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي اللِّسَانِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي الْكِتَابَةِ بِالْبَنَانِ، ذِهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ، وَالرَّسْمِيُّ يَسْتَلْزِمُهُمَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَلِهَذَا قَالَ: "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ". [5]

---

(١) الأنفال من الآية : [٢٤]

(٢) تاريخ نزول القرآن ص ٧٦

(٣) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٨.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج٢٢ ص ١٥٩ ، ١٦٠بتصرف .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٤٣٧ .

وتعليم الرب للإنسان "بِالْقَلَمِ"؛ لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا في حياة الإنسان، ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية. ولكن الله ﷻ كان يعلم قيمة القلم، فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية. في أول سورة من سور القرآن الكريم، هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتبا بالقلم، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يقول هذا القرآن . لولا أنه الوحي، ولولا أنها الرسالة!.[١]

ومما يزيد من شأن الكتابة ما جاء في الأثر عَنْ ثُمَامَةَ قَالَ: قَالَ لَنَا أَنَسٌ: قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ .[٢]

فمن كرمه ﷻ أنه جعلَ من القلم الذي هو قطعة جامدة من الخطب، أو الخشب، أداة للعلم والمعرفة ، ففتح به علىَ الإنسان أبواب العلوم والمعارف، وجعل من ثماره هذه الكتب التي حفظت ثمار العقول، فكانت ميراثا للعلماء، يرثها الخلف عن السلف، وينميها ويثمرها العلماء جيلا بعد جيل، وبهذا تعلم الإنسان ما لم يكن يعلم ، وبعلمه هذا المستفاد من سلفه، فتح أبوابا جديدة من العلم يتلقاها عنه من بعده ، ويفعل فعله، بما يفتح من أبواب جديدة للعلم، وهكذا تتسع معارف الإنسان، ويزداد علمه على مدى الأجيال، وهذا يعنى أن الإنسانية متطورة، وسائرة نحو الأمام، بما تتوارث أجيالها من ثمار العقول، التي يتركها السلف للخلف، جيلا بعد جيل، وهكذا يذهب الناس كأجساد، وتبقى غراس عقولهم، وثمار أفكارهم .[٣] فلعمرك لولا القلم ما حفظت العلوم، ولا أحصيت الجيوش، ولضاعت الديانات، ولا عرف الأواخر معارف الأوائل، وعلومهم ومخترعاتهم وفنونهم، ولما سجّل تاريخ

---

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٩٣٨.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج١ ص ١٥٢، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) ، ت: حسام الدين القدسي ، ط: مكتبة القدسي، القاهرة ، ط: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م ، وقال الهيثمي :رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢٥ .

السابقين، المسيئين منهم والمحسنين، ولا كان علمهم نبراسا يهتدى به الخلف، ويبنى عليه ما به ترقى الأمم، وتتقدم المخترعات. كما أن فيها دليلا على أن الله خلق الإنسان الحي الناطق مما لا حياة فيه ولا نطق، ولا شكل ولا صورة، وعلمه أفضل العلوم وهى الكتابة، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئا، فما أعجب غفلتك أيها الإنسان!. [١] وقد أخرج ابن جرير رحمه الله تعالى بسنده عن قتادة "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" قرأ حتى بلغ "عَلَّمَ بِالْقَلَمِ" قال: القلم: نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم ولم يصلح عيش." [٢] وذكر ذلك الخازن وزاد عليه:" فسأل بعضهم عن الكلام، فقال ربح لا يبقى قيل له فما قيده قال الكتابة لأن القلم ينوب عن اللّسان ولا ينوب اللّسان عنه"[٣]، يقول أهل التفسير:" وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم، حيث قال: "الأكرم الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ" فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المترلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط ، لكفى به."[٤]، ويقول ابن عطية الأندلسي :" ثم عدد ﷻ نعمة الكتاب بِالْقَلَمِ على الناس وهي موضع عبرة وأعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف" [٥]،

لكن هناك من الأسئلة ما يطرح نفسه من خلال هذا الآية :

---

(١) تفسير المراغي ج٣٠ ص٢٠٠ .

(٢) تفسير الطبري ت شاكر ج٢٤ ص ٥١٩ .

(٣) تفسير الخازن ج ٤ ص ٤٤٨ .

(٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص ٧٧٦ ، تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١٢٠ ، تفسير النسفي ج٣ ص٦٦٣ ، البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٧ .

(٥) تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠٢.

قال الحق ﷻ"الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ " قدم التعليم على الخلق وقال ﷻ هنا "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" ، فقدم الخلق على التعليم، فما الحكمة؟ جوابه: أن سورة "اقرأ" أول ما نزل من القرآن ولم يكن القرآن معهودا للنبيﷺ ولا لغيره، ولذلك قال النبيﷺ لجبريل لما نزل بها: لست بقارئ. وسورة الرحمن: نزلت بعد معرفة القرآن، وشهرته عندهم ، فكان الابتداء بما يعرفه من تقديم الخلق في سورة "اقرأ" أنسب من القرآن الذي لم يعهده وكان الابتداء بتعليم القرآن الذي نعرفه، والمنة به في سورة الرحمن أنسب لسياق ما وردت به السورة من عظيم المنة على العباد.(١)

وإذا كان أمر الكتابة بهذا الشأن لِمَ لَمْ يتعلم النبي ﷺ ؟

يقول الشنقيطي:" إِذَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ شَأْنَ الْقَلَمِ وَعِظَمَ أَمْرِهِ، وَعَظِيمَ الْمِنَّةِ بِهِ عَلَى الْأُمَّةِ، بَلَى وَعَلَى الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. وَقَدِ افْتُتِحَتِ الرِّسَالَةُ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، فَلِمَاذَا لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّﷺ الَّذِي أَعْلَنَ عَنْ هَذَا الْفَضْلِ كُلِّهِ لِلْقَلَمِ! لَمْ يَكُنْ هُوَ كَاتِبًا بِهِ، وَلَا مِنْ أَهْلِهِ بَلْ هُوَ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾(٢). وَالْجَوَابُ:أَنَّا أَشَرْنَا أَوَّلًا إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْهُ، وَهِيَ أَنَّهُ أَكْمَلُ لِلْمُعْجِزَةِ، حَيْثُ أَصْبَحَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ مُعَلِّمًا كَمَا قَالَ ﷻ:﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾(٣). وَثَانِيًا: لَمْ يَكُنْ هَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ مُغْفِلًا شَأْنَ الْقَلَمِ، بَلْ عَنَى بِهِ كُلَّ الْعِنَايَةِ، وَأَوَّلُهَا وَأَعْظَمُهَا أَنَّهُ اتَّخَذَ كُتَّابًا لِلْوَحْيِ يَكْتُبُونَ مَا يُوحَى إِلَيْهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ يَحْفَظُهُ وَيَضْبُطُهُ، وَتَعَهَّدَ اللَّهُ لَهُ بِحِفْظِهِ وَبِضَبْطِهِ فِي قَوْلِهِ ﷻ:﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾(٤)، حَتَّى الَّذِي يَنْسَاهُ يُعَوِّضُهُ اللَّهُ بِخَيْرٍ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ

---

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ج١ ص ٣٤٦ .

(٢) الجمعة من الآية :[٢] .

(٣) آل عمران من الآية :[١٦٤] .

(٤) الأعلى الآية [٦، ٧].

ﷻ:﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[١]، وَوَعَدَ اللَّهُ ﷻ بِحِفْظِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢]. وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ يَأْمُرُ بِكِتَابَةِ هَذَا الْمَحْفُوظِ وَكَانَ لَهُ عِدَّةُ كُتَّاب، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الْعِنَايَةِ بِالْقَلَمِ. وَذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنَ الْكُتَّابِ الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ، وَمَعَهُمْ تَتِمَّةُ سَبْعَةَ عَشَرَ شَخْصًا، ثُمَّ لَمْ يَقْتَصِرْ ﷺ فِي عِنَايَتِهِ بِالْقَلَمِ وَالتَّعْلِيمِ بِهِ عِنْدَ كِتَابَةِ الْوَحْيِ، بَلْ جَعَلَ التَّعْلِيمَ بِهِ أَعَمَّ، كَمَا جَاءَ خَبَرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ الْكِتَابَةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ كَاتِبًا مُحْسِنًا" ذَكَرَهُ صَاحِبُ التَّرْتِيبَاتِ الْإِدَارِيَّةِ عَنِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ فِي الِاسْتِيعَابِ. وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:" عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْكِتَابَةَ وَالْقُرْآنَ". وَقَدْ كَانَتْ دَعْوَتُهُ ﷺ الْمُلُوكَ إِلَى الْإِسْلَامِ بِالْكِتَابَةِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ. وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ أُسَارَى بَدْرٍ، حَيْثُ كَانَ يُفَادِي بِالْمَالِ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى الْفِدَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقْدِرْ وَكَانَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ كَانَتْ مُفَادَاتُهُ أَنْ يُعَلِّمَ عَشَرَةً مِنَ الْغِلْمَانِ الْكِتَابَةَ، فَكَثُرَتِ الْكِتَابَةُ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ ذَلِكَ. وَكَانَ مِمَّنْ تَعَلَّمَ: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَغَيْرُهُ. فَإِذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ وَهُمْ فِي بَادِئِ أَمْرِهِمْ وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى الْمَالِ وَالسِّلَاحِ، بَلْ وَاسْتِرْقَاقِ الْأُسَارَى، فَيُقَدِّمُونَ تَعْلِيمَ الْغِلْمَانِ الْكِتَابَةَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، لَيَدُلُّ عَلَى أَمْرَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: شِدَّةُ وَزِيَادَةُ الْعِنَايَةِ بِالتَّعْلِيمِ. وَثَانِيهِمَا: جَوَازُ تَعْلِيمِ الْكَافِرِ لِلْمُسْلِمِ مَا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالدِّينِ ، كَمَا يُوجَدُ الْآنَ مِنَ الْأُمُورِ الصِّنَاعِيَّةِ، فِي الْهَنْدَسَةِ، وَالطِّبِّ، وَالزِّرَاعَةِ، وَالْقِتَالِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَدْ كَثُرَ الْمُتَعَلِّمُونَ بِسَبَبِ ذَلِكَ، حَتَّى كَانَ عَدَدُ كُتَّابِ الْوَحْيِ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ رَجُلًا، ثُمَّ كَانَ انْتِشَارُ الْكِتَابَةِ مَعَ الْإِسْلَامِ .[٣]

ويربط ابن عاشور رحمه الله ﷻ بين الآيات وبين حال المصطفى ﷺ حينئذ، وكذلك إلى استمرار حال أميته حتى بعد نزول الوحي فيقول:" وَتَخْصِيصُ هَذِهِ

---

(١) البقرة من الآية [١٠٦].

(٢) الحجر من الآية [٩].

(٣) أضواء البيان ج ٩ ص ١٩ ، ٢٠ .

الصِّلَةِ بِالذِّكْرِ وَجَعْلِهَا مُعْتَرِضَةً بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ لِلْإِيمَاءِ إِلَى إِزَالَةِ مَا خَطَرَ بِبَالِ النبيﷺ مِنْ تَعَذُّرِ الْقِرَاءَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْكِتَابَةَ فَكَيْفَ الْقِرَاءَةُ إِذْ قَالَ لِلْمَلَكِ:"مَا أَنَا بِقَارِئٍ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: "مَا أَنَا بِقَارِئٍ" اعْتِذَارٌ عَنْ تَعَذُّرِ امْتِثَالِ أَمْرِهِ بِقَوْلِهِ: اقْرَأْ فَالْمَعْنَى أَنَّ الَّذِي عَلَّمَ النَّاسَ الْكِتَابَةَ بِالْقَلَمِ وَالْقِرَاءَةَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعَلِّمَكَ الْقِرَاءَةَ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ الْكِتَابَةَ".[1] كما قال أيضا:"وَفِي الِاقْتِصَارِ عَلَى أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْقِرَاءَةِ ثُمَّ إِخْبَارِهِ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْقَلَمِ إِيمَاءٌ إِلَى اسْتِمْرَارِ صِفَةِ الْأُمِّيَّةِ للنبي ﷺ لِأَنَّهَا وَصْفٌ مُكَمِّلٌ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ قَالَ ﷻ: ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2]. [3]

"عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"

وهنا يقرر جانب الربوبية ويوضح كيف كانت الأكرمية كما يقول البيضاوي:"عَلَّمَ الْإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ بخلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات فيعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً، وقد عدد ﷻ مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لما أنعم عليه، من أن نقله من أخس المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته، وأشار أولاً إلى ما يدل على معرفته عقلاً ثم نبه على ما يدل عليها سمعا. [4]

وحقا فقد قال ﷻ"وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً" .

فالجهلُ موتٌ للضميرِ وذَبْحٌ للحياةِ، ومَحْقٌ للعمرِ "إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"، والعلمُ نورٌ البصيرة، وحياةٌ للروحِ، ووَقُودٌ للطبعِ "أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا" إنَّ السرورَ والانشراحَ يأتي معَ العلم، لأنّ العلمَ عثورٌ على الغامضِ، وحصولٌ على الضَّالَّة، واكتشافٌ للمستورِ، والنفسُ مُولَعةٌ بمعرفةِ الجديدِ والاطلاعِ على

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص٤٤٠ .

(٢) العنكبوت الآية : [٤٨].

(٣) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٤) تفسير البيضاوي ج٥ ص ٣٢٥ .

المُسْتَطْرَفِ. أمَّا الجهلُ فهوَ مَلَلٌ وحُزْنٌ، لأنه حياةٌ لا جديدَ فيها ولا طريفَ، ولا مستعذَباً، أمس كاليومِ، واليومَ كالغدِ. ولا يفخرْ أحدٌ بمالِهِ أو بجاهِهِ ، وهو جاهلٌ صفْرٌ من المعرفةِ، فإنَّ حياتَه ليستْ تامَّةً وعمرُه ليس كاملاً:"أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى" .(١)

والعلم في نظر الإسلام : هو كل ما يمكن ويطلب أن يعرف ويعلم ، مهما يكن من موضوع هذه المعرفة ، ومهما تكن وسائلها ، وإن كانت في مقدمة هذا الموضوع ما يعرف بربه، عقيدة ونظاما ويقرب إليه، باعتبار أن ذلك هو مفتاح الحقيقة الهادفة للإنسان، ومفتاح الانطلاق في كل جانب من جوانبها على هدى وبصيرة ، فحين مدح الله العلماء ورفع درجاتهم لم يخصص العلماء بعلوم الدين ، بل أطلق وعمم ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢)، وحين قارن بين العلماء والجهّال أطلق وعمم كذلك فقال :﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣) ، وحين حدد الذين يخشونه ويعرفونه قال:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٤) (٥). وهذه الآية تثبت أيضا أن الدين والعلم في نظر الإسلام لم يول كل منهما ظهره للآخر ، ويتخذ طريقا معاكسا بل كان الأول عندهم باعثا من البواعث الرئيسية للثاني .

يقول البقاعي :" ولما نبه بذلك على ما في الكتابة من المنافع التي لا يحيط بها غيره ﷻ، لأنها انبنت عليها استقامة أمور الدنيا والدين في الدنيا والآخرة، وهي كافية في الدلالة على دقيق حكمته ﷻ ولطيف تدبيره، زاد ذلك عظمة على وجه يعم غيره فقال:"علّم" أي العلم الضروري والنظري "الإنسان" أي الذي من شأنه

---

(١) لا تحزن ، لعائض بن عبد الله القرني، الناشر: مكتبة العبيكان ص ٨٩ ، ٩٠ بتصرف .

(٢) المجادلة من الآية : [١١] .

(٣) الزمر من الآية : [٩] .

(٤) فاطر من الآية: [٢٨] .

(٥) علم التفسير كيف نشأ وتطور حتى انتهى إلى عصرنا الحاضر ص٧ ، د/ عبد المنعم النمر ، عضو مجمع البحوث الإسلامية ، ط دار الكتب الإسلامية ، ط أولى ١٤٠٥ – ١٩٨٥ .

الأنس بما هو فيه لا ينتقل إلى غيره بل ينساه إن لم يلهمه ربه إياه "مـا لم يعلـم" أي بلطفه وحكمته لينتظم به حاله في دينه من الكتاب والسنة ودنياه مـن المعـاملات والصنائع، فيفيض عليه من علمه اللدني الذي لا سبب له ظاهر ما يعرف به ترتيـب المقدمات بالحدود والوسطى، فيعلم النتائج، وما يعرف به الحدسيات، وذلـك بعـد خلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات، ولو كان ذلك بالأسباب فقط لتساوى الناس في مدة التعليم وفي أصل المعلوم كما تساووا في مدة الحمل وأصل الإنـسانية، وقد ذكر ﷻ مبدأ الإنسان ومنتهاه بنقله من أخس الحـالات إلى أعلاهـا تقريـراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته، قال الملوي: ولو كان شيء من العطاء والنعم أشرف مـن العلم لذكره عقب صفة الأكرمية. وفي ذلك إشارة إلى مزيد كرم العلماء بـالتعليم، وفي الآية الإشارة إلى مطالعة عالمي الخلق والأمر، قـال الـرازي: وفي كـل مـن العالمين خصوص وعموم. فالمعنى أنه يعلمك أيها النبي الكريم وإن كنت أمياً لا تعلـم الآن شيئاً كما علم بالقلم من لم يكن يعلم، فتكون أنت بما أشـارت إليـه صـفة الأكرمية على ما أنت فيه من الأمية أعلم من أهل الأقلام وأعلى مـن كـل مقـام سام.[1]

من الذي عُلِّم أو سيعَلم بالقلم ؟ أو من المقصود بالتعليم هنا ؟ مـن هـذا الإنسان ؟

قيل المراد: علم آدم عليه السلام أسماء كل شيء، حَسَبَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُـرْآنُ فِـي قَوْلِهِ ﷻ: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها". فَلَمْ يَبْقَ شي إِلَّا وَعَلَّمَ سُبْحَانَهُ آدَمَ اسْمَهُ بِكُلِّ لُغَةٍ، وَذَكَرَهُ آدَمُ لِلْمَلَائِكَةِ كَمَا عُلِّمَهُ. وَبِذَلِكَ ظَهَرَ فَضْلُهُ، وَتَبَيَّنَ قَدْرُهُ، وَثَبَتَتْ نُبُوَّتُهُ، وَقَامَتْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَحُجَّتُهُ، وَامْتَثَلَتِ الْمَلَائِكَةُ الْأَمْرَ لِمَا رَأَتْ مِنْ شَرَفِ الْحَالِ، وَرَأَتْ مِنْ جَلَالِ الْقُدْرَةِ، وَسَمِعَتْ مِنْ عَظِيمِ الْأَمْرِ. ثُمَّ تَوَارَثَتْ ذَلِكَ ذُرِّيَّتُـهُ خَلَفًا بَعْدَ سَلَفٍ، وَتَنَاقَلُوهُ قَوْمًا عَنْ قَوْمٍ، ويقال عَلَّمَ الْإِنْسانَ يعني محمدا ﷺ ما لَـمْ

(١) نظم الدرر ج ٢٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

يَعْلَمْ يعني القرآن كقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾[١] ، وعلى هـذا فالمراد بعَلَّمَكَ الْمُسْتَقْبَلُ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ. ويقال: علم الإنسان ما لم يعلم، يعني: علم بني آدم ما لم يعلموا كقوله :﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهـاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[٢]، فعلمه مِنْ أَنْوَاعِ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، ورجح ابن عطية الأخير بقوله:" وقيل: اسم الجنس وهو الأظهر، وعدد نعمته اكتساب المعارف بعد جهله بها ."[٣]

وبعد هذه الأقوال، ووجْهتُها، وما ذهبت إليه مـن أنـه إمـا أن يكـون المصطفىﷺ أو أبو الأنبياء آدم عليه السلام، أو هو عام فإني أرجح القول الأخير بأن الأمر عام ففضل الله على البشرية واسع وواضح، وخاصة أنّا كل يوم نرى جديدا، ونادرا، مما يكاد يُذهب العقل، ولا تستطيع أمامه إلا أن تقول سبحان الله ، والحمد لله ، وهو جانب من شكر الأكرم ﷻ.

العلم منة الله على البشرية :

إن هذه الآية تبرز مصدر التعليم، إن مصدره هو الله، منه يستمد الإنسان كل ما علم وكل ما يعلم، وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود، ومن أسرار هذه الحياة، ومن أسرار نفسه، فهو من هناك. من ذلك المصدر الواحد، الذي ليس هناك سواه. وبهذا المقطع الواحد الذي نزل في اللحظة الأولى من اتصال الرسولﷺ بالملأ الأعلى، بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة، كل أمر، كل حركـة، كل خطوة، كل عمل، باسم الله، وعلى اسم الله، باسم الله تبدأ، وباسم الله تـسير، وإلى الله تتجه، وإليه تصير، والله هو الذي خلق، وهو الذي علم، فمنه البدء والنشأة، ومنه التعليم والمعرفة، والإنسان يتعلم ما يتعلم، ويعلم ما يعلم، فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي "عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ"، وهذه الحقيقة القرآنية الأولى، التي

---

(١) الشورى من الآية :[٥٢]

(٢) النحل من الآية:[٧٨]

(٣) تفسير السمرقندي ج٣ ص ٥٩٨. تفسير البغوي ،ط:إحياء التراث ج٥ ص ٢٨١ ، تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠٢، تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١٢٢.

تلقاها قلب رسول الله ﷺ في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره ، وتصرف لسانه، وتصرف عمله واتجاهه، بعد ذلك طوال حياته. بوصفها قاعدة الإيمان الأولى.(١)

قد ذكرت سابقا استيعاب الآية إلى جملة من طرق التعليم لكن هنا هل التعليم بالقلم فقط أم يمكن أن يكون بوسائل أخرى ؟

يقول الرازي:"عَلَّمَ الْإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ عَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ وَعَلَّمَهُ أَيْضًا غَيْرَ ذَلِكَ وَلَمْ يَذْكُرْ وَاوَ النَّسَقِ، وَقَدْ يَجْرِي مِثْلُ هَذَا فِي الْكَلَامِ تَقُولُ: أَكْرَمْتُكَ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ مَلَّكْتُكَ الْأَمْوَالَ وَلَّيْتُكَ الْوِلَايَاتِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ اللَّفْظَيْنِ وَاحِدًا وَيَكُونُ الْمَعْنَى: عَلَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْقَلَمِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: "عَلَّمَ الْإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ "بَيَانًا لقوله:عَلَّمَ بِالْقَلَمِ.(٢) يقول ابن عاشور:"وَجُمْلَةُ: "عَلَّمَ الْإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" خَبَرٌ عَنْ قَوْلِهِ: "وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ" وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ.(٣)، كما قال أيضا: وقوله"مَا لَمْ يَعْلَمْ "أَنَّ الْعِلْمَ مَسْبُوقٌ بِالْجَهْلِ فَكُلُّ عِلْمٍ يَحْصُلُ فَهُوَ عِلْمُ مَا لَمْ يَكُنْ يُعْلَمُ مِنْ قَبْلُ، أَيْ فَلَا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ أَنْ تَصِيرَ عَالِمًا بِالْقُرْآنِ وَالشَّرِيعَةِ أَنَّكَ لَا تَعْرِفُ قِرَاءَةَ مَا يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ.(٤)

وبعد ، فقَدْ جَمَعَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ أُصُولَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ فَوَصْفُ الرَّبِّ يَتَضَمَّنُ الْوُجُودَ وَالْوَحْدَانِيَّةَ، وَوَصْفُ الَّذِي خَلَقَ وَوَصْفُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ يَقْتَضِيَانِ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ الْقَرِيبِ عَلَى ثُبُوتِ مَا أُشِيرَ إِلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْمَوْصُولِيَّةُ مِنَ الْإِيمَاءِ إِلَى وَجْهِ بِنَاءِ الْخَبَرِ الَّذِي يُذْكَرُ مَعَهَا. وَوَصْفُ الْأَكْرَمِ يَتَضَمَّنُ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالتَّنْزِيهَ عَنِ النَّقَائِصِ.(٥)

---

(١) في ظلال القرآن ج ٦ص٣٩٣٨.

(٢) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢١٩.

(٣) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص٤٤١ .

(٤) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٤١ .

(٥) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص٤٤٠ .

هذه هي الآيات الأولى التي عطرت الدنيا هي دعوة القرآن للعلم ، هـذه الدعوة التي فتحت العقول قبل البلاد ، فنمت هذه الدعوة فأحيت أمة من أجداثها، وإذ بهذه الأمة الأمية والتي منَّ الله عليها بالهداية ، يصبح كل بيـت مـن بيوتهـا ، ومسجد من مساجدها موئلاً للعلم ، فقد بنى القرآن بدعوته المفتوحة للعلم حضارة سعدت بها الإنسانية . إن أول ما نزل من وحي ربنا من فضله وكرمه ومنتـه علـى العالمين، رأينا كيف اجتمع فيه من المبادئ ما يمكن أن نقول: إنها المفاتيح لهذه الأمـة لتبدأ مكانتها، ولتنقل إلى الرشد والهدى، إن هذه الآيات الكريمات ذكرت النـاس بربهم ليستجيبوا، وليمسكوا بمفتاح فلاحهم، وليقرءوا ما أنزل إليهم من ربهم، ومـا ينفعهم في حياتهم، وليكتبوا ما تعلموه حتى يفيد منه أبناؤهم، وحتى يتمكنـوا مـن تبادل معلوماتهم. بهذا أمرهم من خلقهم من علق، ومن نقلـهم إلى هـذا الـشرف العلمي، ومن أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمـون شـيئا، ومـنحهم العيـون التي يقرءون بها، والآذان التي يسمعون بها، والشفاه التي يتكلمـون بهـا، والبيـان الذي ينطقون به، والأيدي التي يكتبون بها، فإذا اسـتجابوا مـنحهم المزيـد مـن علمه. إنها ربطت المخلوقين بربهم، فبدأت بأمر "اقرأ" أمر ممتزج ببيان مـا يتيـسر تنفيذه، وما يرشد استعماله "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّـكَ "وتـلا ذلـك الإخبـار والتـذكر والنظر المتدبر، فأخبرت الآيات عـن أن الله ﷻ خلـق ، وخلـق الإنـسان مـن علق؛ ليتأمل السامع والقارئ ذلك وتكون هذه من الأسس والقواعد الـتي تفـصل بعد ذلك في كتاب الله ﷻ؛ لتشتمل على الأمر والنهي فيما يسمى بالأحكام المتعلقة فيما بين العباد وربهم، وفيما بين العباد وبعضهم، وتشتمل على العقيدة الـتي هـي أساس الأحكام وغيرها، فتربط الناس بربهم سـبحانه بتوحيـد الربوبيـة وتوحيـد الألوهية، وتشتمل كذلك على ما تصحب هذا التعلم من معرفة شاملة لما يتحلى بـه من خلق كريم، وما يعرف من أخبار سبقت أو حوادث تجرى، كما تدعو إلى التأمل والتدبر فيما يكون فى حياة الإنسان وخلقه، هذه هي البدايات المباركـة في آيـات الذكر الحكيم .[1]

---

(١) إعجاز القرآن الكريم د/ فضل حسن عباس، سناء فضل حسن عباس صـ٢٤٦ بتصرف ط دار الفرقان، ط الرابعة١٤٢٢ -٢٠٠١، تاريخ نزول القرآن ص٧٧ ، ٧٨ بتصرف .

ثم يأتي الجزء الثاني من السورة المباركة بعد فترة الوحي ، ونجده مترابطا تمام الترابط مع الجزء الأول " كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى(٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩)"

هذا هو الجزء الثاني من هذه السورة الكريمة "عنوان الوحي" ورغم ما ورد إلينا من عدم نزول هذه الآيات بعد الخمس الأولى مباشرة إلا أنها مرتبطة بها ارتباطا وثيقا لا تنفك عنها، ولا عجب فكما ذكرنا سابقا أن ترتيب الآيات بالإجماع هو أمر توقيفي لا اجتهاد فيه، وهذا من إعجاز القرآن الكريم. أما عن الفترة التي كانت بين هذه الآيات وسابقتها، يقول ابن عاشور:"وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى آخَرِ السُّورَةِ نَزَلَتْ عَقِبَ الْخَمْسِ الْآيَاتِ الْمَاضِيَةِ وَجَعَلُوا مِمَّا يُنَاكِدُهُ ذِكْرُ الصَّلَاةِ فِيهَا. وَفِيمَا رُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا مِنْ قَوْلِ أَبِي جَهْلٍ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ فُرِضَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَكَانَ الْإِسْرَاءُ بَعْدَ الْبَعْثَةِ بِسِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ الْآيَاتِ الْخَمْسِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَنَزَلَ بَيْنَهُنَّ قُرْآنٌ آخَرُ ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِلْحَاقِهَا، وَقَالَ بَعْضٌ آخَرُ: لَيْسَتْ هَذِهِ السُّورَةُ أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ. وَأَنَا لَا أَرَى مُنَاكَدَةً تُفْضِي إِلَى هَذِهِ الْحَيْرَةِ وَالَّذِي يُسْتَخْلَصُ مِنْ مُخْتَلِفِ الرِّوَايَاتِ فِي بَدْءِ الْوَحْيِ وَمَا عَقِبَهُ مِنَ الْحَوَادِثِ أَنَّ الْوَحْيَ فَتَرَ بَعْدَ نُزُولِ الْآيَاتِ الْخَمْسِ الْأَوَائِلِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَلَكِنَّ أَقْوَالَهُمُ اخْتَلَفَتْ فِي مُدَّةِ الْفَتْرَةِ. وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ: كَانَتِ الْمُدَّةُ سَنَتَيْنِ، وَفِيهِ بُعْدٌ. وَلَيْسَ تَحْدِيدُ مُدَّتِهَا بِالْأَمْرِ الْمُهِمِّ وَلَكِنَّ الَّذِي يُهِمُّ هُوَ أَنَّا نُوقِنُ بِأَنَّ النبي ﷺ كَانَ فِي مُدَّةِ فَتْرَةِ الْوَحْيِ يرى جبْرِيل وَيَتَلَقَّى مِنْهُ وَحْيًا لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ. وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي"الرَّوْضِ الْأُنُفِ": ذَكَرَ الْحَرْبِيُّ أَنَّ الصَّلَاةَ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ كَانَتْ صَلَاةً قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ أَيِ الْعَصْرُ، وَصَلَاةً قَبْلَ طُلُوعِهَا أَيِ الصُّبْحُ ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَّامٍ مِثْلَهُ، وَقَالَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ وَفَرْضُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ

قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِعَامٍ اهـ. فَالْوَجْهُ أَنْ تَكُونَ الصَّلَاةُ الَّتِي كَانَ يُصليهَا النبيﷺ صَلَاة غَيْرَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بَلْ كَانَتْ هَيْئَةً غَيْرَ مَضْبُوطَةٍ بِكَيْفِيَّةٍ وَفِيهَا سُجُودٌ لِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ:" وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" يُؤَدِّيهَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَوْ غَيْرِهِ بِمَرْأًى مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى أَبِي جَهْلٍ وَنَهَاهُ عَنْهَا. فَالْوَجْهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَاتُ إِلَى بَقِيَّةِ السُّورَةِ قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ نُزُولِ أَوَّلِ السُّورَةِ حَدَثَتْ فِيهَا صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَشَا فِيهَا خَبَرُ بَدْءِ الْوَحْيِ وَنُزُولِ الْقُرْآنِ، جَرْيًا عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْآيَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ فِي الْقِرَاءَةِ أَنْ تَكُونَ قَدْ تَعَاقَبَتْ فِي النُّزُولِ إِلَّا مَا ثَبَتَ تَأَخُّرُهُ بِدَلِيلٍ بَيِّنٍ، وَجَرْيًا عَلَى الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي الِالْتِفَاتُ إِلَى خِلَافِهِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ.[1] ويؤيد ذلك د/ محمد رأفت سعيد حيث يقول:" لقد تتابعت الآيات في السورة الكريمة في قوله ﷻ:" كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى..." إلى آخر السورة الكريمة فهل هذا الترتيب على ترتيب نزولها ؟ نقول إن ما تضمنته الآيات الكريمة من معاني تدل على تأخر نزولها، وأنه نزلت آيات أخر بعد الآيات السابقة ، ولكن لم يعرف على وجه التحديد الدقيق متى نزلت الآيات الكريمة من قوله ﷻ:" كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى" إلى قوله ﷻ:"لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" حتى نجعلها في مكانها من ترتيب نزولها إلا أن ما تضمنته من المعاني يجعل وقت نزولها قريبا من هذه الآيات الأولى، كما أن ترتيب هذه الآيات الكريمة بالآيات السابقة وهو ترتيب توقيفي يجعل المعاني مترابطة ترابطا وثيقا تتحقق فيه الوحدة العضوية لتكون سورة العلق بمجموعها مشتملة على المبادئ الأساسية في حياة الدعوة ، وفي حاجة الناس، والتي فصلت بعد ذلك فى السور القرآنية والأحاديث النبوية .[2]

وسواء كان وقت نزول هذه الآيات قريبا أم بعيدا إلا أننا نجد وجه الربط بين هذه الآيات وما قبلها ظاهر ، فنجد العلماء منهم من قال أنه بيان لأنواع البشرية أو أن هذه الآيات جاءت بعد الحديث عن العلم تحذيرا من زلة العالم فنجد المناسبة

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص٤٤٣ ، ٤٤٤ بتصرف .

(٢) تاريخ نزول القرآن ص ٧٨ .

جامعة بينها وبين ما قبلها، وهذا هو السر في سردها في سياقها، فقوله ﷻ:"كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى" هو رد على سؤال وارد على قوله ﷻ:"عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ"، والسؤال هو: هل أدّى الإنسان حق هذه النعمة التي أنعمها الله عليه؟ وهل كان له من علمه هذا الذي تعلمه، نفع له وللناس معه؟ والجواب على هذا: "كلّا" فإن هذا العلم الذي فتح على الناس وجوه المنافع، وملأ أيديهم من ثمرات الحياة، بما مكن لهم به من الأرض، وما سخر لهم من قوى الطبيعة، هذا العلم قد فتنهم سلطانه، وأغرى بعضهم ببعض، فاتخذوا منه سلاحا للبغي والعدوان، والتسلط والقهر، وبهذا طغى الإنسان، وتجبر وظلم، حين رأى نفسه بمنقطع عن الناس، مستغنيا عنهم بجاهه وسلطانه، وهذا مما لا يعيب العلم، ولا ينقص من قدره؛ فإنه وإن يكن استحدث به الإنسان كثيرا من أدوات الإهلاك والتدمير، فلقد استنبط منه ما لا يحصى من النعم الجليلة التي كشفت للإنسان عن فضل الله وإحسانه على الناس، كما أقام من آيات الله شواهد ناطقة تشهد بجلاله، وعظمته وحكمته، وتضع الناس وجها لوجه أمام أسرار هذا الكون، وما تنطوي عليه تلك الأسرار من سعة علم الله ، وعظمة جلاله وقدرته، وفرق كبير بين الإنسان البدائي، وبين رجل العلم في العصر الحديث، الذي كان عليه بعد هذا أن يبحث عن السيد المالك له هو، ولهذا الوجود كلّه، وهو لابد مستدل بعقله على خالق هذا الوجود وسيده، وذلك هو الإيمان الذي لا زيغ معه ولا ضلال، ولعل هذا يفسر لنا كثرة الأنبياء والرسل في الأزمان السالفة، ثم قلّتهم شيئا فشيئا كلما تقدم الزمن، وتقدم معه العقل الإنساني، الذي يقوم مقام الرسول في الدعوة إلى الله، والهداية إليه ، ثم انقطاع الرسل والأنبياء بخاتم سيد الرسل ونبي الأنبياء، محمد رسول الله ، بعد أن بلغت الإنسانية رشدها." [1] ويقول البقاعي:" لما كان العلم قرين الغنى في الأغلب، وكان زلة العالم تفوق زلة غيره، قال معرفاً بعد التعريف بالإلهيات بأمر النفس مبيناً لقِسم الإنسان المردود أسفل سافلين مقرراً لحاله، ورادعاً له عن ضلاله: "كلا" أي ارتدع أيها العالم عن الطغيان إن نلت

(١) التفسير القرآني للقرآن ج ١٦ص١٦٢٦، ١٦٢٧ بتصرف .

الغنى حقاً "إن الإنسان" أي هذا النوع الذي هو نوعك ومن شأنه الأنس بنفسه والنظر في عطفه "ليطغى" أي من شأنه -إلا من عصمه الله ﷻ- أن يزيد على الحد الذي لا ينبغي له مجاوزته ، وأكده لما لأكثر الخلق من التكذيب به فإنه لا طاغي يقر بأنه طغى "أن" أي لأجل أن "رآه" أي علم الإنسان نفسه علماً وجدانياً "استغنى" أي وجد له الغنى، هذا هو الطبع الغالب في الإنسان متى استغنى عن شيء عمي عن مواضع افتقاره، فتغيرت أحواله معه، وتجاوز فيه ما ينبغي له الوقوف عنده ومن كان مفتقراً إلى شيء كان منطاعاً له، ولعله نبه بهذا على أن هذه الأمة المحتاجة ستفتح لها خزائن الأرض فيطغيها الغنى كما أطغى من قبلها.[1] ويقول الشيخ محمد عبده:" دلت هذه الآيات على أن الله خلق العالم وعلى أن لا ينسب الخلق إلى غيره كما ترشد إليه الآية الأولى، وأنه خلق الإنسان الحي الناطق مما لا حياة فيه ولا نطق ولا شكل ولا صوت، وعلمه أفضل علم وهو الكتابة ، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئا؛ فكل شيء للإنسان منه فهو من هباته، فما أعجب ما يكون من الإنسان بعد ذلك من غفلته عن ذلك كله لمجرد أن يحس من نفسه الغنى عن غيره ، ولهذا ناسب أن يؤتى بعد تلك الآيات المتقدمات بما نزل بعدها بسنين كثيرة من قوله "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى" كلا كلمة زجر تفيد في الأغلب أن ما بعدها مخالف لأثر ما قبلها أي ما أسخف عقل الإنسان فإنه مع ظهور أمره وشدة فقره في نفسه وظهور أن الله مالك كل شيء عنده يطغى ويخرج عن الحد الذي يجب أن يقف عنده فيستكبر عن الخشوع لربه ويتطاول بالأذى على خلقه وذلك "أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى".[2] ويقول المراغي:" بعد أن ذكر ﷻ في مطلع السورة دلائل التوحيد الظاهرة، ومظاهر القدرة الباهرة، وعلامات الحكمة، ودقة الصنع، وكان ذلك كله بحيث يبتعد من العاقل ألا يلتفت إليه، أتبعه ﷻ ببيان السبب الحقيقي في طغيان الإنسان وتكبر وتماديه، وهو حبه للدنيا، واشتغاله بها، وجعلها أكبر همه، وذلك يعمى قلبه، ويجعله يغفل عن

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج٢٢ ص١٦١، ١٦٢ بتصرف .

(٢) تفسير جزء عم له ٢٤ ، ١٢٥.

خالقه، وما يجب له في عنقه من إجلال وتعظيم، وقد كان ينبغي أن يكون حين الغنى والميسرة، وكثرة الأعوان، واتساع الجاه، أشد حاجة إلى الله منه في حال الفقر والمسكنة، لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه وأعضائه، أما في حال الغنى فيتمنى ذلك ويتمنى سلامة مماليكه وأتباعه وأمواله. ألا يعلم أنه راجع إلى ربه فمجازيه على ما يعمل؟ وقد بلغ من حمقه أن يأمر وينهى، وأنه يوجب على غيره طاعته، ثم هو بعد ذلك يعرض عن طاعة ربه. أما ينبغي له أن يهتدي ويشتغل بأمر نفسه؟ فمن كان ذا عقل ورأى وثروة وجاه وأعوان، واختار الهدى، وتخلق بأخلاق المصلحين، كان ذلك خيرا له، وأجدى. وإنا لنتكلنّ به نكالا شديدا فى العاجلة، ولهيننّه يوم العرض والحساب، وليدع أمثاله من المغرورين، فإنهم لن يمنعوه، ولن ينصروه .[1]

أقول: لَمَ لا يكون في ذلك أيضا تحذير للعلماء، فهو تحذير من الطغيان بالعلم فإن العالم إذا طغى أو تكبر صد الناس عن مسألته فذلك طريق لأن تهوي الأمة وتزلق ،فمعلوم أن العلم يضيع بين اثنتين الحياء والكبر، كذلك إن لم يخفض جانبه للعوام وأصحاب السؤال فتح الطريق لغيره من المبتدعة وأصحاب الهوى في تلقف هؤلاء، ولقد ورد عن وهب بن منبه، وعن كعب الأحبار ﷺ "إِنَّ لِلْعِلْمِ طُغْيَانًا كَطُغْيَانِ الْمَالِ"[2]، فهو تحذير له، لا تطغى، واعلم أن العود إليه ، وإني لأرى كثير من الأساتذة بل ومن لا يزال طالبا فيهم من الأنفة والكبر- وهناك فرق كبير بين السكينة والوقار وبين التكبر – ما لا يستطيع إنسان معه أن يتناقش معه في مسألة، وكأن خفض جناحه لطلابه سيضع من قيمته فإنا لله وإنا إليه راجعون .

---

(١) الزهد ص ٣٠١ لأبي عبد الله أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) ، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط: الأولى،١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩ م، إحياء علوم الدين ج ٣ ص٣٦٣ ،لأبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط: دار المعرفة – بيروت.

(٢) تفسير المراغي ج ٣٠ص٢٠١ ، ٢٠٢ .

"كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى"

"كَلَّا" : هذه اللفظة التي اختص بها وتميز القرآن المكي لأَن فيها معنى التهديد والوعيد، وأكثر ما نزل ذلك بمكَّة؛ لأَن أكثر العتوّ كان بها[1]، فقد اقتضى الحال أن تجئ في القرآن المكي، وفي ذلك مراعاة لحال المخاطبين وما يتناسب مع طبيعتهم وغطرستهم حيث الألفاظ القوية التي تقرع أسماعهم وتصخ آذانهم وتملأ قلوبهم خوفاً من الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وتلك خصيصة من خصائها. [2] أما عند أهل اللغة فيقول ابن هشام :"كلا" مركبة عِنْد ثَعْلَب من كَاف التَّشْبِيه وَلَا النافية قَالَ وَإِنَّمَا شددت لامها لتقوية الْمَعْنى ولدفع توهم بَقَاء معنى الْكَلِمَتَيْنِ، وَعند غَيره هِيَ بسيطة، وَهِي عِنْد سِيبَوَيْهِ والخليل والمبرد والزجاج وَأَكْثر الْبَصرِيين حرف مَعْنَاهُ الردع والزجر لَا معنى لَهَا عِنْدهم إِلَّا ذَلِك ، حَتَّى إِنَّهُم يجيزون أبدا الْوَقْف عَلَيْهَا والابتداء بِمَا بعْدهَا، وَرَأى الْكسَائي وَأَبُو حَاتِم وَمن وافقهما أَن معنى الردع والزجر لَيْسَ مستمرا فِيهَا فزادوا فِيهَا معنى ثَانِيًا يَصح عَلَيْهِ أَن يُوقف دونهَا ويبتدأ بهَا ثمَّ اخْتلفُوا فِي تعْيين ذَلِك الْمَعْنى على ثَلَاثَة أَقْوَال، أَحدهَا للكسائي ومتابعيه قَالُوا تكون بِمَعْنى حَقًّا، وَالثَّانِي لأبي حَاتِم ومتابعيه قَالُوا تكون بِمَعْنى أَلا الاستفتاحية، وَالثَّالِث للنضر ابْن شُمَيْل وَالْفراء وَمن وافقهما قَالُوا تكون حرف جَوَاب بِمَنْزِلَة إِي وَنعم وحملوا عَلَيْهِ "كلا وَالْقَمَر" فَقَالُوا مَعْنَاهُ إِي وَالْقَمَر، ورجح ابن هشام قَول أبي حَاتِم لِأَنَّهُ أَكثر اطرادا. وَإِذا صلح الْموضع للردع وَلغيره جَازَ الْوَقْف عَلَيْهَا والابتداء بهَا.[3]، وكذا نقل هذا الترجيح القاسمي في تفسيره [4]. وقال

---

(١) بصائر ذوي التمييز ج ٤ ص ٣٨١ .

(٢) كلاّ" دلالتها ومواقعها في القرآن الكريم ، بحث الدكتور / محمد محمد عبد العليم مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر الشريف .

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ت: ٧٦١هـ) ص ٢٤٩ : ٢٥١ بتصرف ت: د. مازن المبارك ، محمد علي حمد الله ، ط: دار الفكر، دمشق ، ط: السادسة، ١٩٨٥.

(٤) تفسير القاسمي ج٩ص٥١١ .

السخاوي:" أجاز بعضهم الوقف على "كلّا" أي لا يعلم أن الله علمه ما لم يعلم ثم استؤنف الكلام فقال ﷻ: "إن الإنسَانَ لَيَطْغَى" وقال الفراء: "ما لم يعلم" وقف تام، وذلك أن أول ما نزل على النبيﷺ من القرآن هذه الآيات الخمس من هذه السورة، نزل جبريل عليه السلام في نمط ، فلقنها النبي ﷺ آية آية، فلما قال "علّم الإنسان ما لم يعلم" طوي النمط ، ويؤيد هذا أن باقي السورة نزل بعد "يَا أيهَا المُدثّرُ"، و"يا أيهَا المُزّمِّلُ". وهذا دليل واضح على الابتداء بـ "كلا"؛ لأن الملك ابتدأ بها عند إنزالها.(١) وحول هذه المعاني دار كلام المفسرين، سواء بسرد جميع الأقوال وما ترتب عليها من معنى ، أو اختيار أحدها ، فممن سردها الماوردي(٢)،والفخر الرازي حيث يقول:" قَوْلُهُ "كَلَّا" فِيهِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا: أَنَّهُ رَدْعٌ وَزَجْرٌ لِمَنْ كَفَرَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ بِطُغْيَانِهِ، وَإِنْ لَمْ يُذْكَرْ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ وَثَانِيهَا: قَالَ مُقَاتِلٌ: كَلَّا لَا يَعْلَمُ الْإِنْسَانُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ مِنَ الْعَلَقَةِ وَعَلَّمَهُ بَعْدَ الْجَهْلِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ عِنْدَ صَيْرُورَتِهِ غَنِيًّا يَطْغَى وَيَتَكَبَّرُ وَيَصِيرُ مُسْتَغْرِقَ الْقَلْبِ فِي حُبِّ الدُّنْيَا فَلَا يَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَلَا يَتَأَمَّلُ فِيهَا وَثَالِثُهَا: ذكر الجرجاني صاحب "النظم" أن كلا هاهنا بِمَعْنَى حَقًّا لِأَنَّهُ لَيْسَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ شيء تَكُونُ كَلَّا رَدًّا لَهُ، وَهَذَا كَمَا قَالُوهُ فِي:﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾(٣)فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُ بِمَعْنَى:إِي وَالْقَمَرِ.(٤) وممن ذهب أيضا من المفسرين أيضا إلى أنها بمعنى حقا أبو الليث السمرقندي والبغوي وابن الجوزي في تفاسيرهم والمراد: حقاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغى أي الكافر ليعصي الله، وَيَتَجَاوَزُ حَدَّهُ وَيَسْتَكْبِرُ عَلَى رَبِّهِ ويرفع منزلة نفسه إن رأى نفسه مستغنياً عن الله ﷻ، مثل أبي جهل وأصحابه، وكان إذا أصاب مالاً أشر وبَطِرَ في ثيابه، ومراكبه، وطعامه، ومثل فرعون حيث ادعى الربوبية.(٥)

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء ج١ ص ٧٢٩ .

(٢) تفسير الماوردي " النكت والعيون" ج٦ ص ٣٠٦ .

(٣) الْمُدَّثِّر الآية : [٣٢]

(٤) تفسير الرازي ج٣٢ ص٢١٩ ، ٢٢٠.

(٥) تفسير السمرقندي ج ٣ ص ٥٩٨ ، تفسير البغوي ط إحياء التراث ج٥ ص ٢٨١ ، زاد المسير في علم التفسير ج٤ ص ٤٦٧ ، ٤٦٨ بتصرف في الجميع .

وممن ذهب إلى أنها للردع لمن كفر وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه، مثل الزمخشري وابن عطية والبيضاوي والآلوسي وغيرهم والمراد:" كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى كَلَّا ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه"[1]. يقول ابن عاشور:" اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ لِظُهُورِ أَنَّهُ فِي غَرَضٍ لَا اتِّصَالَ لَهُ بِالْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ، وَحَرْفُ كَلَّا رَدْعٌ وَإِبْطَالٌ، وَلَيْسَ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي قبله مَا يَحْتَمِلُ الْإِبْطَالَ وَالرَّدْعَ، فَوُجُودُ كَلَّا فِي أَوَّلِ الْجُمْلَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالرَّدْعِ هُوَ مَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى". وَحَقُّ كَلَّا أَنْ تَقَعَ بَعْدَ كَلَامٍ لِإِبْطَالِهِ وَالزَّجْرِ عَنْ مَضْمُونِهِ، فَوُقُوعُهَا هُنَا فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ يَقْتَضِي أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ الْآتِي بَعْدَهَا حَقِيقٌ بِالْإِبْطَالِ وَبِرَدْعِ قَائِلِهِ، فَابْتُدِئَ الْكَلَامُ بِحَرْفِ الرَّدْعِ لِلْإِبْطَالِ. [2]

"إِنَّ الْإِنْسَانَ": يقع قَوْله:" إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى" مَوْقِعُ الْمُقَدِّمَةِ لِمَا يَرِدُ بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى إِلَى قَوْلِهِ: لَا تُطِعْهُ لِأَنَّ مَضْمُونَهُ كَلِمَةٌ شَامِلَةٌ لِمَضْمُونِ " أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى "إِلَى قَوْلِهِ: "فَلْيَدْعُ نادِيَهُ". وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَا قَالَهُ أَبُو جهل ناشئ عَنْ طُغْيَانِهِ بِسَبَبِ غِنَاهُ كَشَأْنِ الْإِنْسَانِ ، وَتَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِحَرْفِ التَّأْكِيدِ وَلَامِ الِابْتِدَاءِ لِقَصْدِ زِيَادَةِ تَحْقِيقِهِ لِغَرَابَتِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِمَّا يُتَوَقَّعُ أَنْ يَشُكَّ السَّامِعُ فِيهِ.[3]

وأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الإنسان هاهنا إِنْسَانٌ وَاحِدٌ وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ، الْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جُمْلَةُ الْإِنْسَانِ، فالتَّعْرِيفُ فِي الْإِنْسانَ لِلْجِنْسِ فمِنْ طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَطْغَى إِذَا أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الِاسْتِغْنَاءَ، وَاللَّامُ مُفِيدَةٌ الِاسْتِغْرَاقَ الْعُرْفِيَّ، أَيْ أَغْلَبُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ؛ لأنه إذا ما كثرت النعم بين يديه، إلا من عصمه الله ﷻ من هذا الخلق الذميم، بأن

---

(١) تفسير الزمخشري ج٤ ص ٧٧٧ ، المحرر الوجيز ج ٥ ص ٥٠١ ، تفسير البيضاوي ج٥ ص ٣٢٥ ، روح المعاني ج ١٥ ص٤٠٣ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٢ .

(٣) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٤ .

شكره ﷻ على نعمه، واستعملها في طاعته ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ أَظْهَرَ بِحَسَبِ الرِّوَايَاتِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ أَقْرَبُ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ،فنزول هذه الآيات في شأن أبي جهل لغناه ولكثرة من يغشى ناديه من الناس، فناصب رسول الله ﷺ العداوة ونهاه عن الصلاة في المسجد لا يمنع عموم حكمها، ويدخل في هذا الحكم دخولا أوليا أبو جهل، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ لِأَنَّهُ ﷻ بَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ مَعَ أَنَّهُ خَلَقَهُ مِنْ عَلَقَةٍ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالنِّعَمِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا، إِذْ أَغْنَاهُ، وَزَادَ فِي النِّعْمَةِ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَطْغَى وَيَتَجَاوَزُ الْحَدَّ فِي الْمَعَاصِي وَاتِّبَاعِ هَوَى النَّفْسِ، وَذَلِكَ وَعِيدٌ وَزَجْرٌ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ ﷻ أَكَّدَ هَذَا الزَّجْرَ بقوله:" إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى" أَيْ إِلَى حَيْثُ لَا مَالِكَ سِوَاهُ، فَتَقَعُ الْمُحَاسَبَةُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْعَمَلِ وَالْمُؤَاخَذَةُ بِحَسَبِ ذَلِكَ."[1] والحكم على الإنسان باعتبار الأعم الأغلب في أفراده، وإلا فإن الغنى والقوة في أيدي الأتقياء من وسائل الخير، وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية لأنهم يستعملونهما فيما يرضى ربهم، ويعود عليهم بالنفع فى دينهم ودنياهم. [2]

"لَيَطْغَى" : يقول الراغب:"طغى طَغَوْتُ وطَغَيْتُ طَغَوَاناً وطُغْيَاناً وأَطْغَاهُ كذا حمله على الطُّغْيَانِ، وذلك تجاوز الحدّ في العصيان.[3] فالطغيان: تجاوز الحدود الجميلة، وذكر الماوردي في قوله "ليطغى" عدة أوجه: ليبطر، قاله الكلبي. أو ليرتفع من منزلة إلى منزلة، قاله السدي. أو ليتجاوزه قدره، ومنه قوله ﷻ "إنا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ" قاله ابن شجرة.[4] وكلها تصب في معنى واحد؛ فمعناه هنا إن الإنسان ليتجاوز حدّه، ويستكبر على ربه، فيكفر به، لأن رأى نفسه استغنت ". [5] ويقول الفخر الرازي:"

---

(١) تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢١٩ بتصرف ، المحرر الوجيز ج ٥ ص ٥٠٢ ، التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٤ ، التفسير الوسيط ج١٥ص٤٥٥ ، ٤٥٦ بتصرف .

(٢) تفسير المراغي ج ٣٠ص٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٥٢٠.

(٤) تفسير الماوردي " النكت والعيون" ج ٦ ص ٣٠٦ .

(٥) تفسير الطبري ت شاكر ج٢٤ ص ٥٢٢ .

الطُّغْيَانُ هُوَ التَّكَبُّرُ وَالتَّمَرُّدُ، وَتَحْقِيقُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَمَّا ذَكَرَ فِي مُقَدِّمَةِ السُّورَةِ دَلَائِلَ ظَاهِرَةً عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ بِحَيْثُ يَبْعُدُ مِنَ الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَطَّلِعَ عَلَيْهَا وَلَا يَقِفَ عَلَى حَقَائِقِهَا أَتْبَعَهَا بِمَا هُوَ السَّبَبُ الْأَصْلِيُّ فِي الْغَفْلَةِ عَنْهَا وَهُوَ حُبُّ الدُّنْيَا وَالِاشْتِغَالُ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالثَّرْوَةِ وَالْقُدْرَةِ ، فَإِنَّهُ لَا سَبَبَ لِعَمَى الْقَلْبِ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا ذَلِكَ فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ فِي حَقِّهِ:﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[1] وهاهنا ذَكَرَ فِي أَبِي جَهْلٍ: لَيَطْغَى فَأَكَّدَهُ بِهَذِهِ اللَّامِ، فَمَا السَّبَبُ فِي هَذِهِ الزِّيَادَةِ؟ قُلْنَا: فِيهِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْقَاهُ مُوسَى، وَقَبْلَ أَنْ يَعْرِضَ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةَ، وقبل أن يدعي الربوبية وأما هاهنا فَإِنَّهُ ﷻ ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ تَسْلِيَةً لِرَسُولِهِ حِينَ رَدَّ عَلَيْهِ أَقْبَحَ الرَّدِّ، وَثَانِيهَا: أَنَّ فِرْعَوْنَ مَعَ كَمَالِ سُلْطَتِهِ مَا كَانَ يَزِيدُ كُفْرُهُ عَلَى الْقَوْلِ، وَمَا كَانَ لِيَتَعَرَّضَ لِقَتْلِ موسى ﷺ وَلَا لِإِيذَائِهِ وَأَمَّا أَبُو جَهْلٍ فَهُوَ مَعَ قِلَّةِ جَاهِهِ كَانَ يَقْصِدُ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ وَإِيذَاءَهُ وَثَالِثُهَا: أَنَّ فِرْعَوْنَ أَحْسَنَ إِلَى مُوسَى أَوَّلًا، وَقَالَ آخِرًا: آمَنْتُ. وَأَمَّا أَبُو جَهْلٍ فَكَانَ يَحْسُدُ النَّبِيَّ فِي صِبَاهُ، وَقَالَ فِي آخِرِ رَمَقِهِ: بَلِّغُوا عَنِّي مُحَمَّدًا أَنِّي أَمُوتُ وَلَا أَحَدَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهُ وَرَابِعُهَا: أَنَّهُمَا وَإِنْ كَانَا رَسُولَيْنِ لَكِنَّ الْحَبِيبَ فِي مُقَابَلَةِ الْكَلِيمِ كَالْيَدِ فِي مُقَابَلَةِ الْعَيْنِ، وَالْعَاقِلُ يَصُونُ عَيْنَهُ فَوْقَ مَا يَصُونُ يَدَهُ، بَلْ يَصُونُ عَيْنَهُ بِالْيَدِ، فلهذا السبب كانت المبالغة هاهنا أكثر."[2]

"أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى"

الإحساس بالاستغناء طريق لطغيان النفس، وهو حقيقة نفسية :

وذلك أن عِلَّةُ هَذَا الْخَلْقِ أَنَّ الِاسْتِغْنَاءَ تُحَدِّثُ صَاحِبَهُ نَفْسُهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى غَيْرِهِ وَأَنَّ غَيْرَهُ مُحْتَاجٌ فَيَرَى نَفْسَهُ أَعْظَمَ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ التَّوَهُّمُ يَرْبُو فِي نَفسه حَتَّى يصير خُلُقًا حَيْثُ لَا وَازِعَ يَزَعُهُ مِنْ دِينٍ أَوْ تَفْكِيرٍ صَحِيحٍ فَيَطْغَى عَلَى النَّاسِ لِشُعُورِهِ بِأَنَّهُ لَا يَخَافُ بَأْسَهُمْ لِأَنَّ لَهُ مَا يَدْفَعُ بِهِ الِاعْتِدَاءَ مِنْ لَامَةِ سِلَاحٍ وَخَدَمٍ

---

(١) طه من الآية : [٢٤] .

(٢) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢٠.

وَأَعْوَانٍ وَعُفَاةٍ وَمُنْتَفِعِينَ بِمَالِهِ مِنْ شُرَكَاءَ وَعُمَّالٍ وَأُجَرَاءَ فَهُوَ فِي عِزَّةٍ عِنْدَ نَفْسِهِ. فَقَدْ بَيَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ حَقِيقَةً نَفْسِيَّةً عَظِيمَةً مِنَ الْأَخْلَاقِ وَعِلْمِ النَّفْسِ. وَنَبَّهَتْ عَلَى الْحَذَرِ مِنْ تَغَلْغُلِهَا فِي النَّفْسِ. (١)

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: أَنْ رَآهُ بِأَلِفٍ بَعْدِ الْهَمْزَةِ، وَهِيَ لَامُ الْفِعْلِ، وقرأ قنبل من رواية ابن شنبوذ وابن مجاهد وأكثر الرواة عنه بقصر الهمزة بلا ألف، وافقه ابن محيصن، والباقون بالمد وهو رواية الزينبي عن قنبل وتغليط ابن مجاهد لقنبل في رواية القصر رده الناس عليه، والذي ارتضاه في النشر أنه إن أخذ عن قنبل بغير طريق ابن مجاهد والزينبي كابن شنبوذ وأبي ربيعة وغيرهما فبالقصر وجها واحدا بلا ريب، وإن أخذ عنه بطريق الزينبي فبالمد كالجماعة وجها واحدا، وإن أخذ بطريق ابن مجاهد فبالوجهين وهما صحيحان عنه في الكافي وتلخيص ابن بليمة وغيرهما، قال: أعني صاحب النشر ولا شك أن القصر أثبت وأصح عنه من طريق الأداء، والمد أقوى من طريق النص والأداء أخذ من طريقيه جمعا بين النص والأداء ومن زعم أن ابن مجاهد لم يأخذ بالقصر فقد أبعد في الغاية، وخالف في الرواية ، وقد حُذِفَتِ الْأَلِفُ فِي نَحْوِ وَصَّانِي الْعَجَّاجُ فِيمَا وَصَّنِي يُرِيدُ: وَصَّانِي، فحذف الْأَلِفَ، وَهِيَ لَامُ الْفِعْلِ، وقد وجه الحذف بأن بعض العرب يحذف لام مضارع رأى تخفيفا، ومنه قولهم : أصاب الناس جهد ولو تر أهل مكة، بل قيل إنها لغة عامة، وحيث صحت الرواية به وجب قبوله ، وقال أبو حيان : وَهُوَ حَذْفٌ لَا يَنْقَاسُ لَكِنْ إِذَا صَحَّتِ الرِّوَايَةُ بِهِ وَجَبَ قَبُولُهُ، وَالْقِرَاءَاتُ جَاءَتْ عَلَى لُغَةِ الْعَرَبِ قِيَاسُهَا وَشَاذُّهَا. (٢)

وأَنْ رَآهُ مُتَعَلِّقٌ بِ "يَطْغَى" بِحَذْفِ لَامِ التَّعْلِيلِ لِأَنَّ حَذْفَ الْجَارِّ مَعَ (أَن) كَثِيرٌ شَائِعٌ ، وأَنْ" في موضع نصب؛ لأنه مفعول له، ومعنى "أَنْ رَآهُ" أي لأنه رأي نفسه أومن أجل أن رآه استغنى، والضمير في قوله رَآهُ يعود على الإنسان الطاغي،

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(٢) التيسير في القراءات السبع ج ١ ص ٢٢٣ ،البحر المحيط في التفسير ج ١٠ ص ٥٠٩ ، الدر المصون ج١١ ص ٥٨ ، ٥٩ ، إتحاف فضلاء البشر ص ٥٩١ .

وَالتَّقْدِيرُ: إِنَّ الْإِنْسَان ليطْغى لرُؤْيَته نَفْسهِ مُسْتَغْنيًا ، كَمَا يُقَالُ: إِنَّكُمْ لَتطْغُونَ إِنْ رَأَيْتُمْ غِنَاكُمْ ، والرؤية بمعنى العلم، ولذلك جاز أن يعمل فعل الفاعل في نفسه، كما تقول: وجدتني وظننتني"[١]. قَالَ الْفَرَّاءُ إِنَّمَا قَالَ: أَنْ رَآهُ وَلَمْ يَقُلْ: رَأَى نَفْسَهُ كَمَا يُقَالُ: قَتَلَ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّ رَأَى مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَسْتَدْعِي اسْمًا وَخَبَرًا نَحْوَ الظَّنِّ وَالْحِسْبَانِ، وَالْعَرَبُ تَطْرَحُ النفس من هذا الجنس فتقول: رَأَيْتُنِي وَظَنَنْتُنِي وَحَسِبْتُنِي فَقَوْلُهُ:أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى مِنْ هَذَا الْبَابِ[٢]. فتعدى الفعلُ هنا إلى ضميرَيْه المتصلَيْن ؛ لأنَّ هذا مِنْ خواصِّ هذا البابِ. ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين، واستغنى هو المفعول الثاني[٣].

وهناك من قال أن رأى هنا بصرية، يقول السمين الحلبي: "ذهب جماعةٌ إلى أنَّ "رأى" البَصَرية تُعْطي حُكْمَ العِلْمِيَّة، وجَعَل مِنْ ذلك قولَ عائشةَ رضي اللَّهُ عنها "لقد رَأَيْتُنا مع رسولِ الله ﷺ وما لنا طعامٌ إلاَّ الأسْوَدان" وأنشد: ولقد أَراني للرِّماح دَرِيْئَةً .. مِنْ عَنْ يمين تارةً وأمامي[٤] يقول الآلوسي:" فإذا جعلت رأى هنا بصرية فالجملة في موضع الحال، وتعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء كما ينبئ عنه قوله ﷻ ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [٥] للإيذان بأن مدار طغيانه

---

(١) النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه) ، ص ٥٦٢ لعلي بن فَضَّال المُجَاشِعِي القيرواني (ت: ٤٧٩هـ)، ت: د. عبد الله عبد القادر الطويل ، ط: دار الكتب العلمية بيروت ، ط: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م ، المحرر الوجيز ج ٥ ص ٥٠١ ، تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢٢٠ ، الدر المصون ج١١ ص ٥٨ ، التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٤ ،التفسير الوسيط ج ١٥ص٤٥٥ .

(٢) النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه) ، ص ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، تفسير الرازي ج٣٢ ص٢١٩ ، ٢٢٠.

(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٧٧ ، تفسير النسفي ج٣ ص ٦٦٣ ،روح المعاني ج ١٥ ص ٤٠٣ .

(٤) الدر المصون ج١١ ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٥) الشورى من الآية: [٢٧] .

زعمه الفاسد على الأول ومجرد رؤيته ظاهر الحال من غير روية وتأمل في حقيقته على الثاني، وعلى الوجهين المراد بالاستغناء الغنى بالمال أعني مقابل الفقر المعروف. وقيل المراد أن رأى نفسه مستغنيا عن ربه ﷻ بعشيرته وأمواله وقوته وهو خلاف الظاهر، ويبعده ظاهر ما روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهبا وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك. فنزل جبريل عليه السلام فقال: إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاء عليهم.[1] وذكر هذه الرواية القرطبي وأبو السعود عن ابن عباس قال فِي رِوَايَةِ أَبِي صَالِحٍ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَسَمِعَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ، أَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ تَزْعُمُ أَنَّهُ مَنِ اسْتَغْنَى طَغَى، فَاجْعَلْ لَنَا جِبَالَ مَكَّةَ ذَهَبًا، لَعَلَّنَا نَأْخُذُ مِنْهَا، فَنَطْغَى فَنَدَعَ دِينَنَا وَنَتَّبِعَ دِينَكَ. قَالَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ خَيِّرْهُمْ فِي ذَلِكَ فَإِنْ شَاءُوا فَعَلْنَا بِهِمْ مَا أَرَادُوهُ، فَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِأَصْحَابِ الْمَائِدَةِ. فَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الْقَوْمَ لَا يَقْبَلُونَ ذَلِكَ ، فَكَفَّ عَنْهُمْ إِبْقَاءً عَلَيْهِمْ. "[2]

"اسْتَغْنَى": الِاسْتِغْنَاءُ: شِدَّةُ الْغِنَى، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي حُصُولِ الْفِعْلِ مِثْلَ اسْتَجَابَ وَاسْتقر.[3]

والغنى مطغ إلا من عصم الله ".[4]

ولكن ما الذي استغنى عنه ؟

قال الماوردي :"أَن رآه اسْتَغْنَى" أي عن ربه ، قاله ابن عباس. ويحتمل ثانياً: استغنى بماله وثروته .[5]

---

(١) روح المعاني ج١٥ ص ٤٠٣، ٤٠٤ .

(٢) تفسير القرطبي ج٢٠ ص١٢٣، إرشاد العقل السليم ج ٩ص١٧٨.

(٣) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٤ .

(٤) المحرر الوجيز ج ٥ ص ٥٠١ .

(٥) تفسير الماوردي " النكت والعيون" ج٦ ص ٣٠٦ .

واستبعد الرازي أن يكون المراد هو الرأي الأول حيث قال:"فِي قَوْلِهِ: اسْتَغْنى وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: اسْتَغْنَى بِمَالِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ لَيْسَ هُوَ الْأَوَّلَ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَنَالُ الثَّرْوَةَ فَلَا يَزِيدُ إِلَّا تَوَاضُعًا كَسُلَيْمَانَ عليه السلام، فَإِنَّهُ كَانَ يُجَالِسُ الْمَسَاكِينَ وَيَقُولُ:"مِسْكِينٌ جَالَسَ مِسْكِينًا" وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ مَا طَغَى مَعَ كَثْرَةِ أَمْوَالِهِ، بَلِ الْعَاقِلُ يَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَ الْغِنَى يَكُونُ أَكْثَرَ حَاجَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ حَالَ فَقْرِهِ، لِأَنَّهُ فِي حَالِ فَقْرِهِ لَا يَتَمَنَّى إِلَّا سَلَامَةَ نَفْسِهِ، وَأَمَّا حَالَ الْغِنَى فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى سَلَامَةَ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَمَمَالِيكِهِ، وَفِي الْآيَةِ وَجْهٌ ثَالِثٌ: وَهُوَ أَنَّ سِينَ اسْتَغْنى سِينُ الطَّالِبِ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ رَأَى أَنَّ نَفْسَهُ إِنَّمَا نَالَتِ الْغِنَى لِأَنَّهَا طَلَبَتْهُ وَبَذَلَتِ الْجُهْدَ فِي الطَّلَبِ فَنَالَتِ الثَّرْوَةَ وَالْغِنَى بِسَبَبِ ذَلِكَ الْجُهْدِ، لَا أَنَّهُ نَالَهَا بِإِعْطَاءِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَهَذَا جَهْلٌ وَحُمْقٌ فَكَمْ مِنْ بَاذِلٍ وُسْعَهُ فِي الْحِرْصِ وَالطَّلَبِ وَهُوَ يَمُوتُ جُوعًا، ثُمَّ تَرَى أَكْثَرَ الْأَغْنِيَاءِ فِي الْآخِرَةِ يَصِيرُونَ مُدْبِرِينَ خَائِفِينَ، يُرِيهِمُ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ الْغِنَى مَا كان بفعلهم وقوتهم. (١)

أقول : إنما أهلك من كان من قبل " إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ".

"إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى "

موعظة لا تؤثر إلا في قلب صادق :

ثم أتى بصيغة الالتفات للتشديدِ في التهديدِ والتحذير من عاقبة الطغيان.(٢) تهديد لهذا الإنسان الذي جحد نعمة الله عليه، واتخذ منها أسلحة يحارب بها الفضيلة، ويقطع بها ما أمر الله به أن يوصل، إن هذا الإنسان راجع إلى ربه يوما، وسيلقى جزاء بغيه وعدوانه.(٣) كما أنه تحقير لغنى هذا الإنسان وما له بقوله: "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى" أي الحشر والبعث يوم القيامة".(٤) يقول البقاعي:" ولما كان لا دواء لذلك مثل تذكر

---

(١) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢٠.

(٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص ٧٧٧ ، تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢١ ، تفسير البيضاوي ج٥ ص ٣٢٥ ، إرشاد العقل السليم ج ٩ص١٧٩ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢٧.

(٤) المحرر الوجيز ج ٥ ص ٥٠١ .

الجزاء، قال معرفاً أن الإنسان لا يزال مفتقراً إلى مولاه في حياته ومماته وغناه وفقره، محذراً له سوء حالاته مؤكداً لأجل إنكارهم ذلك "إن إلى ربك" أي المحسن إليك بالرسالة التي رفع بها ذكرك، لا إلى غيره من التراب ونحوه "الرجعى" أي الرجوع الأعظم الثابت الذي لا محيد عنه، أما في الدنيا فلا محيد عن الإقرار به، فإنه لا يقدر أحد على شيء إلا بتقديره ، وأما في الآخرة فبما أثبت في برهانه في سورة التين، فيحاسب الناس بأعمالهم، ويجازي كل أحد بما يستحق من ثواب أو عقاب، ففيه وعيد للطاغي وتحقير لغنى ينقطع ، ولما أخبر بطغيانه وعجل بذكر دوائه لأن المبادرة بالدواء لئلا يتحكم الداء واجبة، دل على طغيانه مخوفاً من عواقب الرجعى في أسلوب التقرير لأنه أوقع في النفس وأروع للّب[1].

والخطاب قيل للإنسان وجوز أن يكون الخطاب لسيد المخاطبينﷺ. والمراد أيضا تهديد الطاغي وتحذيره ولعله الأظهر نظرا إلى الخطابات قبله.[2] يقول ابن عاشور:" وَجُمْلَةُ "إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى" مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمُقَدِّمَةِ وَالْمَقْصِدِ وَالْخِطَابُ للنبيﷺ، أَيْ مَرْجِعُ الطَّاغِي إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا مَوْعِظَةٌ وَتَهْدِيدٌ عَلَى سَبِيلِ التَّعْرِيضِ لِمَنْ يَسْمَعُهُ مِنَ الطُّغَاةِ، وَتَعْلِيمٌ للنبي ﷺ وَتَثْبِيتٌ لَهُ، أَيْ لَا يَحْزُنْكَ طُغْيَانُ الطَّاغِي فَإِنَّ مَرْجِعَهُ إِلَيَّ، وَمَرْجِعُ الطَّاغِي إِلَى الْعَذَابِ قَالَ ﷻ:﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً﴾[3] وَهِيَ مَوْعِظَةٌ لِلطَّاغِي بِأَنَّ غِنَاهُ لَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْمَوْتَ، وَالْمَوْتُ رُجُوعٌ إِلَى اللَّهِ كَقَوْلِهِ:﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[4]. وَفِيهِ مَعْنًى آخَرَ وَهُوَ أَنَّ اسْتِغْنَاءَهُ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ لِأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ فِي أَهَمِّ أُمُورِهِ وَلَا يَدْرِي مَاذَا يُصَيِّرُهُ إِلَيْهِ رَبُّهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ فَلَا يَزِدْهُ بِغِنًى زَائِفٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَيَكُونُ: الرُّجْعى مُسْتَعْمَلًا فِي مَجَازِهِ، وَهُوَ الِاحْتِيَاجُ إِلَى الْمَرْجُوعِ إِلَيْهِ، وَتَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِإِنَّ مُرَاعًى فِيهِ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢٢ ص ١٦٣ ، ١٦٤ بتصرف .

(٢) روح المعاني ج١٥ ص ٤٠٤ .

(٣) النبأ: [٢١، ٢٢]

(٤) الانشقاق الآية : [٦]

الْمَعْنَى التَّعْرِيضِيُّ لِأَنَّ مُعظم الطغاة ينسون هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بِحَيْثُ يُنْزِلُونَ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُهَا. (١)

وَالرُّجْعَى وَالْمَرْجِعُ وَالرُّجُوعُ مَصَادِرٌ، يُقَالُ: رَجَعَ إِلَيْهِ رُجُوعًا وَمَرْجِعًا. وَرُجْعَى، عَلَى وزن فعلى. أَيْ مَرْجِعُ مَنْ هَذَا وَصْفُهُ فَنُجَازِيهِ."(٢) وفي معنى الرجعى يقول الماوردي:" إنّ إلى ربِّك الرُّجْعَى" فيه وجهان: أحدهما: المنتهى ، قاله الضحاك، الثاني: المرجع في القيامة. ويحتمل ثالثاً: يرجعه الله إلى النقصان بعد الكمال، وإلى الموت بعد الحياة".(٣) ويقول الرازي:" وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَرَى ثَوَابَ طَاعَتِهِ وَعِقَابَ تَمَرُّدِهِ وَتَكَبُّرِهِ وَطُغْيَانِهِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾(٤) وَهَذِهِ الْمَوْعِظَةُ لَا تُؤَثِّرُ إِلَّا فِي قَلْبِ مَنْ لَهُ قَدَمُ صِدْقٍ، أَمَّا الْجَاهِلُ فَيَغْضَبُ وَلَا يَعْتَقِدُ إِلَّا الْفَرَحَ الْعَاجِلَ وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ ﷺ يَرُدُّهُ وَيُرْجِعُهُ إِلَى النُّقْصَانِ وَالْفَقْرِ وَالْمَوْتِ، كَمَا رَدَّهُ مِنَ النُّقْصَانِ إِلَى الْكَمَالِ، حَيْثُ نَقَلَهُ مِنَ الْجَمَادِيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْفَقْرِ إِلَى الْغِنَى، وَمِنَ الذُّلِّ إِلَى الْعِزِّ، فَمَا هَذَا التَّعَزُّزُ وَالْقُوَّةُ. (٥) وتقديمُ الجار والمجرور عليه لقصره عليهِ أيْ إنَّ إلى مالكِ أمركِ رجوعَ الكُلِّ بالموتِ والبعثِ لا إلى غيره استقلالا ولا اشتراكا فسترى حينئذٍ عاقبةَ طُغيانكَ " .(٦)

ويأتي بأسلوبه الأدبي الممتع صاحب الظلال مذكرًا أن هذه الآية هي قاعدة أخرى من قواعد الإيمان ، ولقد صدق، فمن ذا الذي يوقن أن إلى ربه الرجعى ثم يتطاول، أو حتى يستهتر في أداء ما عليه من إقرار الحمد ومحاولة شكر النعمة حيث

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٦ .

(٢) تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١٢٣ بتصرف .

(٣) تفسير الماوردي " النكت والعيون ج٦ ص ٣٠٦.

(٤) إبْرَاهِيمَ الآية: [٤٢] .

(٥) تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢٢١.

(٦) إرشاد العقل السليم ج ٩ص١٧٩ .

يقول:" وحين تبرز صورة الإنسان الطاغي الذي نسي نشأته وأبطره الغنى، يجيء التعقيب بالتهديد "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى" فأين يذهب هذا الذي طغى واستغنى؟ وفي الوقت ذاته تبرز قاعدة أخرى من قواعد التصور الإيماني، قاعدة الرجعة إلى الله، الرجعة إليه في كل شيء وفي كل أمر، وفي كل نية ، وفي كل حركة، فليس هناك مرجع سواه، إليه يرجع الصالح والطالح. والطائع والعاصي، والمحق والمبطل، والخيِّر والشرّير، والغني والفقير، وإليه يرجع هذا الذي يطغى أن رآه استغنى، ألا إلى الله تصير الأمور، ومنه النشأة وإليه المصير، وهكذا تجتمع في المقطعين أطراف التصور الإيماني، الخلق والنشأة، والتكريم والتعليم، ثم الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى" [1].

"أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)"

هذه الجملة جُمْلَةُ: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إذا صَلَّى إِلَى آخِرِهَا هِيَ الْمَقْصُودُ مِنَ الرَّدْعِ الَّذِي أَفَادَهُ حَرْفُ كَلَّا ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا مُتَّصِلًا بِاسْتِئْنَافِ جُمْلَةِ "إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى" [2]، فهذه صورة لهذا الإنسان الذي طغى، حين رأى نفسه ذا قوة وسلطان، إنه لا يؤمن بالله، ولا يقف موقف الأولياء منه ، بل إنه ليحارب المؤمنين بالله، ويحول بينهم وبين أداء ما لله ﷻ عليهم من حق، فجرم هذا الطاغية جرم مضاعف، فلا هو يؤمن بالله، ولا يؤدى حق ربه عليه، ولا يدع المؤمنين يؤدّون حق ربهم عليهم، والاستفهام هنا تعجب من الأمر المستفهم عنه، وتشنيع على فاعله، ودعوة الناس إلى ضبطه وهو قائم على هذا المنكر، متلبس به!! وفى جعل فاصلة الآية الفعل "ينهى" وفى قطع الفعل "ينهى" عن معموله ، وهو "عبدا إذا صلى" في هذا تشنيع على طغيان هذا الطاغية فإذا استمع مستمع إلى قوله ﷻ:" أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى" وقع في تفكيره لأول وهلة، أن هذا الإنسان إنما ينهى عن منكر، لأن هذا هو شأن ما ينهى عنه، فإذا فاجأه الخبر بأن ما ينهى عنه هذا الآثم، إنما هو الصلاة

---

(١) في ظلال القرآن ج ٦ص٣٩٤٢ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٦ .

والولاء لله رب العالمين اشتد إنكاره له ، وتضاعفت جريمته عنده.[١] فهنا يمضي المقطع الثالث في السورة القصيرة يعرض صورة من صور الطغيان، صورة مستنكرة يعجب منها، ويفظع وقوعها في أسلوب قرآني فريد " أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى؟ أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى؟ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى؟ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى؟". والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير، التي تتعذر مجاراتها في لغة الكتابة. ولا تؤدّى إلا في أسلوب الخطاب الحي، الذي يعبر باللمسات المتقطعة في خفة وسرعة! "أَرَأَيْتَ" ؟ أرأيت هذا الأمر المستنكر؟ أرأيته يقع؟ "أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى؟" أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة؟ وتضاف بشاعة إلى بشاعة؟ أرأيت إن كان هذا الذي يصلي ويتعرض له من ينهاه عن صلاته إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى؟ ثم ينهاه من ينهاه مع أنه على الهدى، آمر بالتقوى؟ أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكرا؟ "أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى؟" هنا يجيء التهديد كما جاء في نهاية المقطع الماضي: "أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى؟" يرى تكذيبه وتوليه، ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى، وهو على الهدى آمر بالتقوى.[٢]

وليس هذا لزمان أبي جهل ومن على شاكلته في عصره آنذاك، بل في كل عصر نجد من هم على نفس الشاكلة، يقول البقاعي:" ولما كان أفحش ما يكون صد العبد عن خدمة سيده، قال معبراً بالعبودية منكراً للمبالغة في تقبيح النهي والدلالة على كمال العبودية:"عَبْداً" أي من العبيد "إذا صلّى" أي خدم سيده الذي لا يقدر أحد أن ينكر سيادته بإيقاع الصلاة التي هي وصلته به، وهي أعظم أنواع العبادة لأنها مع كونها أقرب وصلة إلى الحق انقطاع وتجرد بالكلية عن الخلق، فكان نهيه له عن ذلك نهياً عن أداء الحق لأهله حسداً أو بغياً، فكان دالاً على أن من طبع أهل كل زمان عداوة أهل الفضل وصدهم عن الخير لئلا يختصوا بالكمال.[٣]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢٧ ، ١٦٢٨ .

(٢) في ظلال القرآن ج ٦ ص٣٩٤٢ .

(٣) نظم الدرر ج ٢٢ ص ١٦٤ .

وكما قلت سابقا في غير موضع ، أيا ما كان الخطاب له ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وإني لأرى إغلاق المساجد التي هي موقع تربية الرجال الحقيقيين ومصنعهم، وهو أمر متعمد، لهي طمس للهوية الإسلامية، هو من هذا الباب ، وكأن أولياء الأمور لم يروا هذه الآية أبدا ، ولم يخافوا بل على الأقل لم يتحرجوا وأصدروا الأوامر العامة على الجميع ما يجوز فيه هذا الأمر وما لا يجوز، فحسبنا الله ونعم الوكيل .

ويمكن أن يكون الخطاب لكل من يصلح له الخطاب، واختاره ابن جزي الكلبي، وأبو السعود[1] ويمكن أن تكون هذه الآيات جاءت مخاطبة النبي على سبيل التعجب، وعبرت بما يفيد الاستقبال لاستحضار الصورة الماضية لنوع غرابة.[2]، يقول ابن عاشور:" أَرَأَيْتَ كَلِمَةُ تَعْجِيبٍ مِنْ حَالٍ تُقَالُ لِلَّذِي يَعْلَمُ أَنَّهُ رَأَى حَالًا عَجِيبَةً. وَالرُّؤْيَةُ عِلْمِيَّةٌ، أَيْ أَعَلِمْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا وَالْمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ هُوَ ذَلِكَ الْعِلْمُ، وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي لِ"رَأَيْتَ" مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي آخِرِ الْجُمَلِ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى، وَالِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجِيبِ لِأَنَّ الْحَالَةَ الْعَجِيبَةَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يُسْتَفْهَمَ عَنْ وُقُوعِهَا اسْتِفْهَامَ تَحْقِيقٍ وَتَثْبِيتٍ لِنَبَئِهَا إِذْ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ بِهِ، وَمَجِيءُ الِاسْتِفْهَامِ فِي التَّعْجِيبِ كَثِيرٌ نَحْوُ ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ﴾[3]. وَالرُّؤْيَةُ عِلْمِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى: أَعْجَبُ مَا حَصَلَ لَكَ مِنَ الْعِلْمِ قَالَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الرُّؤْيَةُ بَصَرِيَّةً لِأَنَّهَا حِكَايَةُ أَمْرٍ وَقَعَ فِي الْخَارِجِ وَالْخِطَابُ فِي أَرَأَيْتَ لِغَيْرٍ مُعَيَّنٍ وَالْمُرَادُ بِالْعَبْدِ النبيﷺ، وَإِطْلَاقُ الْعَبْدِ هُنَا على معنى الْوَاحِدِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَيْ شَخْصٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[4]، أَيْ رِجَالًا. وَعَدَلَ عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِضَمِيرِ الْخِطَابِ لِأَنَّ التَّعْجِيبَ مِنْ نَفْسِ النَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ

---

(١) تفسير ابن جزي " التسهيل لعلوم التنزيل" ج ٢ ص ٤٩٨ ، تفسير أبي السعود ج٩ص١٧٩

(٢) روح المعاني ج١٥ص ٤٠٥ .

(٣) الْغَاشِيَةِ الآية: [١] .

(٤) الْإِسْرَاء من الآية: [٥] .

خُصُوصِيَّةِ الْمُصَلِّي. فَشُمُولُهُ لِنَهْيِهِ عَنْ صَلَاةِ النَّبِي ﷺ أَوْقَعُ، وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ "يَنْهى" لِاسْتِحْضَارِ الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ وَإِلَّا فَإِنَّ نَهْيَهُ قَدْ مَضَى. وَالْمَنْهِيُّ عَنْهُ مَحْذُوفٌ يُغْنِي عَنْهُ تَعْلِيقُ الظَّرْفِ بِفِعْلِ يَنْهى أَي نَهَاهُ عَن صلَاته. (١)

لكن ما وجه هذا التعجب الوارد في هذه الآيات ؟

وَجْهُ التَّعَجُّبِ فِيهِ أُمُورٌ أَحَدُهَا أَنَّهُ ﷺ قَالَ: اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامِ إِمَّا بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ أَوْ بِعُمَرَ، فَكَأَنَّهُ ﷺ قَالَ لَهُ: كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ يَعِزُّ بِهِ الْإِسْلَامُ، أَمِثْلُهُ يَعِزُّ بِهِ الْإِسْلَامُ، وَهُوَ يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى وَثَانِيهَا: أَنَّهُ كَانَ يُلَقَّبُ بِأَبِي الْحَكَمِ، فَكَأَنَّهُ ﷺ يَقُولُ: كَيْفَ يَلِيقُ بِهِ هَذَا اللَّقَبُ وَهُوَ يَنْهَى الْعَبْدَ عَنْ خِدْمَةِ رَبِّهِ، أَيُوصَفُ بِالْحِكْمَةِ مَنْ يَمْنَعُ عَنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ وَيَسْجُدُ لِلْأَوْثَانِ! وَثَالِثُهَا: أَنَّ ذَلِكَ الْأَحْمَقَ يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْغَيْرِ طَاعَتُهُ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا رَبٍّ، ثُمَّ إِنَّهُ يَنْهَى عَنْ طَاعَةِ الرَّبِّ وَالْخَالِقِ، أَلَا يَكُونُ هَذَا غَايَةَ الْحَمَاقَةِ". (٢) وأيضاً فيه إجلال لمنصب رسول الله ﷺ أن ينهاه رجل لاسيما مثل هذا. (٣)

والنهي: الزّجر عن الشيء، وهو من حيث المعنى لا فرق بين أن يكون بالقول أو بغيره، وما كان بالقول فلا فرق بين أن يكون بلفظة افعل نحو: اجتنب كذا، أو بلفظة لا تفعل. فإذا قيل: لا تفعل كذا فنهي من حيث اللفظ والمعنى جميعا. (٤) يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب:" والنهى هنا بمعنى المنع؛ لأن الذي يملك النهى عن فعل الشيء، يملك منع المنهيّ عن فعله، إذ النهى فى حقيقته لا يكون إلا من ذي سلطان متمكن ممن ينهاه، ويقدر على منعه مما نهاه عنه. (٥)وعبر بالنهي، إشارة

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٧ بتصرف .

(٢) تفسير الرازي " مفاتيح الغيب" ج٣٢ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، اللباب في علوم الكتاب ج٢٠ ص ٤٢٠ ،٤٢١ ، التفسير المنير ج٣٠ ص٣٢٣.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ج٢٠ ص ٤٢١ .

(٤) المفردات في غريب القرآن ص ٨٢٦ مادة " نهى " .

(٥) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢٧ ، ١٦٢٨ .

إلى عدم اقتداره على غير ذلك .[١] ولم يختلف أحد من المفسّرين في أن الناهي: أبو جهل، وأن العبد المصلي محمد ﷺ.[٢]

وقد أخرج مجاهد في تفسيره "أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى" قَالَ: يَعْنِي أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ كَانَ يَنْهَى النَّبِيَّ ﷺعَنِ الصَّلَاةِ"[٣]. وكان نهيه للنبيﷺ بتهديده له فقد أخرج الإمام مسلم بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺوَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأُ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَالَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا" قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى، أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى" يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ "أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ"، زَادَ عُبَيْدُ اللهِ فِي حَدِيثِهِ قَالَ: وَأَمَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ. وَزَادَ ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى "فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ"، يَعْنِي قَوْمَهُ.[٤] وأخرج أحمد والترمذي وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: كان النبيﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا الحديث.[٥]،[٦] وهناك من قال قولا آخر عن الحسن: إنه أمية بن خلف، كان ينهى

---

(١) تفسير القاسمي ج٩ص٥١١ .

(٢) المحرر الوجيز ج ٥ ص ٥٠٢ ، تفسير ابن جزي " التسهيل لعلوم التنزيل ج٢ ص ٤٩٧ .

(٣) تفسير مجاهد ج ١ ص ٧٣٩ .

(٤) صحيح مسلم كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ بَابُ قَوْلِهِ: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}ح رقم ٢٧٩٧ .

(٥) مسند أحمد ج ٤ ص١٦٤ ح رقم ٢٣٢١ سنن الترمذي أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَاب وَمِنْ سُورَةِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ح رقم ٣٣٤٩ ،

(٦) روح المعاني ج ١٥ص٤٠٤ ، ٤٠٥ بتصرف .

سلمان عن الصلاة.[١] ولكن رد ذلك العلامة الآلوسي حيث قال:"وقول الحسن هو أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة لا يكاد يصح لأنه لا خلاف في أن إسلام سلمانﷺ كان بالمدنية بعد الهجرة كما أنه لا خلاف في أن السورة مكية. نعم حكم الآية عام فإن كان ما حكي عن أمية واقعا فحكمها شامل له والصلاة التي أشارت إليها الآية كانت على ما حكى أبو حيان صلاة الظهر[٢]. يقول الفخر الرازي :" وَاعْلَمْ أَنَّ ظاهر الْآيَةِ هُوَ الْإِنْسَانُ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ، فَلِذَلِكَ قَالُوا: إِنَّهُ وَرَدَ فِي أَبِي جَهْلٍ ، وَذَكَرُوا مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ التَّوَعُّدِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ رَآهُ يُصَلِّي، وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ نُزُولُهَا فِي أَبِي جَهْلٍ، ثُمَّ يَعُمُّ فِي الْكُلِّ، لَكِنْ مَا بَعْدَهُ يَقْتَضِي أَنَّهُ فِي رَجُلٍ بِعَيْنِهِ .[٣]

أما عن وصفه المصطفىﷺ بقوله "عبدا" فلقد جاء لفظ العبد في كثير من المواضع من باب التشريف له ﷺ ، مع أن باقي الأنبياء ما يذكروا كثيرا بأسمائهم مما يدل علي فضله ﷺ وقد اختار ذلك فقد أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ ، أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: " بَلْ عَبْدًا رَسُولًا ".[٤]

وكذلك فيه تذكير أن العبد مهما بلغ وارتفع لا يعدوا كونه عبدا من عباد الله– وفيه من الشرف ما فيه – ويبقى مقام الإلوهية متفردا بالهيبة والجلال . وجاء بالتنكير في قوله عبدا ليدل على أنه كامل العبودية ، فالتنكير للتفخيم والتعظيم،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ج ٢٠ ص ٤٢٠ ،البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٩ .

(٢) ونسب هذا القول للتبريزي . البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٩ ،روح المعاني ج ١٥ص٤٠٤ ، ٤٠٥ بتصرف .

(٣) تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢٢١ .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١٢ ص ٧٦ ، ٧٧ ، والحديث إسناده صحيح على شرط الشيخين .

وللمبالغة في تقبيح النهي ، والمعنى أرأيت الذي ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية، وهذا دأبه وعادته."[١]، وهو في مقام العبودية والولاء لربه هو عبد، ولكنه سيد الأسياد جميعا في هذه الدنيا، إذ كان عبد الله رب العالمين.[٢] والكلام من قبيل الكلام المنصف وإرخاء العنان، ولذا قيل عَبْداً ولم يقل نبيا مجتبى فكأنه قيل أخبرني يا من له أدنى تمييز عن حال هذا الذي ينهى بعض عباد الله ﷻ فضلا عن النبي المجتبى عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه من عبادة الله ﷻأو كان آمرا بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأصنام كما يزعم، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما تقول أَلَمْ يَعْلَمْ إلخ .[٣]

وقَالَ يَنْهى عَبْداً وَلَمْ يَقُلْ: يَنْهَاكَ، لفَوَائِدَ أَحَدُهَا: أَنَّ التَّنْكِيرَ فِي عَبْدًا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ كَامِلًا فِي الْعُبُودِيَّةِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهُ عَبْدٌ لَا يَفِي الْعَالِمُ بِشَرْحِ بَيَانِهِ وَصِفَةِ إِخْلَاصِهِ فِي عُبُودِيَّتِهِ، يُرْوَى فِي هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ يَهُودِيًّا مِنْ فُصَحَاءِ الْيَهُودِ جَاءَ إِلَى عُمَرَ فِي أَيَّامِ خِلَافَتِهِ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَخْلَاقِ رَسُولِكُمْ، فَقَالَ عُمَرُ: اطْلُبْهُ مِنْ بِلَالٍ فَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. ثُمَّ إِنَّ بِلَالًا دَلَّهُ عَلَى فَاطِمَةَ ثُمَّ فَاطِمَةُ دَلَّتْهُ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا سَأَلَ عَلِيًّا عَنْهُ قَالَ: صِفْ لِي مَتَاعَ الدُّنْيَا حَتَّى أَصِفَ لَكَ أَخْلَاقَهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: هَذَا لَا يَتَيَسَّرُ لِي، فَقَالَ عَلِيٌّ: عَجَزْتَ عَنْ وَصْفِ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ عَلَى قِلَّتِهِ حَيْثُ قَالَ:﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ﴾[٤] فَكَيْفَ أَصِفُ أَخْلَاقَ النَّبِيِّ وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ ﷻ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٥] فَكَأَنَّهُ ﷻ قَالَ: يَنْهَى أَشَدَّ الْخَلْقِ عُبُودِيَّةً عَنِ الْعُبُودِيَّةِ وَذَلِكَ عَيْنُ الْجَهْلِ وَالْحُمْقِ وَثَانِيهَا: أَنَّ هَذَا أَبْلَغُ فِي الذَّمِّ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ هَذَا دَأْبُهُ وَعَادَتُهُ فَيَنْهَى كُلَّ مَنْ يَرَى، وَثَالِثُهَا: أَنَّ هَذَا تَخْوِيفٌ لِكُلِّ مَنْ

---

(١) تفسير البيضاوي ج ٥ ص ٣٢٦ ، التفسير الوسيط ج ١٥ ص ٤٥٦

(٢) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢٧ ، ١٦٢٨ .

(٣) روح المعاني ج ١٥ ص٤٠٦ .

(٤) النِّسَاء من الآية : [٧٧]

(٥) الْقَلَمِ الآية: [٤].

نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ، وَرَابِعُهَا: أَيَظُنُّ أَبُو جَهْلٍ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَسْجُدْ مُحَمَّدٌ لِي لَا أَجِدُ سَاجِدًا غَيْرَهُ، إِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدٌ وَاحِدٌ، وَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ مَا لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا أَنَا وَهُمْ دَائِمًا فِي الصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ ،وَخَامِسُهَا: أَنَّهُ تَفْخِيمٌ لِشَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: إِنَّهُ مَعَ التَّنْكِيرِ مُعَرَّفٌ، نَظِيرُهُ الْكِنَايَةُ فِي سُورَةِ الْقَدْرِ حُمِلَتْ عَلَى الْقُرْآنِ وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُ ذِكْرٌ ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[1] ،﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾[2] ،وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ[3]". [4]

ولما كانت أرأيت بمعنى أخبرني، فكأنه سؤال يفتقر إلى جواب وفيها معنى التعجيب والتوقيف[5] ، يقول الإمام محمد عبده :" كلمة "أَرَأَيْتَ" صارت تستعمل في معنى أخبرني، على أنها لا يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقي، ولكن يقصد بها إنكار المستخبر عنها وتقبيحها. فكأنه يقول: ما أسخف عقل هذا الذي يطغى به الكبر فينهى عبدا من عبيد الله عن صلاته، خصوصا وهو في حالة أدائها. [6]

وهي تتعدى إلى مفعولين وجاءت بعدها إن الشرطية في موضعين وهما قوله:" إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى "، وقوله:" إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى" فيحتاج إلى كلام في مفعولي أرأيت في المواضع الثلاثة، وفي جواب الشرطين وفي الضمائر المتصلة بهذه الأفعال، وهي إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى وكذب وتولى، وعلى من تعود هذه الضمائر؟ وقد كانت هذه الأقاويل مثار أخذ ورد بينهم ، وكل منهم تمسك بالصنعة النحوية من جهة، يقول الزمخشري:" فإن قلت: ما متعلق أرأيت ؟ قلت: الذي ينهى مع الجملة

---

(١) الإسراء من الآية: [١].

(٢) الكهف من الآية: [١].

(٣) الجن من الآية: [١٩].

(٤) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢٢ بتصرف .

(٥) التوقيف هو التعزير أو التوبيخ على التقصير .لسان العرب مادة " عزر " .

(٦) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ١٢٥ ، وكذا نقله عنه القاسمي في محاسن التأويل ج ٩ص ٥١٣ .

الشرطية، وهما في موضع المفعولين. فإن قلت: فأين جواب الشرط؟ قلت: هو محذوف، تقديره: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، ألم يعلم بأن الله يرى، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني . فإن قلت: فكيف صح أن يكون أَلَمْ يَعْلَمْ جوابا للشرط؟ قلت: كما صح في قولك: إن أكرمتك أتكرمني؟ وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه؟ فإن قلت: فما أرأيت الثانية وتوسطها بين مفعول أرأيت؟ قلت: هي زائدة مكرّرة للتوكيد .[1] يقول ابن جزي الكلبي شارحا لقول الزمخشري:" قال الزمخشري: إن قوله الذي ينهى هو المفعول الأول لقوله: أرأيت الأولى وأن الجملة الشرطية بعد ذلك في موضع المفعول الثاني، وكررت أرأيت بعد ذلك للتأكيد فهي زائدة لا تحتاج إلى مفعول، وإن قوله: ألم يعلم بأن الله يرى هو جواب قوله إن كذب وتولى فهو في المعنى جواب للشرطين معا، وأن الضمير في قوله: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى للذي نهى عن الصلاة وهو أبو جهل، وكذلك الضمير في قوله إن كذب وتولى وتقدير الكلام على هذا: أخبرني عن الذي ينهى عبدا إذا صلى إن كان هذا الناهي على الهدى أو كذب وتولى؟ ألم يعلم بأن الله يرى جميع أحواله من هداه وضلاله وتكذيبه ونهيه عن الصلاة وغير ذلك؟ فمقصود الآية تهديد له وزجر وإعلام بأن الله يراه.[2] وممن ارتضى ذلك النسفي في تفسيره[3]، وأيضا من المتأخرين وهبة الزحيلي [4] ود /طنطاوي[5] أن جواب الشرط في الآيتين الأُول محذوف دل عليه الدليل، و"أَرَأَيْتَ" المتكررة زائدة .

لكن من النحاة من لم يرتض ذلك متمسكا بالصنعة الإعرابية من وجوب اقتران جواب الشرط بالفاء، وأن الجواب نفسه لا يكون إلا جملة استفهامية أو

---

(١) تفسير الزمخشري "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" ج ٤ ص ٧٧٨ .
(٢) تفسير ابن جزي " التسهيل لعلوم التنزيل" ج ٢ ص ٤٩٧ .
(٣) تفسير النسفي " مدارك التنزيل وحقائق التأويل" ج ٣ ص ٦٦٤ .
(٤) التفسير المنير ج ٣٠ص٣٢٢ .
(٥) التفسير الوسيط ج ١٥ ص ٤٥٧ .

قسمية، وسأذكر جانبا من أقوال المفسرين يوضح وجهة نظرهم مع ملاحظة أن كلامهم يكاد يكون متفقا لفظا ومعنى، يقول أبو حيان:" وَمَا قَرَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ هُنَا لَيْسَ بِجَارٍ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ادَّعَى أَنَّ جُمْلَةَ الشَّرْطِ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ الْوَاحِدِ، وَالْمَوْصُولَ هُوَ الْآخَرُ، وَعِنْدَنَا أَنَّ الْمَفْعُولَ الثَّانِيَ لَا يَكُونُ إِلَّا جُمْلَةً اسْتِفْهَامِيَّةً، كَقَوْلِهِ: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ"،" أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَداً أَطَّلَعَ الْغَيْبَ"،"أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ" وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، فَتُخَرَّجُ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى ذَلِكَ الْقَانُونِ، وَيُجْعَلُ مَفْعُولُ أَرَأَيْتَ الْأُولَى هُوَ الْمَوْصُولُ، وَجَاءَ بَعْدَهُ أَرَأَيْتَ، وَهِيَ تطلب مفعولين، وأرأيت الثَّانِيَةُ كَذَلِكَ فَمَفْعُولُ أَرَأَيْتَ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ مَحْذُوفٌ يَعُودُ عَلَى الَّذِي يَنْهى فِيهِمَا، أَوْ عَلَى عَبْداً فِي الثَّانِيَةِ، وَعَلَى الَّذِي يَنْهى فِي الثَّالِثَةِ عَلَى الِاخْتِلَافِ السَّابِقِ فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ، وَالْجُمْلَةُ الِاسْتِفْهَامِيَّةُ تَوَالَى عَلَيْهَا ثَلَاثَةُ طَوالِبَ، فَتَقُولُ: حُذِفَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي لِأَرَأَيْتَ، وَهُوَ جُمْلَةُ الِاسْتِفْهَامِ الدَّالِّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ الْمُتَأَخِّرُ لِدَلَالَتِهِ عَلَيْهِ. حُذِفَ مَفْعُولُ أَرَأَيْتَ الْأَخِيرُ لِدَلَالَةِ مَفْعُولِ أَرَأَيْتَ الْأُولَى عليه. وحذفا معا لأرأيت الثَّانِيَةِ لِدَلَالَةِ الْأَوَّلِ عَلَى مَفْعُولِهَا الْأَوَّلِ، وَلِدَلَالَةِ الْآخَرِ لِأَرَأَيْتَ الثَّالِثَةَ عَلَى مَفْعُولِهَا الْآخَرِ. وَهَؤُلَاءِ الطَّوَالِبُ لَيْسَ طَلَبُهَا عَلَى طَرِيقِ التَّنَازُعِ، لأن الْجُمَلَ لَا يَصِحُّ إِضْمَارُهَا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْحَذْفِ فِي غَيْرِ التَّنَازُعِ[1]. وَأَمَّا تَجْوِيزُ الزَّمَخْشَرِيِّ وُقُوعَ جُمْلَةِ الِاسْتِفْهَامِ جَوَابًا لِلشَّرْطِ بِغَيْرِ فَاءٍ، فَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَجَازَهُ ، بَلْ نَصُّوا عَلَى وُجُوبِ الْفَاءِ فِي كُلِّ مَا اقْتَضَى طَلَبًا بِوَجْهٍ مَا، وَلَا يَجُوزُ حَذْفُهَا إِلَّا إِنْ كَانَ فِي ضَرُورَةِ شعر ." [2]

---

(١) التنازع هو: أن يتقدم عاملان فأكثر على معمول واحد مطلوب لكل منهما من حيث المعنى. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ج٢ ص ٧٣٦ ، لشمس الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الجَوجَري القاهري الشافعي (ت: ٨٨٩هـ) ، ت: نواف بن جزاء الحارثي ، ط : عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية (أصل الكتاب: رسالة ماجستير للمحقق) ط: الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م .

(٢) البحر المحيط ج ١٠ ص ٥١٠ .

ويقول السمين الحلبي معقبا على كلام الزمخشري:" وإذ قد تَعَرَّض للكلامِ في هذه الآية فَلْنَجْرِ معه: اعلَمْ أَنَّ "أرأيت" لا يكونُ مفعولُها الثاني إلاَّ جملةً استفهاميةً كقولِه: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾[1] إلى آخرِها ومثلُه كثيرٌ، وهنا أرأَيْتَ" ثلاثَ مراتٍ، وقد صَرَّحَ بعد الثالثةِ منها بجملةٍ استفهاميةٍ فتكونُ في موضعِ المفعولِ الثاني لها، ومفعولها الأولُ محذوفٌ، وهو ضميرٌ يعودُ على "الذي ينهى" الواقعِ مفعولاً أولَ لـ"أَرَأَيْتَ" الأولى، ومفعولُ "أَرَأَيْتَ" الأولى الذي هو الثاني محذوفٌ، وهو جملةٌ استفهاميةٌ، كالجملةِ الواقعةِ بعد "أَرَأَيْتَ" الثالثةِ وأمَّا "أرأَيْتَ" الثانية فلم يُذْكَرْ لها مفعولٌ لا أولُ ولا ثانٍ، حُذِفَ الأولُ لدلالة المفعولِ مِنْ "أَرَأَيْتَ" الأولى عليه، وحُذف الثاني لدلالة مفعولِ "أَرَأَيْتَ" الثالثةِ عليه، فقد حُذِف الثاني مِنْ الأولى، والأولُ من الثالثةِ، والاثنان مِنْ الثانيةِ . وليس طَلَبُ كلٍ مِنْ "أَرَأَيْتَ" للجملةِ الاسميةِ على سبيلِ التنازع لأنه يَسْتدعي إضماراً، والجملُ لا تُضْمَرُ، إنما تُضْمَرُ المفردات، وإنما ذلك مِنْ بابِ الحَذْفِ للدلالةِ . وتجويزُ الزمخشريِّ وقوعَ جوابِ الشرط استفهاماً بنفسه لا يجوزُ، بل نَصُّوا على وجوبِ ذِكْرِ الفاءِ في مثله، وإن وَرَدَ شيءٌ فهو ضرورةٌ."[2] وكذا نص عليه ابن عادل الحنبلي [3] والآلوسي[4]، وأبو السعود[5]، أما ابن عطية رحمه الله تعالى فقال:"وقوله ﷻ: أَرَأَيْتَ" توقيف وهو فعل لا يتعدى إلى مفعولين على حد الرؤية من العلم بل يقتصر به، وقوله ﷻ:" أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى" إكمال للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاث يصلح مع كل واحد منهما فجاء بها في نسق ثم جاء بالوعيد الكافي لجميعها اختصارا واقتضابا، ومع كل تقرير من الثلاثة تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها، وقوله: أَلَمْ يَعْلَمْ دال عليها مغن،

---

(١) يونس من الآية: [٥٠].

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج ١١ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) اللباب في علوم الكتاب ج ٢٠ ص ٤١٩

(٤) روح المعاني ج ١٥ ص ٤٠٥ .

(٥) إرشاد العقل السليم ج ٩ ص ١٧٩ .

وقوله ﷻ:"إِنْ كانَ" يعني العبد المصلي، وقوله:" إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى" يعني الإنسان الذي ينهى".[١] وخالفهما– أي الزمخشري وابن عطية – أيضا الغزنوي في الجواب فقال: إن جواب قوله: إن كان على الهدى محذوف فقال: إن تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أليس هو على الحق واتباعه واجب، والضمير على هذا يعود على العبد الذي صلى وفاقا لابن عطية.[٢]

ولكن تحسم الأمر بنت الشاطئ صاحبة التفسير البياني للقرآن الكريم – رحمها الله– في هذا الموقف ولها كلام جميل أحببت أن أنقله، حيث قالت: والنحاة من المفسرين وقفوا طويلاً عند "أرأيت" التي تكررت هنا ثلاثة مرات في آيات متتاليات، دون أن يصرح فيها بالمفعول الثاني للفعل "رأى" على ما تقتضي الصنعة الإعرابية. وقد ذهب الزمخشري في "الكشاف" إلى أن الجملة الشرطية في "أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى" في موضع المفعول الثاني لـ "أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى" وعلى هذا التأويل، قرر أن "أَرَأَيْتَ" زائدة قبل الشرط: إن كذب. أما جواب الشرط فيؤخذ من الآية بعده: "أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" وعلى هذا التأويل الذي تبدو فيه "أَرَأَيْتَ" في الجملة الشرطية مقحمة على السياق، تمت للزمخشري تسوية الصنعة بمفعول ثان، ثم تركنا نواجه مجيء جواب الشرط استفهامياً طلبياً غير مقترن بالفاء، خلافاً لقواعدهم! وقد رفض أبو حيان مذهب الزمخشري، دون أن يتخلص هو أيضاً من أغلال الصنعة النحوية، فلم يلتفت إلى ما في قوله الزمخشري بزيادة "أَرَأَيْتَ" في جملة الشرط من تكلف ينبو به السياق ويتمزق، بل شغلته قواعد الصنعة، فذكر أن المفعول الثاني لـ "أَرَأَيْتَ" لا يكون إلا جملة استفهامية، وهو كثير في القرآن الكريم. ثم قال: "فتخرج هذه الآية على هذا القانون". وكذلك رفض مذهب الزمخشري في جعل "أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" جواباً لشرط "إِنْ كَذَّبَ" محتكماً في رفضه إلى القاعدة النحوية التي تقرر اقتران جواب الشرط بالفاء، قال: "وأما تجويز الزمخشري وقوع الاستفهام

---

(١) تفسير ابن عطية ج ٥ ص ٥٠١ .

(٢) تفسير ابن جزي " التسهيل لعلوم التنزيل "ج ٢ ص ٤٩٨ .

جواباً بغير فاء، فلا أعلم أحداً أجازه . بل نصوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلباً بوجه ما، ولا يجوز حذفها إلا في ضرورة شعرية". ونحتكم إلى البيان القرآني فيما اختلفوا فيه، فتلقانا ظاهرة أسلوبية لافتة إلى أن القرآن قلما يتعلق بذكر مفعول ثان، في الأسلوب الاستفهامي بـ "أَرَأَيْتَ" خطابا للمفرد، أو "أَرَأَيْتُم" خطاباً للجمع. وإنما يستغنى عن هذا المفعول، بتقرير يلفت إلى موضع العبرة والنذير، كما في آيات:﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾(١) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾(٢) ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(٣) ، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤) ،﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(٥) وكلها آيات مكيات. ومثلها السؤال التقريري، خطاباً للجمع، في آيات الواقعة:﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾(٦) ،﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ"،"أفرأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾(٧) ومعها آيات يونس ٥٩، الشعراء ٧٥، فاطر ٤٠، الزمر ٣٨، النجم ١٩، الأحقاف ٤. هي إذن ظاهرة أسلوبية، كان ينبغي أن تلفت إلى وجه في البيان العربي يستغنى عن المفعول الثاني لـ

---

(١) الماعون الآية :[١ ، ٢] .

(٢) مريم الآية: [٧٧، ٧٨] .

(٣) الفرقان الآية :[٤٣] .

(٤) الجاثية الآية :[٢٣] .

(٥) النجم الآية :[٣٣ : ٣٨] .

(٦) الواقعة الآية : [٥٨ : ٥٩] .

(٧) الواقعة الآية: [٦٨ : ٧٢] .

"رأى" حين تقترن بهمزة الاستفهام في الخطاب، فلا نشغل بالتماس هذا المفعول الثاني خضوعاً للصنعة النحوية ، بل أولى منه أن نتدبر سر هذه الظاهرة الأسلوبية التي لا تتخلف في آيات العلق:"أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" فلفتت إلى ما هو جدير بالرؤية والبصر والتدبر، وأغنت عما تعلق به النحاة من مفعول ثان مقدر أو غير مقدر، يختلفون عليه. والأمر كذلك في جواب شرط "إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى" إذا كانت قواعدهم تحتم ذكره أو تقديره، ثم نواجه بما يخالف قاعدة نحوية أخرى تقضى باقتران الجواب بالفاء .فإن البيان القرآني جدير بأن يلفتنا إلى وجه التجاوز عن ذكر جواب الشرط في مثل هذا الأسلوب، لتكون آية " أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" هو موضع العبرة والبصر والتنبيه، بما يغني عن التعلق بجواب محذوف أو مقدر. ومثله في القرآن الكريم، آيات الأنعام٤٧،٤٦:"قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ" والقصص٧١، ٧٢ :"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ". ومثلها آيات: هود ٢٨، فصلت ٥٢، يونس٥٠. والاستفهام فيها في موضع جواب الشرط، غير مقترن بالفاء. وننظر مع كل هذه الآيات، آية هود ٨٨: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ"، فيهدينا تدبر هذه الظاهرة الأسلوبية إلى أن البيان القرآني يستغنى فيها عما تأوله النحاة، بالسؤال اللافت إلى ما هو موضع بصر وعبرة. وبه أفهم "الراغب" في المفردات: "رأى إذا عدى إلى مفعولين اقتضى معنى العلم. ويجرى "أَرَأَيْتَ" مجرى: أخبرني ونقل عدداً من آياتها ثم قال: كل ذلك

فيه معنى التنبية". وإنما أطلت الوقت هنا، قصداً إلى التنبيه إلى ما يلقانا في ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم، لم تأت على المقرر من قواعد النحاة وأحكام البلاغيين المدرسيين، فيشغلنا عن البيان العالي، تسوية الصنعة النحوية أو البلاغية، بالتأويل فيه والتقدير". [١] كما يقول الشيخ محمد عبده رحمه الله ﷻ:" فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت في تفسير المعنى وهو من الإيجاز المحمود، بعد ما دل على المحذوف بقوله: أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى أي أجهل أن الله يطلع على أمره؟ فإن كان تقيّا على الهدى أحسن جزاءه، وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته. ثم إن ما يطيل به المفسرون في المفعول الثاني لفعل "أرأيت" الأولى ومفعوليها في الثانية والثالثة فهو مما لا معنى له؛ لأن القرآن قدوة في التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحد وبلا مفعول أصلا بمعنى أخبرني، والجملة المستخبر عن مضمونها تسد مسد المفاعيل.. [٢]

"أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢)"

ثم تأتي هذه الجملة توبيخا على تفويت ما ينفع وما بعدها توبيخا على كسب ما يضر"[٣] ، وتأتي "أَرَأَيْتَ" في المواقف الثلاثة للتعجب، والمراد من الاستخبار: إنكار الحال المستخبر عنها وتقبيحها، مثل:﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾؟[٤]، وذلك أنه لما كان هذا أمراً خارجاً عن الحد في الطغيان، وكان السؤال إنما هو عن رؤية حاله في نهيه العبد عن الصلاة، لا عن رؤية ذاته ، فتشوف السامع إلى معرفة ذلك الحال ، كرر التقرير بزيادة التعجيب من حاله والتحذير، فقال مكرراً العامل زيادة في التأكيد وبياناً؛ لأن هذا في الحقيقة أول السؤال عن الحال: "أرأيت" أي أخبرني عن حاله، بمعنى ماذا ترى من حال هذا الأثيم الذي ينهى عبدا عن الصلاة، ويحول بينه وبينها؟ ثم أرأيت لو أنه كان في موقف آخر غير هذا الموقف، فكان قائما على طريق الهدى،

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ج٢ ص ٢٧ :٣٠ .

(٢) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ١٢٦ ، وكذا نقله عنه القاسمي في محاسن التأويل ج ٩ص ٥١٣.

(٣) روح المعاني ج ١٥ ص٤٠٨ .

(٤) الآية من سورة الماعون: [١] ، التفسير المنير ج ٣٠ص٣٢٢ .

مؤمنا بربه، موالیا له، آمرا بالبر والتقوى بدلا من نهيه عن البر والتقوى؟ فأي حاليه كان خيرا له وأهدى سبيلا ؟ أحال الضلال والعمى والصد عن سبيل الله، أم حال الاستقامة والهدى والدعوة إلى الله؟ وشتان بين الظلام والنور، والشر والخير، والكفر والإيمان![1] .

وعبر بأداة الاستعلاء إشارة إلى أنه في غاية الثبات والتمكن "إن كان" أي هذا الناهي، "على الهدى" أي الكامل في الهداية فكف عن نهي هذا المصلي عن خدمة مولاه الذي هو معترف بسيادته وإن ادعى كذباً أن له شريكاً كما أنه لا ينهى عن السجود للأصنام.[2] ويبن ابن عاشور كيفية هذا الاستعلاء بقوله: وقد أتى بلفظ عَلَى لِلِاسْتِعْلَاءِ الْمَجَازِيِّ وَهُوَ شِدَّةُ التَّمَكُّنِ مِنَ الْهُدَى بِحَيْثُ يُشْبِهُ تَمَكُّنُ الْمُسْتَعْلِي عَلَى الْمَكَانِ ".[3]

وَالْخِطَابُ فِي أَرَأَيْتَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَكَذَا أَرَأَيْتَ الثَّانِي، وَالتَّنَاسُقُ فِي الضَّمَائِرِ هُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ النَّظْمُ. يقول الرازي في ذلك مدللا على صحة هذا الرأي:" وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَهُوَ قَوْلُهُ: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالثَّالِثُ وَهُوَ قَوْلُهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَوْ جَعَلْنَا الْوَسَطَ لِغَيْرِ النَّبِيِّ لَخَرَجَ الْكَلَامُ عَنِ النَّظْمِ الْحَسَنِ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ يَا مُحَمَّدُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ هَذَا الْكَافِرُ، وَلَمْ يَقُلْ: لَوْ كَانَ إِشَارَةً إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَرَأَيْتَ إِنْ صَارَ عَلَى الْهُدَى، وَاشْتَغَلَ بِأَمْرِ نَفْسِهِ، أَمَا كَانَ يَلِيقُ بِهِ ذَلِكَ إِذْ هُوَ رَجُلٌ عَاقِلٌ ذُو ثَرْوَةٍ، فَلَوِ اخْتَارَ الدِّينَ وَالْهُدَى وَالْأَمْرَ بِالتَّقْوَى، أَمَا كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالنَّهْيِ عَنْ خِدْمَتِهِ وَطَاعَتِهِ، كَأَنَّهُ ﷻ يَقُولُ: تَلَهَّفْ عَلَيْهِ كَيْفَ فَوَّتَ عَلَى نَفْسِهِ الْمَرَاتِبَ الْعَالِيَةَ وَقَنِعَ بِالْمَرَاتِبِ الدَّنِيئَةِ.[4]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص ١٦٢٨ ، ١٦٢٩ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢٢ ص ١٦٤ ، ١٦٥ بتصرف .

(٣) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٨ .

(٤) تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢٢٢ ، البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٩ .

أو أن في الآية التفات، فَأَرَأَيْتَ خِطَابٌ لِلْكَافِرِ الْتَفَتَ إِلَى الْكَافِرِ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ يَا كَافِرُ، إِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ هُدًى وَدُعَاءً إِلَى اللَّهِ وَأَمْرًا بِالتَّقْوَى، أَتَنْهَاهُ مَعَ ذَلِكَ؟ وَالضَّمِيرُ فِي إِنْ كانَ، وَفِي إِنْ كَذَّبَ عَائِدٌ عَلَى النَّاهِي.(١)، لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ كَالْمُشَاهِدِ لِلظَّالِمِ وَالْمَظْلُومِ، وَكَالْمَوْلَى الَّذِي قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَبْدَانِ، وَكَالْحَاكِمِ الَّذِي حَضَرَ عِنْدَهُ الْمُدَّعِي، وَالْمُدَّعَى عَلَيْهِ فَخَاطَبَ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً. فَلَمَّا قَالَ لِلنَّبِيِّ: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى الْتَفَتَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْكَافِرِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ يَا كَافِرُ إِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ هُدًى وَدُعَاؤُهُ إِلَى اللَّهِ أَمْرًا بِالتَّقْوَى أَتَنْهَاهُ مَعَ ذَلِكَ.(٢) وقيل خطاب عام له ولأمته، والمراد به على الوجهين هدايته، ويكون في الكلام محذوف، وتقديره: هكذا كان يفعل به". (٣) فهو تَعْجِيبٌ آخَرُ من حَال مَفْرُوض وُقُوعُهُ ، أَيْ أَتَظُنُّهُ يَنْهَى أَيْضًا عَبْدًا مُتَمَكِّنًا مِنَ الْهُدَى فَتَعْجَبُ مِنْ نَهْيِهِ. وَالتَّقْدِيرُ: أَرَأَيْتَهُ إِنْ كَانَ الْعَبْدُ عَلَى الْهُدَى أَيَنْهَاهُ عَنِ الْهُدَى، أَوْ إِنْ كَانَ الْعَبْدُ آمِرًا بِالتَّقْوَى أَيَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الظَّنُّ بِهِ فَيَعْجَبُ الْمُخَاطَبُ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ يَنْهَى عَنِ الصَّلَاةِ وَهِيَ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ نَهَى عَنِ الْهُدَى، وَيُوشِكُ أَنْ يَنْهَى عَنْ أَن يَأْمر أحد بِالتَّقْوَى ". (٤)

والتقوى مأخوذة من الوِقَايَةُ وهي: حفظُ الشيءِ مما يؤذيه ويضرّه. يقال: وَقَيْتُ الشيءَ أَقِيهِ وِقَايَةً ووِقَاءً. قال ﷻ: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾(٥)، "وَوَقَاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ"(٦)، "قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً"(٧)والتَّقْوَى جعل النفس في وِقَايَةٍ مما يخاف، هذا تحقيقه ، وصار التَّقْوَى في تعارف الشّرع حفظ النفس عمّا يؤثم، وذلك بترك

---

(١) البحر المحيط في التفسير ج ١٠ ص ٥٠٩ .

(٢) تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢٢٢ :٢٢٤ .

(٣) تفسير الماوردي " النكت والعيون ج٦ ص ٣٠٧ .

(٤) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٧ .

(٥) الإنسان من الآية : [١١]

(٦) الدخان من الآية: [٥٦] .

(٧) التحريم من الآية: [٦] .

المحظور ، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات لما روي: "الحلال بيّن، والحرام بيّن، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه" (١)

وهاهنا سُؤَالٌ وَهُوَ أَنَّ الْمَذْكُورَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ هُوَ الصَّلَاةُ وَهُوَ قَوْلُهُ: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى والمذكور هاهنا أَمْرَانِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدى فِي فِعْلِ الصَّلَاةِ، فَلِمَ ضَمَّ إِلَيْهِ شَيْئًا ثَانِيًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى؟ جَوَابُهُ: مِنْ وُجُوهٍ أَحَدُهَا: أَنَّ الَّذِي شَقَّ عَلَى أَبِي جَهْلٍ مِنْ أَفْعَالِ الرَّسُولِ ﷺ هُوَ هَذَانِ الْأَمْرَانِ الصَّلَاةُ وَالدُّعَاءُ إِلى الله، فلا جرم ذكرهما هاهنا، وَثَانِيهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي أَحَدِ أَمْرَيْنِ، إِمَّا فِي إِصْلَاحِ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ بِفِعْلِ الصَّلَاةِ أَوْ فِي إِصْلَاحِ غَيْرِهِ، وَذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِالتَّقْوَى وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ ﷺ كَانَ فِي صَلَاتِهِ عَلَى الْهُدَى وَآمِرًا بِالتَّقْوَى، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ رَآهُ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ كَانَ يَرِقُّ قَلْبُهُ فَيَمِيلُ إِلَى الْإِيمَانِ، فَكَانَ فِعْلُ الصَّلَاةِ دَعْوَةً بِلِسَانِ الْفِعْلِ، وَهُوَ أَقْوَى مِنَ الدَّعْوَةِ بِلِسَانِ الْقَوْلِ. (٢)

أو لعله ذكر الأمر بالتقوى في التعجب والتوبيخ في الجملة الثانية؛ لأن النهي على ما قيل كان عن الصلاة والأمر بها وكان الظاهر عليه أن يذكر في الجملة الأولى أيضا بأن يقال أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى أو أمر بالتقوى ، لكنه حذف اكتفاء بذكره في الثانية، واقتصر على ذكر الصلاة ولم يعكس لأن الأمر بالتقوى دعوة قولية، والصلاة دعوة فعلية والفعل أقوى من القول. وإنما كانت دعوة وأمرا لأن المقتدى به إذا فعل فعلا كان في قوة قوله افعلوا هذا. وقيل المذكور أولا ليس النهي عن الصلاة بل النهي حين الصلاة وهو محتمل أن يكون لها أو لغيرها، وعامة أحوال الصلاة لما انحصرت في تكميل نفس المصلي بالعبادة وتكميل غيره بالدعوة فنهيه في تلك الحالة يكون عن الصلاة والدعوة معا فلذا ذكر في الجملة الثانية، فلا تغفل. (٣)

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٨٨١ ،مادة " وَقَى" .

(٢) تفسير الرازي " مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ج٣٢ ص ٢٢٢ :٢٢٤ .

(٣) تفسير البيضاوي ج٥ ص ٣٢٦ ، روح المعاني ج١٥ص٤٠٧ .

وهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ نَزَلَتْ فِي حَقِّ أَبِي جَهْلٍ فَكُلُّ مَنْ نَهَى عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَهُوَ شَرِيكُ أَبِي جَهْلٍ فِي هَذَا الْوَعِيدِ. (١)

"أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) "

وبعد كل هذا التعجب هنا خطاب آخر، فمن المقصود به ؟ يقول الرازي رحمه الله تعالى:" فِيهِ قَوْلَانِ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ خِطَابٌ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الدَّلَائِلَ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ جَلِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ بِبَدِيهَةِ عَقْلِهِ، أَنَّ مَنْعَ الْعَبْدِ مِنْ خِدْمَةِ مَوْلَاهُ فِعْلٌ بَاطِلٌ وَسَفَهٌ ظَاهِرٌ، فَإِذَنْ كُلُّ مَنْ كَذَّبَ بِتِلْكَ الدَّلَائِلِ وَتَوَلَّى عَنْ خِدْمَةِ مَوْلَاهُ بَلْ مَنَعَ غَيْرَهُ عَنْ خِدْمَةِ مَوْلَاهُ يَعْلَمُ بِعَقْلِهِ السَّلِيمِ أَنَّهُ عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا عِنَادًا ، فَلِهَذَا قَالَ ﷻ لِرَسُولِهِ: أَرَأَيْتَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كَذَّبَ هَذَا الْكَافِرُ بِتِلْكَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ، وَتَوَلَّى عَنْ خِدْمَةِ خَالِقِهِ، أَلَمْ يَعْلَمْ بِعَقْلِهِ أَنَّ اللَّهَ يَرَى مِنْهُ هَذِهِ الْأَعْمَالَ الْقَبِيحَةَ وَيَعْلَمُهَا، أَفَلَا يَزْجُرُهُ ذَلِكَ عَنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَالثَّانِي: أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْكَافِرِ، وَالْمَعْنَى إِنْ كَانَ يَا كَافِرُ مُحَمَّدٌ كَاذِبًا أَوْ مُتَوَلِّيًا، أَلَا يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى حَتَّى يَنْتَهِيَ بَلِ احتاج إلى نهيك. (٢)

ولابن عاشور وقفة إلى من يرجع الضمير فيقول:" وَقَرِينَةُ الْمَقَامِ تُرْجِعُ الضَّمَائِرَ إِلَى مَرَاجِعِهَا الْمُخْتَلِفَةِ. وَحُذِفَ مَفْعُولُ كَذَّبَ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ. وَالتَّقْدِيرُ: إِنْ كَذَّبَهُ، أَيِ الْعَبْدُ الَّذِي صَلَّى، وَبِذَلِكَ انْتَظَمَتِ الْجُمَلُ الثَّلَاثُ فِي نِسْبَةِ مَعَانِيهَا إِلَى الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى وَإِلَى الْعَبْدِ الَّذِي صَلَّى، وَانْدَفَعَتْ عَنْكَ تَرَدُّدَاتٌ عَرَضَتْ فِي التَّفَاسِيرِ. (٣)

ما الذي كذب به ؟ فيه وجهان: أحدهما: كذب بالله وتولى عن طاعته . الثاني: كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان. ويحتمل ثالثاً: كذب بالرسول وتولى عن القبول. (٤)

---

(١) – تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢٣ .

(٢) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢٣ .

(٣) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٩ .

(٤) تفسير الماوردي ج٦ ص ٣٠٧

وعلى كِلا الرأيين فهو إعراض عن الله وعن منهجه .

وَفِي الآية إِيذَانٌ لِلنَّبِيﷺ بِأَنْ أَبَا جَهْلٍ سَيُكَذِّبُهُ حِينَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَسَيَتَوَلَّى، وَوَعْدٌ بِأَن الله ينتصف لَهُ مِنْهُ. وَضَمِيرُ كَذَّبَ وَتَوَلَّى عَائِدٌ إِلَى الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذا صَلَّى . (١)

وقد أفردَ التكذيبَ والتولّي بشرطيةٍ مستقلةٍ مقرونةٍ بالجوابِ مصدرةٍ باستخبارٍ مستأنفٍ ولم ينظمَا في سلكِ الشرطِ الأولِ بعطفهما على كانَ للإيذانِ باستقلالهما بالوقوعِ في نفسِ الأمرِ واستتباعِ الوعيدِ الذي ينطقُ بهِ الجوابُ وأما القسمُ الأولُ فأمرٌ مستحيلٌ قد ذكر في حيز الشرط لتوسيعِ الدائرةِ وهو السرُّ في تجريدِ الشرطيةِ الأولى عنِ الجوابِ والإحالةِ بهِ على جوابِ الثانيةِ "(٢).

"أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤)"

ثم يأتي الاستئناف لِإِنْكَارِ جَهْلِ الْمُكَذِّبِ بِأَنَّ اللَّهَ سَيُعَاقِبُهُ، بالتَّهْدِيدُ بِالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، وإكمال التوبيخ والوعيد، وَحُذِفَ مَفْعُولُ يَرى لِيَعُمَّ كُلَّ مَوْجُودٍ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ ﷻ عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ حَكِيمٌ لَا يُهْمِلُ، عَالِمٌ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، فَلَا بُدَّ وَأَنَّ يُوصِلَ جَزَاءَ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِ بِتَمَامِهِ فَيَكُونُ هَذَا تَخْوِيفًا شَدِيدًا لِلْعُصَاةِ، وَتَرْغِيبًا عَظِيمًا لِأَهْلِ الطَّاعَةِ. (٣) يقول الفراء:" الْمَعْنَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى وَهُوَ عَلَى الْهُدَى، وَأَمَرَ بِالتَّقْوَى، وَالنَّاهِي مُكَذِّبٌ مُتَوَلٍّ عَنِ الذِّكْرِ، أَيْ فَمَا أَعْجَبَ هَذَا! ثُمَّ يَقُولُ: وَيْلُهُ! أَلَمْ يَعْلَمْ أَبُو جَهْلٍ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ، أَيْ يَرَاهُ وَيَعْلَمُ فِعْلَهُ، فَهُوَ تَقْرِيرٌ وَتَوْبِيخٌ. (٤) وَضُمِّنَ فِعْلُ يَعْلَمْ مَعْنَى

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٩ .

(٢) إرشاد العقل السليم ج ٩ ص١٨٠ .

(٣) تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠٢ ، تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢٣ ، التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٩ .

(٤)معاني القرآن للفراء ج ٣ ص ٢٧٩ ، تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١٢٣، روح البيان ج١٠ ص ٤٧٥ ، ٤٧٦.

يُوقِنُ فَلِذَلِكَ عُدِّيَ بِالْبَاءِ. وَعُلِّقَ فِعْلُ أَرَأَيْتَ هُنَا عَنِ الْعَمَلِ لِوُجُودِ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ : أَلَمْ يَعْلَمْ وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ ، أَيْ كَانَ حَقُّهُ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ وَيَقِيَ نَفْسَهُ الْعِقَابَ. (١)

ولم تكن هذه هي الصورة الأولى من صور التهديد، بل سبقتها "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى" ،بل هو مسلسل من التهديد والوعيد متصل بعضه ببعض، كل حلقة أشد من الأخرى، كل حلقة تقتضي إذلال هذا الكائن المغتر بحياته وقوته وجاهه، وهي صورة متكررة معنا كل يوم وخاصة أننا نعيش زمن السلطة والنفوذ الظالمين ، وكأن من يبطش لن يموت ، ولذا هذا الحديث توجيه لكل سامع في كل مكان وزمان ، فلكل عصر فراعنته ، ومن صور التوعد والإذلال لهذا المغرور :

– "كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ" أي ليرتدع ويترجر هذا الناهي عن البرّ والعبادة للّه ﷻ، فو اللّه لئن لم ينته ولم يترجر عن الشقاق والعناد، لنأخذن بناصيته، ولنجرّنه إلى النار. وفي هذا توعد شديد .

– "فَلْيَدْعُ نادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ" أي فليدع قومه وعشيرته، ليستنصر بهم ويعينوه . وفي هذا تحدّ بالغ.– "كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" أي إياك يا محمد أن تجامل هذا الطاغية في شيء، أو تطيعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، وصل للّه غير مكترث به، ولا تبال بتهديده أو نهيه، وتقرب إلى اللّه ﷻ بالطاعة والعبادة، فذلك يكسبك قوة وعزة، ومنعة وهيبة في قلوب الأعداء. ونهي النبيﷺ عن طاعة أبي جهل: قطع لكل الصلات والعلاقات معه، والمراد بالأمر بالسجود: أن يزداد غيظ الكافر. وهذا تهكم بهذا الطاغية، واستخفاف به، وتعريض بأن اللّه ﷻ عاصم نبيه وحافظه(٢) . هذا على وجه الإجمال، وسنعرض له بالتفصيل في حينه .

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٤٨ .

(٢) التفسير المنير ج ٣٠ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ بتصرف .

"كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦)"

نحن قوم لا نرضى الدنية في ديننا :

إن من ينظر لهذه الآيات وهي من المعلوم أنها نزلت في بدايات الدعوة، وفي زمن الاستضعاف، والدعوة في بدايتها تتوخى الحيطة والحذر وتتلافى كل صدام مع أهل الشرك والطغيان، إلا أن الأمر لَمَّا تعلق بالنهي والزجر عما أمر الله تبارك وتعالى هنا لم تعد المواجهة صامتة بل كانت في أقصى درجات العنف والمواجهة، وهو يثبت القوة العظيمة في الخُلق، لين في غير ضعف، وهي تنفي عما يظنه البعض بمفهوم عصرنا أنه "طيب" ويريدون بذلك الضعف، ويتغاضى عما لا يصح التغاضي عنه، إن القوة والجرأة في الحق والإيمان العميق في عون الله تعالى والثقة به والوقوف في وجه كل باغ مهما كان قويا عتيا عنيفا ، ومن هنا كان تحقيق قول الحق ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1] ،وقد أخرج البخاري في صحيحه بسنده عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ:"لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ المَلاَئِكَةُ"[2] .

ولقد جاءت الآيات مترابطة تمام الترابط في هذا السياق، يقول البقاعي : " ولما كان نفي العلم عنه يوهم أنه في عداد الغافلين الذي لا ملامة عليهم، بين أن انتفاء العلم عنه ليس عن غفلة يعذر صاحبها، إنما هو عن تهاون بالخير ورضى بالعمى والتقليد، فهو من قسم الضال الذي فرط في استعمال القوة العلمية المذكور في الفاتحة، فاستأنف الإخبار عنه في جواب من يقول: فما يفعل به؟ معبراً بأداة الشك إقامة له ولغيره في محل الرُجاء لانتهائه إبقاء للتكليف ومؤكداً لأنهم منكرون "لئن لم ينته" أي يفتعل هذا الناهي لهذا العبد المطيع فيقف ويكف عما هو فيه من نهيه وتكذيبه وتوليه. ولما كان الحال غير محتاج إلى أكثر من التأكد لإيقاع الفعل، عبر

---

(١) الأنعام من الآية : [١٢٤] .

(٢) صحيح البخاري كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ بَابُ {كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} .

بالحقيقة ولم ينقلها إشارة إلى أن هذا الناهي أقل من أن يحتاج فيه إلى فعل شديد، بل أقل نفحة من العذاب تكفي في إهلاكه، وما كان أصل التأكيد إلاّ تطييباً لقلوب الأولياء وتكذيباً للأعداء فقال "لنسفعاً" أي والله لنأخذن ونقبضن قبضاً وأخذاً بشدة وعنف مع الجر والاجتذاب واللطم والدفع والغيظ أخذ من يعض مأخوذه ويذله ويسود وجهه ويقذره "بالناصية " أي بالشعر الذي في مقدم رأسه وهو أشرف ما فيه، والعرب لا تأنف من شيء أنفتهم من أخذ الناصية، وإذا انتهكت حرمة الأشرف فما بالك بغيره . ولما كان من المعلوم أن من صار في القبضة على هذه الهيئة المهينة المزرية فهو هالك، اغتنى به عن أن يقول: ولنسحبنه بها على وجهه إلى النار. (١)

ويقول صاحب التفسير القرآني للقرآن:" كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ" هو ردّ على هذا السؤال فى قوله ﷻ: "أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى" كلا، إنه لا يعلم بأن الله مطلع على كل شيء، ولو كان يعلم هذا علما مستيقنا لخاف ربه وخشي بأسه، ولكن ضلاله أعمى قلبه، وأظلم بصيرته، فلم يرى جلال الله، ولم يشهد عظمته، ولم يخش بأسه! وقولهﷻ: "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ" هو وعيد وتهديد لهذا الضال إن لم يترع عن ضلاله، ويرعو عن غيه، ويثوب إلى رشده، ويؤمن بربه، ويستقم على الهدى لنسفعن بناصيته، أي لنجرنّه من رأسه جرّا إلى جهنم كما يقول ﷻ:"يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ" ، وفى هذا امتهان أي امتهان، وإذلال أي إذلال لهذا المتشامخ بأنفه، المتطاول برأسه! وقوله ﷻ: "ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ" أي هي رأس فارغة من كل خير، حشوها الكذب والضلال ، ونبتها الخطيئة والإثم، فكانت النار أولى بها، حطبا ووقودا. (٢)

وفي قوله "كَلَّا" وُجُوهٌ أَحَدُهَا: أَنَّهُ رَدْعٌ لِأَبِي جَهْلٍ وَمَنْعٌ لَهُ عَنْ نَهْيِهِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمْرِهِ بِعِبَادَةِ اللَّاتِ وَثَانِيهَا: كَلَّا لَئِنْ يَصِلَ أَبُو جَهْلٍ إِلَى مَا يَقُولُ إِنَّهُ يَقْتُلُ مُحَمَّدًا أَوْ يَطَأُ عُنُقَهُ، بَلْ تِلْمِيذُ مُحَمَّدٍ هُوَ الَّذِي يَقْتُلُهُ وَيَطَأُ صَدْرَهُ وَثَالِثُهَا: قَالَ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ بتصرف .

(٢) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ص١٦٢٩ ، ١٦٣٠.

مُقَاتِلٌ: كَلَّا لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرَى وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ لَكِنْ إِذَا كَانَ لَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَعْلَمُ فَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ.(١) ومما يؤيد الرأي الأول ما ذكره ابن عاشور بقوله:" كَلَّا أَكَّدَ الرَّدْعَ الْأَوَّلَ بِحَرْفِ الرَّدْعِ الثَّانِي فِي آخِرِ الْجُمْلَةِ وَهُوَ الْمَوْقِعُ الْحَقِيقُ لِحَرْفِ الرَّدْعِ إِذْ كَانَ تَقْدِيمُ نَظِيرِهِ فِي أَوَّلِ الْجُمْلَةِ ، لِمَا دَعَا إِلَيْهِ لِمَقَامٍ مِنَ التَّشْوِيقِ.(٢) واللامُ في قولِه ﷻ"لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ" موطئة للقسم المضمر أي والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم يرتجر "لَنَسْفَعاً بالناصية" لنأخذنَّ بناصيتهِ ولنسحبنّهُ بهَا إلى النَّار.(٣)

"لَنَسْفَعاً " قال أبو عمرو: اجتمع كتاب المصاحف على رسم النون الخفيفة ألفا وجملة ذلك موضعان: في يوسف "وليكونا من الصاغرين" وفي العلق "لنسفعا بالناصية" وذلك على مراد الوقف.(٤) وقال ابن فضال: "والنون في "لَنَسْفَعًا" نون التوكيد الخفيفة، والاختيار عن البصريين أن تكتب بالألف؛ لأن الوقف عليها بالألف، واختار الكوفيون: أن تكتب بالنون؛ لأنها نون في الحقيقة.(٥)

والسَّفْعُ : الأخذ بِسُفْعَةِ الفرس، أي: سواد ناصيته ، تقول العرب: سفعت بيدي ناصية الفرس، والرجل إذا جذبتها مذللا له، وبه سُفْعَةُ غضب، اعتبارا بما يعلو من اللّون الدّخانيّ وجه من اشتدّ به الغضب، وقيل للصّقر: أَسْفَعُ، لما به من لمع السّواد، وامرأة سَفْعَاءُ اللّون، والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدّة، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: " فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ(٦)، وفي قوله:" لَنَسْفَعاً" وُجُوهٌ أَحَدُهَا: لَنَأْخُذَنَّ بِنَاصِيَتِهِ وَلَنَسْحَبَنَّهُ بِهَا إِلَى النَّارِ، يقول الماوردي:قال ابن عباس: يعني لنأخذن بناصيته. وهو عند العرب أبلغ في الاستذلال والهوان، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا إذلال إنسان

---

(١) تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢٢٤.

(٢) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٤٩ .

(٣)إرشاد العقل السليم ج٩ص١٨٠ ، روح البيان ج١٠ ص ٤٧٦.

(٤) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص ٥٠ .

(٥) النكت في القرآن الكريم ص ٥٦٣ .

(٦) المفردات في غريب القرآن ص ٤١٣ مادة "سفع "، الكشاف ج ٤ ص٧٧٨ ، تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

وعقابه، سحبوه من شعر رأسه، وَثَانِيهَا: السَّفْعُ الضَّرْبُ، أَيْ لَنَلْطِمَنَّ وَجْهَهُ، وَثَالِثُهَا: لَنُسَوِّدَنَّ وَجْهَهُ، قَالَ الْخَلِيلُ: تَقُولُ لِلشَّيْءِ إِذَا لَفَحَتْهُ النَّارُ لَفْحًا يَسِيرًا يُغَيِّرُ لَوْنَ الْبَشَرَةِ قَدْ سَفَعَتْهُ النَّارُ، قَالَ: وَالسَّفْعُ ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يُوضَعُ عَلَيْهَا الْقِدْرُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِسَوَادِهَا، قَالَ: وَالسَّفْعَةُ سَوَادٌ فِي الْخَدَّيْنِ. وَبِالْجُمْلَةِ فَتَسْوِيدُ الْوَجْهِ عَلَامَةُ الْإِذْلَالِ وَالْإِهَانَةِ ، وَرَابِعُهَا: لَنَسِمَنَّهُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:"سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ" إِنَّهُ أبو جهل ، خامسها: لنذلنه .[1]

وتقول بنت الشاطئ:" وقيل في المجاز: سفع بناصيته، بمعنى اجتذبها بعنف قصد الإذلال والعقاب، مع ملحظ من اقتدار السافع وقوته وغلبته، والناصية قصاصة الشعر في مقدمة الرأس. ويستغنى بالناصية مجازاً عن الوجه وكل ما هو مقدم، فيقال لأشراف القوم: نواصيهم.ولم يأت السفع في القرآن الكريم إلا في آية العلق. أما الناصية فجاءت مرة في آية هود، بمعنى التمكن والاقتدار والتحكم:﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]. وجاءت بصيغة الجمع في آية الرحمن:﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[3]. وفيها مع ملحظ التمكن والتسلط والاقتدار، دلالة الهوان والإذلال والعقاب للمأخوذ بنواصيهم. ويقوى هذه الدلالة في آية العلق مجيءُ السفع بالناصية، بفعله المؤكد مسنداً إلى الله ﷻ، وذلك أقصى الترهيب والوعيد لذلك المغتر المفتون الذي ينهى عبداً إذا صلى. والسفع بالناصية فيها، يحمل على الجذب إلى النار، وعلى لفح السعير."[4] ويعبر صاحب الظلال في ظلاله عن هذا المشهد المُشيب بأسلوبه الرائع حيث يقول:" وأمام مشهد الطغيان الذي يقف في وجه

---

(١) النكت والعيون ج ٦ ص ٣٠٨ ، مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٢٢٤ ، التفسير الوسيط ج ١٥ ص ٤٥٦.

(٢) الآية [٥٦] .

(٣) الآية [٤١] .

(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم ج٢ ص ٣١ .

الدعوة وفي وجه الإيمان، وفي وجه الطاعة، يجيء التهديد الحاسم الرادع الأخير "كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ" إنه تهديد في إبانه، في اللفظ الشديد العنيف "كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ" هكذا "لَنَسْفَعاً" بهذا اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه، والسفع: الأخذ بعنف، والناصية: الجبهة. أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر. مقدم الرأس المتشامخ، إنها ناصية تستحق السفع والصرع، "ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ"!.(١)

وَقد أَكَّدَ ذَلِكَ السَّفْعَ بِالْبَاءِ الْمَزِيدَةِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْمَفْعُولِ لِتَأْكِيدِ اللُّصُوقِ.(٢)

لكن هل سيكون هذا السفع في الدنيا أم في الآخرة ؟

يقول الفخر الرازي:" هَذَا السَّفْعُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ إِلَى النَّارِ فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا أَيْضًا عَلَى وُجُوهٍ أَحَدُهَا: مَا رُوِيَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ لَمَّا قَالَ: إِنْ رَأَيْتُهُ يُصَلِّي لَأَطَأَنَّ عُنُقَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ، وَأَمَرَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام بِأَنْ يَقْرَأَ عَلَى أَبِي جَهْلٍ وَيَخِرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا فِي آخِرِهَا فَفَعَلَ، فَعَدَا إِلَيْهِ أَبُو جَهْلٍ لِيَطَأَ عُنُقَهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ رَاجِعًا، فقيل له مالك؟ قَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَحْلًا فَاغِرًا فَاهُ لَوْ مَشَيْتُ إِلَيْهِ لَالْتَقَمَنِي، وَقِيلَ: كَانَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى كَتِفَيْهِ فِي صُورَةِ الْأَسَدِ وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ يَوْمَ بَدْرٍ فَيَكُونُ ذَلِكَ بِشَارَةً بِأَنَّهُ تَعَالَى يُمَكِّنُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ نَاصِيَتِهِ حَتَّى يَجُرُّونَهُ إِلَى الْقَتْلِ إِذَا عَادَ إِلَى النَّهْيِ، فَلَمَّا عَادَ لَا جَرَمَ مَكَّنَهُمُ اللَّهُ ﷻ مِنْ نَاصِيَتِهِ يَوْمَ بَدْرٍ، رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ الرَّحْمَنِ عَلَّمَ القرآن قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ مَنْ يَقْرَؤُهَا مِنْكُمْ عَلَى رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ، فَتَثَاقَلُوا مَخَافَةَ أَذِيَّتِهِمْ، فَقَامَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَجْلَسَهُ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَقُمْ إِلَّا ابْنُ مَسْعُودٍ، ثُمَّ ثَالِثًا كَذَلِكَ إِلَى أَنْ أَذِنَ لَهُ، وَكَانَ ﷺ يُبْقِي عَلَيْهِ لِمَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ ضَعْفِهِ وَصِغَرِ جُثَّتِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهِمْ فَرَآهُمْ

---

(١) في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٩٤٢ .

(٢) التحرير والتنوير ج٣٠ص٤٤٩ .

مُجْتَمِعِينَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، فَافْتَتَحَ قِرَاءَةَ السُّورَةِ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ فَلَطَمَهُ فَشَقَّ أُذُنَهُ وَأَدْمَاهُ ، فَانْصَرَفَ وَعَيْنَاهُ تَدْمَعُ، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ رَقَّ قَلْبُهُ وَأَطْرَقَ رَأْسَهُ مَغْمُومًا، فَإِذَا جِبْرِيلُ عليه السلام يَجِيءُ ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ تَضْحَكُ وَابْنُ مَسْعُودٍ يَبْكِي! فَقَالَ: سَتَعْلَمُ، فَلَمَّا ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ الْتَمَسَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَظٌّ فِي الْمُجَاهِدِينَ، فَأَخَذَ يُطَالِعُ الْقَتْلَى فَإِذَا أَبُو جَهْلٍ مَصْرُوعٌ يَخُورُ، فَخَافَ أَنَّ تَكُونَ بِهِ قُوَّةٌ فَيُؤْذِيَهُ فَوَضَعَ الرُّمْحَ عَلَى مِنْخَرِهِ مِنْ بعيد فَطَعَنَهُ، وَلَعَلَّ هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ:"سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ" ثُمَّ لَمَّا عَرَفَ عَجْزَهُ وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَصْعَدَ عَلَى صَدْرِهِ لِضَعْفِهِ فَارْتَقَى إِلَيْهِ بِحِيلَةٍ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو جَهْلٍ قَالَ: يَا رُوَيْعِيَّ الْغَنَمِ لَقَدِ ارْتَقَيْتَ مُرْتَقًى صَعْبًا، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: بَلِّغْ صَاحِبَكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْهُ فِي حَيَاتِي ولا أحد أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْهُ فِي حَالِ مَمَاتِي، فَرُوِيَ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ: "فِرْعَوْنِي أَشَدُّ مِنْ فِرْعَوْنِ مُوسَى فَإِنَّهُ قَالَ آمَنْتُ وَهُوَ قَدْ زَادَ عُتُوًّا" ثُمَّ قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: اقْطَعْ رَأْسِي بِسَيْفِي هَذَا لِأَنَّهُ أَحَدُّ وَأَقْطَعُ ، فَلَمَّا قَطَعَ رَأْسَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى حَمْلِهِ، وَلَعَلَّ الْحَكِيمَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا خَلَقَهُ ضَعِيفًا لِأَجْلِ أَنْ لَا يَقْوَى عَلَى الْحَمْلِ لِوُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ كَلْبٌ وَالْكَلْبُ يُجَرُّ وَالثَّانِي: لِشَقِّ الْأُذُنِ فَيَقْتَصُّ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالثَّالِثُ: لِتَحْقِيقِ الْوَعِيدِ المذكور بقوله: لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ فَتُجَرُّ تِلْكَ الرَّأْسُ عَلَى مُقَدَّمِهَا، ثُمَّ إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ لَمَّا لَمْ يُطِقْهُ شَقَّ أُذُنَهُ وَجَعَلَ الْخَيْطَ فِيهِ وَجَعَلَ يَجُرُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجِبْرِيلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَضْحَكُ، وَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أُذُنٌ بِأذن لكن الرأس هاهنا مَعَ الْأُذُنِ، فَهَذَا مَا رُوِيَ فِي مَقْتَلِ أَبِي جَهْلٍ نَقَلْتُهُ مَعْنًى لَا لَفْظًا.(١) يقول ابن جزي: " ويظهر لي أن هذا الوعيد نفذ عليه يوم بدر حين قتل وأخذ بناصيته فجرّ إلى القليب"(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) تفسير ابن جزي " التسهيل لعلوم التنزيل" ج٢ ص ٤٩٧ .

وَالْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ فَهِيَ عِظَةٌ لِلنَّاسِ، وَتَهْدِيدٌ لِمَنْ يَمْتَنِعُ أَوْ يَمْنَعُ غَيْرَهُ عَنِ الطَّاعَةِ.(١)

"النَّاصِيَةُ" هُنَا أَطْلَقَ النَّاصِيَةَ، وَأَرَادَ صَاحِبَهَا عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي إِطْلَاقِ الْبَعْضِ وَإِرَادَةِ الْكُلِّ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَفِي الْقُرْءَانِ، فَمِنْ أَمْثِلَتِهِ فِي الْقُرْءَانِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَقَوْلُهُ ﷻ: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ" ، يَعْنِي أَبَا لَهَبٍ، وَقَوْلُهُ: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ يَعْنِي بِمَا قَدَّمْتُمْ. وَمِنْ ذَلِكَ تَسْمِيَةُ الْعَرَبِ الرَّقِيبَ عَيْنًا .(٢) والناصية هي شَعْرُ الْجَبْهَةِ وَقَدْ يُسَمَّى مَكَانُ الشَّعْرِ النَّاصِيَةَ، ثُمَّ إِنَّهُ ﷻ كنى هاهنا عَنِ الْوَجْهِ وَالرَّأْسِ بِالنَّاصِيَةِ، وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِيهِ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ شَدِيدَ الِاهْتِمَامِ بِتَرْجِيلِ تِلْكَ النَّاصِيَةِ وَتَطْيِيبِهَا، وَرُبَّمَا كَانَ يَهْتَمُّ أَيْضًا بِتَسْوِيدِهَا فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ يُسَوِّدُهَا مَعَ الْوَجْهِ.(٣) أو لأن السفع بها غاية الإذلال عند العرب إذ لا يكون إلّا مع مزيد التمكن والاستيلاء ولأن عادتهم ذلك في البهائم.(٤)

وقال بالناصية ولم يقل بناصيته وَاكْتَفَى بِتَعْرِيفِ الْعَهْدِ عَنِ الْإِضَافَةِ، إِذْ عُلِمَ أَنَّهَا نَاصِيَةُ النَّاهِي.(٥) وقيل: الضميرُ محذوفٌ، أي: الناصية منه.(٦) وقوله "نَاصِيَةٍ كاذبة خَاطِئَةٍ" بدلٌ منَ الناصيةِ وإنَّما جازَ إبدالُها منَ المعرفةِ وهي نكرةٌ لوصفِها فاسْتَقَلَّتْ بفائدةٍ، وهذا مذهبُ الكوفيين لا يُجيزون إبدال نكرةٍ مِنْ غيرها إلاَّ بشرط وَصْفِها أو كونها بلفظِ الأولِ، ومذهبُ البصريين لا يَشْتَرِطُ شيئاً، وقرأ الكسائي في روايةٍ بالرفع على إضمارِ هي ناصية، وقرأ أبو حيوة وابنُ أبي عبلةَ وزيدُ بن علي بالنصبِ وكلاهُما على الذمِّ والشتمِ، وحكى الفراء: أن بعضهم قرأ "نَاصِيَةٌ" بالنصب

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص ٢٧٩، منع جواز المجاز ص٣١ .

(٣) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٢٢٥ .

(٤) روح المعاني ١٥ص٤٠٩ .

(٥) البحر المحيط ج ١٠ ص ٥١١ .

(٦) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج١١ ص ٦١ .

على تقدير: لنسفعاً بها ناصية، ينصها على القطع، ووصفُها بالكذبِ والخطأ على الإسنادِ المجازيِّ وهُمَا في الحقيقة لصاحبها وفيه من الجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطئ[١]، كأن الكافر بلغ في الكذب قولا والخطأ فعلا إلى حيث أن كلا من الكذب والخطأ ظهر من ناصيته .[٢]

وَإِنَّمَا وُصِفَ بِالْكَذِبِ لِأَنَّهُ كَانَ كَاذِبًا عَلَى اللَّهِ ﷻ فِي أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ مُحَمَّدًا وَكَاذِبًا عَلَى رَسُولِهِ فِي أَنَّهُ سَاحِرٌ أَوْ كَذَّابٌ أَوْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ، وَقِيلَ: كَذَّبَهُ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي نَادِيًا"[٣]،وخاطئا بما تعرض له ﷺ بأنواع الأذية.

"خَاطِئَةٍ " الخاطِئُ هو القاصد للذنب"[٤]، وعنه قول بن الحسن : الخاطئ، فالمخطِئُ من أراد الصواب فصار إلى غيره، والخاطِئُ: من تعمد لما لا ينبغي"[٥] ووصفت الناصية بأنها خاطئة مبالغة في تعمد هذا الإنسان لارتكاب المنكر، على حد قولهم: نهار صائم، أى: صائم صاحبه، ولأن الناصية هي مظهر الغرور والكبرياء.[٦]. يقول الشيخ الشنقيطي :" وَقَوْلُهُ: "خَاطِئَةٍ"، لَا يُعَارِضُهُ قَوْلُهُ ﷻ:" وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ" ، لِأَنَّ الْخَاطِئَ هُوَ فَاعِلُ الْخَطِيئَةِ أَوِ الْخِطْءِ بِكَسْرِ الْخَاءِ، وَكِلَاهُمَا الذَّنْبُ، كَمَا بَيَّنَهُ قَوْلُهُ ﷻ: مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ". وَقَوْلُهُ:" إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ". فَالْخَاطِئُ الْمُذْنِبُ عَمْدًا، وَالْمُخْطِئُ مَنْ صَدَرَ مِنْهُ الْفِعْلُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَهُوَ مَعْذُورٌ.[٧]

---

(١) الكشاف ج٤ ص ٧٧٨ ، النكت في القرآن الكريم ص ٥٦٤ ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج١١ ص ٦٠ ، ٦١ ، تفسير النسفي ج٣ ص ٦٦٣ ، ٣٦٤ ، إرشاد العقل السليم ج٩ص١٨٠ .

(٢) روح البيان ج١٠ ص ٤٧٧.

(٣) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢٥ ، اللباب في علوم الكتاب ج٢٠ ص ٤٢٣ .

(٤) المفردات للراغب مادة " خطأ " .

(٥) العباب الزاخر واللباب الفاخر مادة "خطأ" ، لرضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري القرشي الصغاني الحنفي (ت: ٦٥٠هـ) .

(٦) تفسير المراغي ج٣٠ص٢٠٤ ، التفسير الوسيط ج ١٥ ص ٤٥٦ .

(٧) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ج١ ص ٢٧٩.

إشارة من إشارات الإعجاز العلمي في القرآن[١] :

رأينا ما قاله المفسرون من أن المراد ليست ناصية كاذبة، وإنما المراد معنى مجازي وليس حقيقياً فهو من باب المجاز لا من باب الحقيقة ناصية كاذب خاطئ. ولما كانت الناصية هي مقدمة الرأس فأطلق عليها صفة الكذب، والمقصود صاحبها، لكن قد وصل العلم الحديث إلى أن التحكم في الحركات والأفعال الإرادية تكمن في الفص الجبهي وأن البرامج الحركية تزود بها القشرة الحركية من الفص الجبهي من خلال القشرة قبل الحركية. ومن المعروف أن قشرة الدماغ هي المكان الذي يقوم بجميع الوظائف الواعية أو الإرادية الحركية وعليه فإنه يمكن القول باطمئنان: إن قشرة الفص الجبهي هي المسؤولة عن إرسال القرار الحركي الإرادي لأجزاء الجسم . بما في ذلك حركة اللسان بنطق الألفاظ؛ وحركة الرأس والعينين لتركيز النظر في اتجاه وغرض محدد، بناء على ما ترسخ فيها من معلومات مسبقة والتي تتمثل في فطرة الله أو فطرة الإيمان، وما اكتسبته من معلومات خارجية أخرى لتوجيه وضبط السلوك والتصرفات. لذلك يمكن أن نقول: إن حمل أمانة التكليف أو حرية الاختيار للأقوال والأفعال تكمن في الفص الجبهي للمخ أو الناصية والله أعلم.

ووجه الإعجاز في ذلك أن أشار القرآن الكريم إلى أن ملاك أمر دواب الأرض كلها بما فيها الإنسان ومكان تسيير شئونها وقيادتها يكمن في ناصيتها في قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾[٢] ووصف الله سبحانه ناصية الإنسان بالكذب والخطأ ويتبع ذلك لزوماً وصفها بصفات الصدق والصواب وهذا الوصف

---

(١) ينظر في ذلك من أراد البحث بتمامه إلى :

{ /http://m.quran-m.com،١٢٧١http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no

موقع موسوعة الاعجاز العلمي ، الهيئة العالمية للاعجاز العلمي : من بحوث ومقالات العدد الثاني من مجلة الإعجاز العلمي ١/ ٥ / ١٤١٧ ه ، ١٤ /٩ /١٩٩٦ م بحث تحت عنوان " الناصية ووظيفة الفص الجبهي للدماغ.. دراسة إعجازية لسورة العلق " أ.د محمد يوسف سكر .

(٢) هود من الآية :[٥٦].

وصف حقيقي للناصية بصفات سلوكية في قوله تعالى "ناصية كاذبة خاطئة" وقد ثبت في هذا البحث أن الفص الجبهي للدماغ يقبع داخل عظام ناصية الإنسان أو مقدم جبهته تقع في مراكز التحكم في القيام بالحركات والأعمال الطوعية واختيار ونطق الكلمات، ومركز توجيه ونطق النظر في اتجاه مقصود ومحدد. كما أن مساحة قشرة الفص الجبهي تمثل المساحة الكبر من قشرة الدماغ كله، والتي تؤدي دوراً حيويًا بارزاً في التحكم الإرادي من خلال المعلومات والخبرات المختزنة فيها، بعد تحليلها واختزانها لمركز التفكير والعقل، والذي ثبت وجوده أيضاً في الفص الجبهي، واستطاع العلماء تصويره وتحديد مكانه. وبناء على ذلك يمكننا القول باطمئنان: إن القرآن الكريم أشار إلى دور الفص الجبهي في الدماغ الذي يقع داخل الناصية في توجيه السلوك الإنساني، بالتحكم في الأقوال والأعمال من خلال وجود مراكز تكوين الألفاظ والتحكم في الحركات المتعلقة بالنطق والنظر وجميع الحركات الإرادية لكل أجزاء الجسم، ووجود مساحة شاسعة من قشرة الدماغ في هذا الفص تتيح للإنسان تحصيل وتحليل المعلومات المكتسبة مما يحقق له خبرة كبيرة في اختيار الأقوال والأفعال وتوجيه السلوك بمساعدة مركز العقل والإدراك الموجود في هذا الفص، لذلك يمكن ان يشار إلى قشرة الفص الجبهي – لما فيها من هذه المراكز والإمكانات – بأنها المنطقة المسؤولة عما يصدر من الخطأ والصواب والصدق والكذب، وهذا الاستنتاج يتوافق مع نصوص القران والسنة التي أشارت بوضوح لهذا الوظائف للفص الجبهي للدماغ الكائن خلف الجبهة أو الناصية، وهو ما لم يكن معروفاً للعلماء في ذلك الزمان، ولم تكتشف هذه الحقائق ألا النصف الثاني من هذا القرن بعد التقدم الهائل في الأجهزة والدراسات العميقة في علم وظائف الأعضاء ووظائف الفص الجبهي وملفات الدماغ... أليس هذا دليلا إضافيا على أن محمدا صلى الله عليه و سلم رسول من عند الله لا ينطق إلا بنور الله ووحيه، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾[1]

(١) النجم الآيات من[٣:٥] .

"فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)"

وجه آخر من أوجه التحدي وكسر الغرور بعد الوعيد :

أخرج الإمام أحمد في مسنده بإسناد قوي عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:" مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، فَانْتَهَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي، قَالَ: فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام:"فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ" قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:"وَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ، لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ الْعَذَابِ. "[1] وذلك لما كان هذا هو غاية الإهانة، وكان الكفار إنما يقصدون بأعراضهم الشماخة والأنفة والعز عن أن يكونوا أتباعاً أذناباً، وإنما عزهم بقومهم، وأقرب من يعتز به الإنسان أهل ناديه، وهم القوم الذين يجتمعون نهاراً ليحدث بعضهم بعضاً ويستروح بعضهم إلى بعضهم لما عندهم من التصافي لأنهم لا يتركون أشغالهم نهاراً ويجتمعون لذلك إلا عن ذلك، قال ﷺ مسبباً عن أخذه على هذا الوجه المزري "فليدع" أي دعاء استغاثة "ناديه" أي القوم الذين كانوا يجتمعون معه نهاراً يتحدثون في مكان ينادي فيه بعضهم بعضاً من أنصاره وعشيرته ليخلصوه مما هو فيه، ولما كان كأنه قيل: فلو دعا ناديه يكون ماذا؟ قال: "سندع" أي بوعد لا خلف فيه "الزبانية" أي الأعوان الموكلين بالنار ليجروه إليها.[2]

والأمر في قوله ﷺ: "فَلْيَدْعُ" للتعجيز، لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ تَحْرِيضًا لِلْكَافِرِ عَلَى دَعْوَةِ نَادِيهِ وَقَوْمِهِ، والكلام على حذف مضاف. أي: فليدع هذا الشقي المغرور أهله وعشيرته لإيذاء النبي ﷺ، ولمنعه من الصلاة إن قدروا على ذلك، فنحن من جانبنا سندع الزبانية، وهم الملائكة الغلاظ الموكلون بعقاب هذا المغرور وأمثاله. فَلَمَّا لَمْ يَجْتَرِئِ الْكَافِرُ عَلَى ذَلِكَ دَلَّ عَلَى ظُهُورِ مُعْجِزَةِ الرَّسُولِ ﷺ.[3] فَهَذِهِ الْآيَةُ مُعْجِزَةٌ خَاصَّةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ تَحَدَّى أَبَا جَهْلٍ بِهَذَا وَقَدْ سَمِعَ أَبُو جَهْلٍ الْقُرْآنَ

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة ج٤ ص ١٦٤ ح رقم ٢٣٢١ .

(٢) نظم الدرر ج ٢٢ ص ١٧٢ بتصرف . .

(٣) مفاتيح الغيب ج٣٢ ص٢٢٦ ،التفسير الوسيط ج ١٥ص ٤٥٨ .

وَسَمِعَهُ أَنْصَارُهُ فَلَمْ يُقْدِمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى السطو على الرَّسُول ﷺ مَعَ أَنَّ الْكَلَامَ يُلْهِبُ حَمِيَّتَهُ.(١)

"نَادِيَهُ" النَّادِي: اسْمٌ لِلْمَكَانِ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ الْقَوْمُ. يُقَالُ: نَدَا الْقَوْمُ نَدوا، إِذْ اجْتَمَعُوا. وَالنَّدْوَةُ بِفَتْحِ النُّونِ الْجَمَاعَةُ، وَيُقَالُ: نَادٍ وَنَدِيٌّ، وَلَا يُطْلِقُ هَذَا الِاسْمُ عَلَى الْمَكَانِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْقَوْمُ مُجْتَمِعِينَ فِيهِ فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهُ فَلَيْسَ بِنَادٍ، وَيُقَالُ النَّادِي لِمَجْلِسِ الْقَوْمِ نَهَارًا، فَأَمَّا مَجْلِسُهُمْ فِي اللَّيْلِ فَيُسَمَّى الْمُسَامَرَ قَالَ ﷻ:﴿ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾(٢)، وَإِضَافَةُ النَّادِي إِلَى ضَمِيرِهِ لِأَنَّهُ رَئِيسُهُمْ وَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ قَالَتْ إِعْرَابِيَّةٌ:"سَيِّدُ نَادِيهْ، وَثِمَالُ عَافِيهْ".(٣) وعُبِّرَ عن المجالسة بالنِّدَاء حتى قيل للمجلس: النَّادِي، والْمُنْتَدَى، والنَّدِيُّ، وقيل ذلك للجليس، ومنه سمّيت دار النَّدْوَة بمكَّةَ، وهو المكان الذي كانوا يجتمعون فيه.(٤) وقوله: "فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ" إمَّا أَنْ يكون حَذْفِ مضاف، أي: أهلَ نادِيه أو على التجوُّز في نداءِ النادي لاشتمالِه على الناس كقوله: ﴿ وَسْئَلِ القرية﴾(٥). (٦)

"سَنَدْعُ "المرسوم اتفق على كتابة سندع بحذف الواو. (٧) وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: سَنَدْعُ بِالنُّونِ مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ، وَكُتِبَتْ بِغَيْرِ وَاوٍ لِأَنَّهَا تَسْقُطُ فِي الْوَصْلِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ. وَقَرَأَ

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٥١ ، ٤٥٢.

(٢) الْمُؤْمِنُونَ من الآية: [٦٧].

(٣) التحرير والتنوير ج ٣٠ص٤٥٢. والثمال: الغياث، وثمال القوم غياثهم ومن يقوم بأمرهم، يُقَال: فلان ثمال لبنى فلان إذا كَانَ يقوم بأمرهم، ويكون أصلا لهم وغياثا، ويقَالَ: هُوَ يشملهم،وعافيه الذين يعفونه، أى: يأتونه،الأمالي لأبي علي القالي، (ت: ٣٥٦هـ) ج ١ ص ١٧، ١٨ ،ت: محمد عبد الجواد الأصمعي ، ط: دار الكتب المصرية ، ط: الثانية، ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦م .

(٤) المفردات في غريب القرآن ص ٧٩٧.

(٥) يوسف من الآية: [٨٢] .

(٦) الدر المصون ج١١ ص ٦١ .

(٧) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ٥٩١ .

ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ "سَيُدْعَى" مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ الزِّبَانِيَةُ رُفِعَ.[١] يقول الرازي:" قُرِئَ سَتُدْعَى على المجهول، وهذه السين ليست للشك فإن عَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبُ الْوُقُوعِ، وَخُصُوصًا عِنْدَ بِشَارَةِ الرَّسُولﷺ بِأَنْ يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَلَعَلَّ فَائِدَةَ السِّينِ هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ :"لَأَنْصُرَنَّكَ ولو بعد حين" . كما علق محقق النسخة على هذا القول بقوله:" السين من معانيها التأكيد للوعد والوعيد، نحو قوله ﷻ:"فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ" ونحو سأنتقم منك، ولم أقل على أنها للشك ولعل الإمام أراد التأكيد بنفي مقابله وهو الشك. لأن أبا جهل كان شاكا في الآخرة."[٢]

يقول البقاعي:" وقد اجتمعت المصاحف العثمانية على حذف الواو من هذا الفعل خطا، ولا موجب لحذفه من العربية لفظاً ، وكأن المعنى في ذلك –والله أعلم– أن لا يظن أنهم دعوا لرفعة لهم في ذواتهم يستعان بهم بسببها لأن معنى الواو عند الربانيين العلو والرفعة، إشارة إلى أنهم لا قوة لهم إلا بالقوي العزيز، أو يقال: إن الحذف دال على تشبيه الفعل بالأمر ليدل على أن هذا الدعاء أمر لا بد من إيقاع مضمونه، ومن إجابة المدعوين إلى ما دعوا إليه، وأن ذلك كله يكون على غاية الإحكام، والاتساق بين خطه ومعناه والانتظام، لاسيما مع التأكيد بالسين، الدال على تحتم الاتحاد والتمكين، أو يكون المعنى: إنا ندعوهم بأيسر دعاء وأسهل أمر، فيكون منهم ما لا يطاق ولا يستطاع دفاعه بوجه، فكيف لو أكدنا دعوتهم وقوينا عزمتهم.[٣] وذكر ذلك الشيخ إسماعيل حقي من اجتماع المصاحف العثمانية على حذف الواو من سندع خطا ولا موجب للحذف من العربية لفظا، وزاد قائلا :" ولعله للمشاكلة مع فليدع، أو للتشبيه بالأمر في أن الدعاء أمر لا بد منه، ونقل قول ابن خالويه في إعراب الثلاثين سورة : الأصل سندعو بالواو غير أن الواو ساكنة فاستقبلتها اللام ساكنة فسقطت الواو فبنوا الخط عليه في المصحف من سندع ويدع

---

(١) البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥١١ ، ٥١٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٢٢٦ .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج٢٢ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

الإنسان ويمح الله الباطل وكذلك الياء من واد النمل وان الله لهاد الذين آمنوا والعلة فيها ما أنبأتك من بنائهم الخط على اللفظ.[١]

"الزَّبَانِيَةَ": أَيِ الْمَلَائِكَةَ الْغِلَاظَ الشِّدَادَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعطاء، وقال مقاتل: هم خَزَنَةُ جهنم، وَاحِدُهُمْ زِبْنِيٌّ، قَالَهُ الْكِسَائِيُّ. قال أَبُو عُبَيْدَةَ: زِبْنِيَةٌ وهو كل متمرِّد من إنس أو جان، وَقِيلَ: زَبَانِيٌّ. وقال الأخفش : سمعت "الزابنَ" من عيسى بن عمر. والعرب لا تكاد تعرف هذا وتجعله من الجمع الذي لا واحد له مثل "أَبابِيل" تقول:"جاءَتْ إِبِلي أبابيل" أي: فِرَقاً. وهذا يجيء في معنى التكثير مثل "عَباديد" و"شَعارِير" . وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمُ الشُّرَطُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الزَّبْنِ وَهُوَ الدَّفْعُ، وَمِنْهُ يقال: ناقة زبون: إذا زَبَنَتْ حالبها ودفعته برجلها، وتَزَابَنَ القوم: تدارؤوا، وسمّوا زبانية لأنهم يزبنون الكفار في النار أي يدفعونهم ويسوقونهم إليها. وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمُّوا الزَّبَانِيَةَ لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بِأَرْجُلِهِمْ، كَمَا يَعْمَلُونَ بِأَيْدِيهِمْ، حَكَاهُ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ، وقيل زبني على النسبة، أصلها زباني والتاء عوض عن الياء، وهم كل من عظم خلقه، واشتد بطشه، قَالَ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ: وَقَدْ زبنتنا الْحَرْبُ وَزَبَنَّاهَا.[٢] ويقول السمين الحلبي بعد عرضه للآراء:" والحاصلُ أنَّ المادةَ تَدُلُّ على الدَّفْعِ"[٣]. وتقول بنت الشاطئ:" وأيا ما كان أصل الكلمة، فالعربية قد أطلقت الزبانية على مردة الإنس والجن. وفي المادة: زبانيا العقرب أي قرناها، وفيهما السم الزعاف. ونقلت الزبانية إلى المصطلح الديني علماً على الملائكة والموكلين بعذاب الخاطئين في جهنم. وبه تفهم آية العلق، في الزبانية يدعوها الخالق ويكل إليها أمر تعذيب هذا الضال المغتر بجاهه

---

(١) إعراب الثلاثين سورة من القرآن الكريم ،لابن خالويه ت ٣٧٠ ه ص ١٤١، ط : مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠– ١٩٤١ القاهرة، روح البيان ج١٠ ص ٤٧٨ .

(٢) معاني القرآن للأخفش ج٢ ص ٥٨٢ ، المحرر الوجيز ج ٥ ص ٥٠٣ ، زاد المسير ج ٤ ص ٤٦٨ ، تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١٢٦ ، البحر المحيط في التفسير ج١٠ ص ٥٠٥ ، ٥٠٦، نظم الدرر ج٢٢ ص ١٧١ ، تفسير المراغي ج٣٠ص٢٠٥ .

(٣) الدر المصون ج١١ ص ٦٢.

وقوته، المدل بناديه، ولم تحدد الآية صنيع الزبانية، بل تركته على إطلاقه الرهيب، يذهب فيه التصور كل مذهب"[١]

"كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)"

مظهر آخر من مظاهر التحدي وكسر العناد، وفي المقابل طلب الدوام على الخشوع والخضوع والقرب :

لما كان الذي تقدم نهي الناهي للمصلي والسفع بناصيته إن لم ينته وأمره بدعاء ناديه، وكان الحكم في الأول أنه لا يجيبه إلى ترك الصلاة، وفي الثاني أن الناهي لا ينتهي عن عصيانه بالتهديد وأنه لا يفيده دعاء ناديه، فالكل منفي، حَسُنَ كُلُّ الحسن الإتيان بأداة الردع فقال: "كلا" أي لا يقدر على دعاء ناديه ولا ينتهي عن أذاه للمطيع بالتهديد فليرتدع عن كل من ذلك. ولما كان كأنه قيل: فما أفعل؟ قال معرفاً أن من علم أن طبع الزمان وأهله الفساد، وجب عليه الإقبال على شأنه والإعراض عن سائر العباد "لا تطعه" أي في نهيه لك عن الطاعة بالصلاة أو غيرها.[٢] فقوله "كَلَّا " ردع بعد ردع للناهى المذكور وزجر له إثر زجر فهو متصل بما قبله ولذا جعلوا الوقف عليه وقفا مطلقا لا تُطِعْهُ أي دم على ما أنت عليه من معاصاة ذلك الناهي الكاذب الخاطئ كقوله ﷻ"ولا تطع المكذبين "وَاسْجُدْ وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به وَاقْتَرِبْ وتقرب بذلك السجود إلى ربك .[٣]

وقوله ﷻ: "كَلَّا" أي: ليس الأمر على ما عليه أبو جهل لا تُطِعْهُ في ترك الصلاة وَاسْجُدْ أي: صَلِّ لله وَاقْتَرِبْ إليه بالطاعة قول الجمهور فقوله ﷻ:"وَاقْتَرِبْ" خطاب للنبيّ ﷺ، وقد قيل: إنه خطاب لأبي جهل : ثم فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: اسجد أنت يا محمد، واقترب أنت يا أبا جهل إلى النّار، قاله زيد بن أسلم. والثاني:

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) نظم الدرر ج٢٢ ص ١٧٢ ، ١٧٣ . .

(٣) إرشاد العقل السليم ج٩ص١٨١ ، روح البيان ج١٠ ص ٤٧٨ .

واقترب يا أبا جهل تَهَدُّدًا له أي إن كنت تجترئ حتى ترى كيف قتلك، رواه أبو سليمان الدمشقي عن بعض القُدَماء.[١] فَكَأَنَّهُ ﷻ أَمَرَهُ بِالسُّجُودِ لِيَزْدَادَ غَيْظُ الْكَافِرِ، كَقَوْلِهِ:﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[٢] والسبب الموجب لازدياد الغيظ هو أن الكفار كَانَ يَمْنَعُهُ مِنَ الْقِيَامِ، فَيَكُونُ غَيْظُهُ وَغَضَبُهُ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ السُّجُودِ أَتَمَّ، ثُمَّ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ وَاقْتَرِبْ مِنْهُ يَا أَبَا جَهْلٍ وَضَعْ قَدَمَكَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ سَاجِدٌ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ، وَهَذَا تَهَكُّمٌ بِهِ وَاسْتِحْقَارٌ لِشَأْنِهِ.[٣] وكذلك أورد الرازي من أقوال أهل العلم ما مراده جميعا أنه غاية التحدي لهذا الكافر وقمة الإذلال له فقال:" وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يَتَصَلَّفُ بِهِ مِنْ أَنَّهُ يَدْعُو نَادِيَهُ وَلَئِنْ دَعَاهُمْ لَنْ يَنْفَعُوهُ وَلَنْ يَنْصُرُوهُ، وَهُوَ أَذَلُّ وَأَحْقَرُ مِنْ أَنْ يُقَاوِمَكَ، وَيُحْتَمَلُ: لَنْ يَنَالَ مَا يَتَمَنَّى مِنْ طَاعَتِكَ لَهُ حِينَ نَهَاكَ عَنِ الصَّلَاةِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَلَا لَا تُطِعْهُ. ثُمَّ قَالَ لَا تُطِعْهُ وَهُوَ كَقَوْلِهِ:" فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ"[٤] وَاسْجُدْ، وعِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَرَادَ بِهِ صَلِّ وَتَوَفَّرْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ فِعْلًا وَإِبْلَاغًا، وَلْيَقِلَّ فِكْرُكَ فِي هَذَا الْعَدُوِّ فَإِنَّ اللَّهَ مُقَوِّيكَ وَنَاصِرُكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ الْمُرَادُ الْخُضُوعُ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ نَفْسُ السُّجُودِ فِي الصَّلَاةِ. ثُمَّ قَالَ: وَاقْتَرِبْ وَالْمُرَادُ وَابْتَغِ بِسُجُودِكَ قُرْبَ الْمَنْزِلَةِ مِنْ رَبِّكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: ﴿ أقرب ما يكون العبد مِنْ رَبِّهِ إِذَا سَجَدَ ﴾.[٥] وتقول بنت الشاطئ:" وإذ يأخذ الاقتراب من الله مكانه ختاماً للآية، وليس بعد القربى من الخالق غاية يطمح إليها العابد الساجد، يأخذ سجود المصطفى هنا، موضعه المهيب خضوعاً لجلال الخالق، فيصدع خيلاء المفتونين وكبرياء المزهوين، ويكبح غرور الإنسان الذي خلقه الله من

---

(١) تفسير ابن عطية ج٥ ص ٥٠٣ ، زاد المسير ج ٤ ص ٤٦٨ ، تفسير القرطبي ج٢٠ ص ١٢٦.

(٢) الْفَتْحِ من الآية: [٢٩]

(٣) تفسير الرازي " مفاتيح الغيب" ج٣٢ ص ٢٢٦ .

(٤) الْقَلَمِ الآية: [٨] .

(٥) تفسير الرازي ج٣٢ ص ٢٢٦ .

علق، وعلمه بالقلم ما لم يعلم، فأطغاه وهم الاستغناء عن خالقه ﷻ له الآخرة والأولى:"كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى"[1]، كما تقول أيضا:" ويأتي الاقتراب قرين السجود في ختام الآية "وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" ولا نطمئن إلى تفسير الاقتراب هنا بالتقرب كما ذهب أبو حيان، بل نؤثر أن تحتفظ الكلمة بدلالتها على الدنو والقربى من الله ﷻ، وإن أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد.[2]

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ" [3] وأخرج الترمذي في سننه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:"سَجَدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ" [4] يقول ابن العربي:" رَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ "أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَرَأَ لَهُمْ: "إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ" فَسَجَدَ فِيهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَجَدَ فِيهَا وَفِي: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ"، فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَسْجُدْ فِي شَيْءٍ مِنْ الْمُفَصَّلِ مُنْذُ تَحَوَّلَ إلَى الْمَدِينَةِ" قُلْنَا: هَذَا خَبَرٌ لَمْ يَصِحَّ إسْنَادُهُ، وَلَوْ صَحَّ فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ قَرَأَهُ وَلَمْ يَسْجُدْ فِيهِ، فَلَعَلَّهُ لَمْ يَقْرَأْ بِهِ فِي صَلَاةِ جَمَاعَةٍ.[5] كما يقول أيضا:" قَوْلُهُ:"وَاسْجُدْ" فِيهَا طَرِيقَةُ الْقُرْبَةِ، فَهُوَ يَتَأَكَّدُ عَلَى الْوُجُوب، لَكِنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سُجُودَ الصَّلَاةِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سُجُودَ التِّلَاوَةِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ سُجُودُ الصَّلَاةِ، لِقَوْلِهِ:"أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إذَا صَلَّى" إلَى قَوْلِهِ: "كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" ، لَوْلَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَئِمَّةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: سَجَدْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي: "إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَفِي "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" سَجْدَتَيْنِ، فَكَانَ هَذَا نَصًّا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ سُجُودُ التِّلَاوَةِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٥ .

(٣) صحيح مسلم، كِتَابُ الصَّلَاةِ بَابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ح رقم ٤٨٢ .

(٤) سنن الترمذي ، أبواب السفر ، بَابٌ فِي السَّجْدَةِ فِي: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" ، وَ "إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ" ح رقم ٥٧٣. حكم الألباني : صحيح .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ج٢ ص ٣٧٣.

حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: عَزَائِمُ السُّجُودِ أَرْبَعٌ: "الم السجدة و"حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" فصلت و"وَالنَّجْمِ" و"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ "، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:"أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ فِي الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ".(١) وَقَدْ قَالَ ابْنُ نَافِعٍ وَمُطَرِّفٌ: وَكَانَ مَالِكٌ يَسْجُدُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِخَاتِمَةِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَابْنُ وَهْبٍ يَرَاهَا مِنْ الْعَزَائِمِ.(٢) يقول القرطبي : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا نِهَايَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَلِلَّهِ غَايَةُ الْعِزَّةِ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا مِقْدَارَ لَهَا، فَكُلَّمَا بَعُدْتَ مِنْ صِفَتِهِ، قَرُبْتَ مِنْ جَنَّتِهِ، وَدَنَوْتَ مِنْ جِوَارِهِ فِي دَارِهِ.(٣)

بعد كل ما رأيناه من دلائل الإعجاز في هذه السورة، وما صال وجال حوله المفسرون، من سعي وراء ذلك قاصدين الوصول إلى مراد الله ﷻ، هناك سؤال يطرح نفسه وخاصة أن هذه السورة أول ما نزل ، ما الملفت للنظر في إعجاز السورة الذي يجعل كفار مكة وهم في قمة البلاغة والبيان يعلموا لأول وهلة أن هذا الكلام ليس من عند بشر ؟

يطرح ذلك صاحب الظلال مبينا كيف كانت هذه السورة دليل إعجاز حيث يقول:" فأين هو السحر الذي تحدث عنه ابن المغيرة بعد التفكير والتقدير؟ لا بد إذن أن السحر الذي عناه كان كامنًا في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية، لا بد أنه كامن في صميم النسق القرآني ذاته، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده. وإن لم نغفل ما في روحانية العقيدة الإسلامية وبساطتها من جاذبية، فلننظر في السورة الأولى "سورة العلق" إنها تضم خمس عشرة فاصلة قصيرة، ربما يلوح في أول الأمر أنها تشبه سجع الكهان، أو حكمة السجاع، مما كان معروفًا عند العرب إذ ذاك. ولكن العهد في هذه وتلك أنها جمل متناثرة،

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم بسنده عن ابن عباس ، كِتَابُ الصَّلَاةِ ،بَابُ النَّهْيِ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ح رقم ٤٧٩ ، ومعنى"قمن" حقيق وجدير.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ج٤ ص ٤٢٤ ،٤٢٥ بتصرف .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ١٢٨ .

لا رابط بينها ولا اتساق. فهل هذا هو الشأن في "سورة العلق"؟ الجواب: لا؛ فهذا نسق متساوق، يربط فواصله تناسق داخلي دقيق، هذه هي السورة الأولى في القرآن، فناسب أن يستفتحها بالإقراء ، وباسم الله: الإقراء، الإقراء للقرآن، واسم الله؛ لأنه هو الذي يدعو باسمه إلى الدين. والله "رب" فالقراءة للتربية والتعليم "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ". وإنها لبدء للدعوة، فليختر من صفات "الرب" صفته التي بها معنى البدء بالحياة "الَّذِي خَلَقَ"، وليبدأ من الخلق بمرحلة أولية صغيرة "خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ" منشأ صغير حقير، ولكن الرب الخالق كريم، كريم جدًّا! فقد رفع هذا العلق إلى إنسان كامل، يعلم فيتعلم "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ". وإنها لنقلة بعيدة بين ذلك المنشأ وهذا المصير . وهي تصور هكذا مفاجأة بلا تدرج، وتغفل المراحل التي توالت بين المنشأ والمصير، لتلمس الوجدان الإنساني لمسة قوية في مجال الدعوة الدينية، وفي مجال التأملات الوجدانية، ولقد كان المتوقع أن يعرف الإنسان هذا الفضل العظيم، وأن يشعر بتلك النقلة البعيدة، ولكن: "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى" لقد برزت إذن صورة الإنسان الطاغي الذي نسي منشأه وأبطره الغنى، فالتعقيب التهديدي السريع على بروز هذه الصورة هو"إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى"، فإذا رد الأمر إلى نصابه هكذا سريعًا، لم يكن هناك ما يمنع من المضي في حديث الطغيان الإنساني، وإكمال الصورة الأولى. إن هذا الإنسان الذي يطغى، ليتجاوز بطغيانه نفسه إلى سواه:"أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى" أرأيت؟ إنها لكبيرة! وإنها لتبدو أكبر إذا كان هذا العبد على الهدى آمرًا بالتقوى: "أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى" فما بال هذا المخلوق الإنساني غافلا عن كل شيء غفلته عن نشأته ونقلته؟ "أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" فالتهديد إذن يأتي في إبانه "كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ" هكذا "لَنَسْفَعَنْ" بذلك اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه، وإنه لأوقع من مرادفه: لنأخذنه بشدة، و"لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ" صورة حسية للأخذ الشديد السريع، ومن أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر، من مقدم الرأس المتشامخ، إنها الناصية تستحق السفع "نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ".

وإنها للحظة سفع وصرع، فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه "فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ" ومن فيه أما نحن فإننا "سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ"، وهنا يخيل السياق للسامع صورة معركة بين المدعوين، بين الزبانية وأهل ناديه؛ وهي معركة تخييلية تشغل الحس والخيال، ولكنها على هذا النحو معروفة المصير! فلتترك لمصيرها المعروف؛ وليمض صاحب الرسالة في رسالته، غير متأثر بطغيان الطاغي وتكذيبه "كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" هذا ابتداء قوي منذ اللحظة الأولى للدعوة. وهذه الفواصل التي تبدو في الظاهر متناثرة، هي هكذا من الداخل متناسقة. وهذا نسق من القرآن في السورة الأولى، الشبيهة في ظاهرها بسجع الكهان، أو حكمه السجاع.[1]

بعض ما يستفاد من الآيات :

* أمة الإسلام أرقى الأمم ، ومن ثم تعامل القرآن معها على هذا الأساس ، فكانت معجزتها عقليه تدور مع الزمان حيث دار وتخلد إلى قيام الساعة ، فنجد أول خطاب أمر برقي الوعي وثانيه كيف تدون العلوم ، وحتى في بداية كتابته بعد حمد الله والثناء عليه يشير إلى أعظم شيء هو العلم ، وأول قصة للبشرية تفيد ميزة العلم وأول سورة بعد الهجرة وتكوين الدولة تقول العلم ، فأي منج وأي أمة أرقي من هذه الأمة .

* لا نهضة لهذه الأمة ولا قيادة لهذا العالم إلا باتباع المنهج الإلهي " باسم ربك" فإذا أخذت بهذا المنهج لن تنحرف عن جادتها أو تزيغ في سلوكها، فتتحكم فيها المادية أو المصالح والأهواء .

* عظم منَّة الله على البشرية بخلقها من العدم ، وصيرورتها إلى قائد للعالم يتصرف فيه كيف يشاء ، ويحقق مراد الله منه من تحقيق للخلافة .

* أعظم المنن العلم وإلا لما قرنت بصفة الله الأكرم، ولو وجد أعظم منها لقرن بهذه الصفة الجليلة .

---

(١) التصور الفني في القرآن، سيد قطب إبراهيم من ص ١٩ : ٢٢ .

* العلم كله مرده إلى الله " علم الإنسان ما لم يعلم " .

* تحذير للعلماء من الطغيان ،وإذا كان التحذير لأعظم فئة فما بالنا ممن هو دونها .

* تحذير الإنسان من أن يركن لنفسه مهما أوتي من أسباب القوة ، فما أهلك قارون إلا قوله" إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي"، وهلك أبو جهل برؤيته نفسه استغنت عن باريها، ودائما العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهو تحذير من الركون إلى الأسباب وترك النظر إلى مسببها، فمهما اجتمع للبشرية من أسباب فكل شيء بيد الله تبارك وتعالى .

* عِلمُ الإنسان أن الله مطلع عليه في كل وقت وحين ضابط له في كل تصرف .

* المرد والمرجع والمصير إلى الله ولا يستطيع كائن من كان التنصل من ذلك ، فأفلح من وضع ذلك نصب عينيه .

* وجوب الثقة في الله وحده ،وأن الله ينصر المؤمنين في النهاية .

* إعجاز القرآن لكل زمان وأهل كل مكان بأخذهم منه ما يتناسب مع عصرهم وثقافتهم، فهاهو يتوعد أبو جهل بكسر كبره وطمس علوه ويأخذه من عليائه ، ويأتي الزمان ويدور ويثبت العلم أنه ليس كذلك وفقط بل سيأخذه من منبع قراره ومكان إرادته .

*على الإنسان دائما ألا ينسى أنه مخلوق من عدم ، ومن ثم فليضرع وليتذلل إلى باريه ، وليطلب القرب ويتقرب بدنوه إلا ما خلق منه، ويُنزل أعلاه أسفله فهو أعظم تذلل لباريه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت المراجع

☜ إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر لأحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء (ت: ١١١٧هـ)، ت: أنس مهرة، ط: دار الكتب العلمية – لبنان، ط: الثالثة، ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ .

☜ أحكام القرآن لأحمد بن علي أبي بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ) ، ت: محمد صادق القمحاوي ، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط: ١٤٠٥ هـ .

☜ أحكام القرآن للقاضي محمد بن عبد الله أبي بكر بن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ) ، ت: محمد عبد القادر عطا ، ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

☜ إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط: دار المعرفة – بيروت .

☜ أسباب نزول القرآن للواحدي (ت: ٤٦٨هـ) ، ت: كمال بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط: الأولى، ١٤١١ هـ .

☜ أسرار ترتيب القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)،ط: دار الفضيلة للنشر والتوزيع بدون .

☜ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت : ١٣٩٣هـ) ، ط : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان ، ط : ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م .

☜ إعجاز القرآن الكريم للدكتور / فضل حسن عباس ، سناء فضل حسن عباس ط دار الفرقان ، ط الرابعة ١٤٢٢ –٢٠٠١ .

☜ إعراب الثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه ت ٣٧٠ ه ، ط : مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠ – ١٩٤١ القاهرة .

☜ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبـــراهيم، ط: الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ، ط: ١٣٩٤هـــ - ١٩٧٤ م .

☜ الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، لمحمد أبو شُهبة (ت: ١٤٠٣هـــ) ط: مكتبة السنة ، ط: الرابعة .

☜- الأمالي لأبي علي القالي، (ت: ٣٥٦هـــ) ،ت: محمد عبد الجواد الأصـــمعي، ط: دار الكتب المصرية، ط: الثانية، ١٣٤٤ هـــ - ١٩٢٦م .

☜ البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوســـف بـــن حيان أثير الدين الأندلسي (ت٧٤٥هـــ) ، ت : صدقي محمد جميل ، ط: دار الفكر - بيروت، ط: ١٤٢٠ هـــ .

☜ البداية والنهاية لابن كثير ،ط : دار إحياء التراث العربي ، ت: علي شـــيري ، ط: الأولى ١٤٠٨، هـــ - ١٩٨٨ م .

☜ البرهان في تناسب سور القرآن لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفـــي الغرنـــاطي، (ت: ٧٠٨هـــ) ، ت: محمد شعباني ، ط: وزارة الأوقاف والـــشؤون الإســـلامية المغرب ، ط: ١٤١٠ هـــ - ١٩٩٠ م .

☜ البرهان في علوم القرآن لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبـــد الله بـــن بهـــادر الزركشي (ت٧٩٤هـــ) ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: الأولى، ١٣٧٦ هـــ - ١٩٥٧ م ، ط: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه .

☜ البيان في عدّ آي القرآن ، لأبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـــ) ، ت: غانم قدوري الحمد ، ط: مركز المخطوطات والتـــراث - الكويـــت، ط: الأولى، ١٤١٤هـــ ١٩٩٤م .

☜ التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتـــاب المجيد"، لمحمد الطاهر بـــن محمـــد بـــن محمـــد الطـــاهر بـــن عاشـــور التونـــسي (ت : ١٣٩٣هـــ) ، ط : الدار التونسية للنشر - تونس .

☜ التصور الفني في القرآن، لسيد قطب إبراهيم (ت١٣٨٥هـ) ، ط: دار الشروق، ط: السابعة عشرة .

☜ التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت: ١٤١٩هـ)، ط: دار المعارف بالقاهرة ، ط:السابعة.

☜ التفسير القرآني للقرآن ، لعبد الكريم يونس الخطيب (ت بعد ١٣٩٠هـ) ، ط: دار الفكر العربي – القاهرة .

☜ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د /وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط : دار الفكر المعاصر – دمشق ، ط : الثانية ، ١٤١٨ هـ .

☜ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي، ط: دار نهضة مصر ، الفجالة – القاهرة ، ط: الأولى .

☜ التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) ، ت اوتو تريزل ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، ط الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

☜ الثقات ،لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت٣٥٤هـ) ، ط دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند ط الأولى، ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ .

☜ الحماسة البصرية ، لعلي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (ت: ٦٥٩هـ) ، ت: مختار الدين أحمد ، ط: عالم الكتب– بيروت .

☜ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ) ، ت : الدكتور أحمد محمد الخراط ، ط: دار القلم، دمشق .

☜ الزهد لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ)، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

☜ الطبقات الكبرى لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد (ت٢٣٠هـ)، ت محمد عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، ط الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .

☜ العباب الزاخر واللباب الفاخر، لرضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر الصغاني (ت: ٦٥٠هـ) .

☜العلم وبناء الأمم، دراسة تأصيلية لدور العلم في بناء الدولة، أ.د راغب السرجاني ط: الأولى ١٤٢٨- ٢٠٠٧، ط مؤسسة اقرأ-القاهرة .

☜القرآن وإعجازه العلمي لمحمد إسماعيل إبراهيم ، ط: دار الفكر العربي - دار الثقافة العربية للطباعة .

☜اللباب في علوم الكتاب لا بن عادل الحنبلي (ت. ٧٧٥هـ) ، ت. الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت ص لبنان ، ط. الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م .

☜المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لا بن عطية الأندلسي المحاربي. (ت٥٤٢هـ) ، ت : عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط: دار الكتب العلمية بيروت ، ط: الأولى - ١٤٢٢ هـ .

☜ المراسيل ، لأبي داود السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) ، ت: شعيب الأرناؤوط ، ط: مؤسسة الرسالة - بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٨ .

☜ المستدرك على الصحيحين ، لأبي عبد الله الحاكم (ت٤٠٥هـ) ، ت :مصطفى عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية - بيروت ، ط الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠ .

☜ المعجزة الكبرى القرآن، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ت١٣٩٤هـ)، ط: دار الفكر العربي .

☜ المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) ، ت صفوان عدنان الداودي ، ط دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط الأولى - ١٤١٢ هـ،

☜ المقنع في رسم مصاحف الأمصار ، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) ، ت محمد الصادق قمحاوي ، ط مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة .

☜ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنـــووي (ت: ٦٧٦هـــ) ، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط: الثانية، ١٣٩٢ ه .

☜ الموضوعات لابن الجوزي (ت:٥٩٧هـ)، ت :عبد الـــرحمن محمـــد عثمـــان، ط:المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط: الأولى ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ م .

☜ النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه)، لعلي بن فَضَّال بـــن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني، أبو الحسن (ت: ٤٧٩هـــ)، ت: د. عبد الله عبد القادر الطويل ، ط: دار الكتب العلميـــة – بـــيروت ، ط: الأولى، ١٤٢٨ هـــ ٢٠٠٧ م .

☜ أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت٦٦٦هـ) ، ت د. عبد الـــرحمن بن إبراهيم المطرودى، ط: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية– الريـــاض، ط: الأولى، ١٤١٣هـ،١٩٩١ م .

☜ إنه الحق [من إصدارات الهيئة العلمية للإعجـــاز العلمـــي بمكـــة المكرمـــة] ط الرابعة ١٤٢٧/٢٠٠٦.

☜ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين أبو طاهر محمـــد بـــن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـــ) ،ت: محمد علي النجار ، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ط: ١٤١٦ هـــ - ١٩٩٦ م .،

☜ تاريخ نزول القرآن د/ محمد رأفت سعيد ، ط: دار الوفاء – المنصورة، مصر ، ط: الأولى، ١٤٢٢ هـــ - ٢٠٠٢ م.

☜ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري ،لجمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (ت٧٦٢هـــ) ، ت عبد الله بـــن عبـــد الرحمن السعد ، ط دار ابن خزيمة – الرياض ، ط الأولى، ١٤١٤هـــ .

☜ تفسير ابن جزي "التسهيل لعلوم التنزيل"، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت٧٤١هـــ) ، ت: د/ عبد الله الخالدي ، ط: دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ، ط: الأولى - ١٤١٦ هـــ.

☜ تفسير ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ)، ت: سامي بن محمد سلامة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

☜ تفسير أبي السعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، لأبي السعود العمادي (ت٩٨٢هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

☜تفسير البغوي "معالم التنزيل في تفسير القرآن" ،لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (ت :٥١٠هـ)، ت: عبد الرزاق المهدي ، ط : دار إحياء التراث العربي –بيروت ، ط : الأولى ، ١٤٢٠ هـ .

☜تفسير البيضاوي "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" ، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط الأولى – ١٤١٨ هـ .

☜تفسير الخازن " لباب التأويل في معاني التنزيل" ، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي ، المعروف بالخازن (ت٧٤١هـ) ، ت : محمد علي شاهين ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى – ١٤١٥ هـ

☜ تفسير الرازي" مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط: الثالثة – ١٤٢٠ هـ .

☜ تفسير الزمخشري "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت٥٣٨هـ) ، ط: دار الكتاب العربي – بيروت ، ط: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

☜ تفسير السمرقندي " بحر العلوم" لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت٣٧٣هـ) .

☜ تفسير الشوكاني "فتح القدير" ، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ) ، ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط: الأولى – ١٤١٤ هـ .

☜ تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن "، لمحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ت: أحمد محمد شاكر ، ط: مؤسسة الرسالة ، ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

☜ تفسير القاسمي " محاسن التأويل "، لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت١٣٣٢هـ) ، ت : محمد باسل عيون السود ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط: الأولى – ١٤١٨ هـ .

☜ تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت : ٦٧١هـ)، ت : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط : دار الكتب المصرية بالقاهرة ،ط : الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

☜ تفسير الماوردي " النكت والعيون "، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، الشهير بالماوردي (ت٤٥٠هـ) ، ت : السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان .

☜ تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي (ت١٣٧١هـ) ، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

☜ تفسير النسفي "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت٧١٠هـ) ، ت: يوسف علي بديوي ، ط: دار الكلم الطيب، بيروت ، ط: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

☜ تفسير آيات الأحكام، لمحمد علي السايس، ت: ناجي سويدان ، ط: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط : ٢٠٠٢.

☜ تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، ط : الجمعية الخيرية الإسلامية بمصر، ط: الثالثة ١٣٤١ ه .

☜ تفسير مجاهد، لأبي الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت١٠٤هـ) ، ت : د/ محمد عبد السلام أبو النيل ، ط: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر ، ط: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .

☜ تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه في وسائل الإعلام ، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة .

☜ جمال القراء وكمال الإقراء . لعلي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، علم الدين السخاوي (ت٦٤٣هـ) ، ت د. مروان العطيَّة، د. محسن خرابة، ط: دار المأمون للتراث- دمشق - بيروت ، ط: الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

☜ حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي ، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ) ،ط: دار صادر - بيروت .

☜ دراسات في علوم القرآن الكريم، أ.د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ، ط: الثانية عشرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

☜ دراسات في علوم القرآن د/ محمد بكر إسماعيل (ت: ١٤٢٦هـ) ، ط: دار المنار، ط: الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م

☜ درة التنزيل وغرة التأويل ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ) ، ت: د/ محمد مصطفى آيدين ، ط جامعة أم القرى، ط الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

☜ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) ، ط : مكتبة ابن تيمية - القاهرة ، توزيع : مكتبة الخراز - جدة ، ط : الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .

☜ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، ط دار الكتب العلمية - بيروت ، ط الأولى - ١٤٠٥ هـ .

☜ روائع البيان تفسير آيات الأحكام ،لمحمد علي الصابوني ، ط: مكتبة الغزالي - دمشق، مؤسسة مناهل الغرفان - بيروت ، ط: الثالثة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

☜ روح البيان لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت١١٢٧هـ) ، ط دار الفكر – بيروت .

☜ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت١٢٧٠هـ) ، ت: علي عبد الباري عطية ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥ هـ.

☜ زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، ت : عبد الرزاق المهدي ، ط: دار الكتاب العربي بيروت ، ط: الأولى – ١٤٢٢ هـ .

☜ سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت٢٧٥هـ) ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .

☜ سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت٢٧٩هـ) ، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون ، ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ، ط الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥ م .

☜ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لشمس الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الجَوجَري القاهري الشافعي (ت: ٨٨٩هـ) ، ت: نواف بن جزاء الحارثي، ط : عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية (أصل الكتاب: رسالة ماجستير للمحقق) ط:الأولى،١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م

☜ صحيح ابن حبان "الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان " لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي (ت٣٥٤هـ) ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت٧٣٩ هـ) ، ت: شعيب الأرنؤوط ، ط مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

☜ صحيح البخاري "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه " ، لمحمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي ، ت محمد زهير بن ناصر الناصر، ط دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ، ط الأولى، ١٤٢٢هـ .

☜ صحيح مسلم "المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ" ، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، ت محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

☜ صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال للقاضي/حسين بن محمد المهدي – عضو المحكمة العليا للجمهورية اليمنية ، راجعه: الأستاذ العلامة عبد الحميد محمد المهدي ، مكتبة : أحمد بن محمد المهدي .

☜ عشرة أيام في حياة الرسول، خالد محمد خالد ط: دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة، ط ١٤١٥ص ١٩٩٤ م .

☜ علم التفسير كيف نشأ وتطور حتى انتهى إلى عصرنا الحاضر ، د/ عبد المنعم النمر ، عضو مجمع البحوث الإسلامية ، ط دار الكتب الإسلامية ، ط أولى ١٤٠٥ ١٩٨٥ .

☜ فتح الباري لابن حجر ط: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ ، ت: محمد فؤاد عبد الباقي .

☜ في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت١٣٨٥هـ) ، ط: دار الشروق بيروت، القاهرة، ط: السابعة عشر ١٤١٢ هـ .

☜ كشف الخفاء ومزيل الإلباس ، لإسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، (ت١١٦٢هـ)، ط المكتبة العصرية ، ت عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي ، ط الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م .

☜ كشف المعاني في المتشابه من المثاني لأبي عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (ت٧٣٣هـ) ، ت د/ عبد الجواد خلف ، ط دار الوفاء ـ المنصورة ، ط الأولى، ١٤١٠ هـ /١٩٩٠ م .

☜ كلاّ" دلالتها ومواقعها في القرآن الكريم ، بحث الدكتور / محمد محمد عبد العليم مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر الشريف .

☜ لا تحزن ، لعائض بن عبد الله القرني، ط: مكتبة العبيكان.

☜ مباحث في علوم القرآن، لمناع بن خليل القطان (ت: ١٤٢٠هـ)، ط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط: الثالثة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

☜ مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي .

☜ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) ، ت: حسام الدين القدسي ، ط: مكتبة القدسي، القاهرة ، ط: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م .

☜ مجموع الفتاوى لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ) ، ت عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ط: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

☜ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ) ، ط: دار الفكر، بيروت، لبنان ، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

☜ مسند الإمام أحمد ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ) ، ت شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط مؤسسة الرسالة، ط الأولى ،١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

☜ مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ ويُسَمَّى: "المَقْصِدُ الأَسْمَى فِي مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِمُسَمَّى" ، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، دار النشر: مكتبة المعارف بالرياض، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

☜ معاني القرآن للأخفش(ت٢١٥هـ) ، ت: د/ هدى محمود قراعة ، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .

☜ معاني القرآن للفراء لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت٢٠٧هـ) ، ت : أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، ط: دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر .

☜ معترك الأقران في إعجاز القرآن ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقـــران) ، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـــ) ، ط: دار الكتـــب العلمية – بيروت – لبنان ، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

☜ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لعبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابـــن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (ت: ٧٦١هـــ)، ت: د. مازن المبـــارك ، محمد علي حمد الله ، ط: دار الفكر ، دمشق، ط: السادسة، ١٩٨٥ .

☜ مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزُّرْقـــاني (ت١٣٦٧هـــ)، ط: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ،ط: الثالثة.

☜ منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز ، لمحمد الأمين بـــن محمـــد المختـــار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت : ١٣٩٣هـــ)، ت: مجمع الفقه الإسلامي بجدة ، بإشراف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط : دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع .

☜ نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي ، لجمال الدين أبو محمدٍ عبد الله بـــن يوســـف بـــن محمـــد الزيلعـــي (ت: ٧٦٢هـــ) ، ت: محمد عوامة ،ط: مؤسسة الريان للطباعة والنشر بيروت لبنان/ دار القبلة للثقافة الإسلامية– جدة – السعودية ، ط: الأولى، ١٤١٨هـــ/١٩٩٧م ،

☜ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ،لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بـــن علي بن أبي بكر البقاعي (ت٨٨٥هـــ) ، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

مواقع إلكترونيه :

http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=١٢٧١http://m.quran-m.com/